



اليمن، رحلة إلى صنعاء

عام 1877-1878م

تأليف: رنزو مانزوني

ترجمة: شيرين إيبش

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش



مكتبة
مؤمن قريش

المكتبة العامة لليمن في صنعاء
شارع الثورة - صنعاء
هاتف: 066 2222222

moamenqurish.blogspot.com

روّاد المشرق العربي

اليَمَن رحلة إلى صنعاء

عام 1877-1878 م

للرحالة الإيطالي
رنزو مانزوني

ترجمة
شيرين إيش

تحرير وتعليق
د. أحمد إيش

مراجعة
د. أحمد عبد الرحمن السقاف

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.

مهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر .

DS247.Y42 M3612 2012

Manzoni, Renzo

[El Yèmen. Un viaggio a Sana'a 1877-1878.]

البحر رحلة الى صنعاء عام 1877-1878م / للرحالة الإيطالي: رنزو مانزوني؛ لرجمة: شيرين إيش؛ تحرير وتعليق: إحمد إيش. - ط. 1. -
أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2012.

ص. ١ سم. - (رواد المشرق العربي)

ترجمة كتاب : El Yèmen. Un viaggio a Sana'a 1877-1878

تدمك: - 60- 156- 17- 9948- 978

1. اليمن -- وصف ورحلات -- 1877-1878. أ. إيش، شيرين. ب. إيش، أحمد. ج. العنوان. د. السلسلة.



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat

دار الكتب الوطنية

© حقوق الطبع محفوظة

دار الكتب الوطنية

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

المجمع الثقافي

© National Library

Abu Dhabi Tourism &

Culture Authority

"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى 1433 هـ 2012 م

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - المجمع الثقافي

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

ص.ب: 2380

publication@tcaabdhabi.ae

www.tcaabdhabi.ae



مكتبة
مؤمن قريش

مكتبة مؤمن قريش
مكتبة مؤمن قريش
مكتبة مؤمن قريش

اليَمَن
رحلة إلى صنعاء
عام 1877-1878 م

سلسلة رواد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» للمكتبة العربية بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السلسلة الثقافية التراثية التي تصدرها تحت عنوان: «رواد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويتهم الوطنية، وذلك من خلال الحرص على جمع كافة المصادر المتعلقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلمية بنشر التراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلمية ومؤسساتنا الثقافية على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التراث ونشر أصوله، وخاصة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تراثية عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربية في مجالات شتى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشعر، النحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطب وهندسة ورياضيات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نؤكد على أنّ ثمة تياراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتممه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتم التركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثّقفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيلوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلما أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رّحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

هذا الكتاب

لا بُدَّ من صَنَعا وإنْ طَالَ السَّفَرُ..

يسرّنا أن نقدّم إلى القارئ العربي ضمن سلسلة «رّواد المشرق العربي» كتاباً جديداً لرحالة شهير ارتبط اسمه بمدينة صنعاء في القرن التاسع عشر، ألا وهو الإيطالي رنزو مانزوني ⁽¹⁾ Renzo Manzone. ويسعدنا أنّه الخامس في قائمة منشورات السلسلة حتى الآن من الرّحّالين الطليان، بعد كلّ من: كارلو كلاوديو غوارماني، ليوناردو فريسكو بالدي، سيمونه سيغولي، وجورجو غوتشي، الذين قمنا بنشر رحلاتهم الممتعة والسائقة للمرّة الأولى باللغة العربيّة. وما زلنا نعد القارئ الكريم بنوادر أخرى قادمة. ومانزوني قد لا يكون بالاسم الغريب للمثقف العربي، لكن هذا الاسم يدلّ بالدرجة الأولى على جدّ رحّالتنا، الأديب الإيطالي ذائع الصيت أليساندرو مانزوني صاحب الرّوايات الشهيرة، مثل: «الخاطبون» *I Promessi Sposi* أشهر أعماله التي لا تزال تشكّل علامة فارقة في الأدب الإيطالي إلى يومنا الحاضر ⁽²⁾.

(1) يُلفظ اسمه بالإيطاليّة: رندزو ماندزونو، وفي توسكانا بشمال إيطاليا يلفظ: مانتسوني.
(2) أليساندرو فرانچيسكو مانزوني (1885-1873) Alessandro Francesco Manzone روائي وشاعر إيطالي شهير، رائد المدرسة الرّومانسيّة الإيطاليّة. اكتسب شهرته الأولى من روايته *I Promessi Sposi* (1826-1825) وهي دراسة تاريخيّة عن إيطاليا في القرن السابع عشر تمثل أرفع نماذج النثر الإيطالي الحديث. وله غيرها أعمال كثيرة منها: *Inni Sacri* (الأناشيد المقدّسة)، *Il Conte di Carmagnola* (كونت كارمانيولا) *Il Cinque Maggio* (الخامس من مايو)، *Storia della Colonna Infame* (قصة العمود المريع).

أما مانزوني الحفيد فما يميّز سيرة حياته نزوعه الجريء إلى التّرحال في مجاهل البلاد واقتحام المخاطر، وأشهر رحلاته بالطبع كانت في اليَمَن، إذ قام بثلاثة رحلات على امتداد ثلاث سنين بين 1877-1880 توجّه في الأولى بينها (وهي التي نتناول أخبارها في هذا الكتاب) من عَدَن إلى صنعاء عبر أحد طريقتين رئيسيين يسلكهما الرّحّالون:

فالطريق الرئيسي الشمالي الذي يبتدئ من عَدَن يقع بأعلى وادي تبَن، ويتفرّع بالقرب من المسيمير، على بُعد حوالي خمسين ميلاً في البرّ الدّاخلي. ومن هنالك يمتدّ طريق حول الكتلة الرئيسيّة لجبل صَبُر وصولاً إلى تَعز. وثمة طريق آخر يتّجه صوب قَعطبة، ثم يتابع إمّا عن طريق مدينة إبّ أو صُوبة وصولاً إلى يَرِيم.

وهذا الطريق الأوّل سار فيه (بالاتجاه المعاكس) الرّحّالة الألماني زيتسن Seetzen في عام 1810 م في طريقه من المُخا إلى عَدَن، ولكننا لا نعرف الكثير عن رحلته سوى أنّه قام بها. أمّا الوصف الوحيد الذي حصلنا عليه فهو وصف موجز للغاية كتبه الرّحّالة والمبشّر الأميركي صموئيل مارينوس زويمَر S. M. Zwemer الذي سلك طريقه في عام 1894 م من عَدَن إلى تَعز. وفي محطته الرابعة ألقى زويمَر نفسه في منطقة الهضاب، التي تحلّ فيها المنازل الحجرية محلّ الأبنية الطينية الموجودة في السّاحل وحيث تبتدئ الحياة النباتية الأغنى والأوفر⁽¹⁾.

أما الطريق الثاني، وهو الأكثر أهميّة، فلقد وصفه بشكل وافٍ تام رنزو مانزوني، الذي اجتازه في طريقه قادماً من عَدَن إلى صنعاء في عام 1877 م، كما عاد أدراجه عليه في طريق عودته. وفي مرّة أخرى انحرف منه متوجّهاً إلى إبّ وتَعز. أما الطريق الرئيسي المؤدّي إلى صنعاء فقد سلكه الإنكليزي وولتر هاريس⁽²⁾ Walter Harris في

(1) انظر كتابه في سلسلة رَوّاد المشرق العربي، الذي نشرناه مطلع هذا العام 2012 بعنوان: «رحلات متعرّجة في بلاد الإبل»:

Zigzag Journeys in the Camel Country.

(2) حصلت على كتابه: «رحلة عبر اليَمَن» *A Journey through the Yemen* المنشور في لندن عام 1893، وسوف أدرجه للترجمة ضمن السّلسلة.

عام 1892 م، وأما الطريق المتقاطع معه والمتجه من تعز إلى ريدة، والذي يشطر رأس المثلث فقد سلكه عالم النبات دُفلير Deflers في عام 1887 م. وجاء أيضاً الألماني هِرمان بورخارت⁽¹⁾ Hermann Burchardt إلى ريدة قادما من دَمار في عام 1891 م.

جميع هؤلاء الرّحّالين قصدوا صنعاء، كما كان فعل الرّحّالون الآخرون، قادمين من الحديدة في أوقات مختلفة. ولكن باستثناء اعتبار نصّ هاريس عن الأوضاع السياسيّة في صنعاء ما بعد التمرد الذي حدث في عام 1891 م، لا يلزمنا أن نركّز على أيّ شيء آخر سوى كتاب مانزوني، الذي تمّ نشره قبل ذلك بثماني سنوات. هذا المغامر الإيطالي، بعد إقامته في المغرب، طرح فكرة أن يقوم بعمل رائد في سبيل وطنه الأم في بلاد الحبشة، ولكن بسبب الافتقار إلى الموارد وبعض الأسباب الأخرى ضاعت منه فرصة القيام بذلك.

ولمّا حلّ بعَدَن في عام 1877 م، وقرّت في ذهنه فكرة تكوين اسم وشهرة عن طريق استكشاف اليَمَن، ومن بعد ذلك استكشاف أواسط جزيرة العرب. في ذلك الحين، ولعدم قدرته على الحصول على كثير من الدّعم من بلاده، ولمّا كان غير راغب في القيام بمخاطرة جسيمة، ونظراً لجهله نوعاً ما بما يمكن أن يؤطّر عنواناً حقيقياً للشهرة، ما كان منه إلّا أن مضى إلى صنعاء ثلاث مرّات ما بين السنوات 1877-1880 م، وهذا ما مكّنه من مشاهدة القسم الأكبر من جنوبي اليَمَن في طريقه، الأمر الذي لم ينطو على شيء جديد إلّا ما ندر.

لكنّ مجلّده الطموح من خلال معالجته لإثنوغرافيا (دراسة أعراق البشر) اليَمَن وتاريخه، يكشف عن عدم اكتمال معرفة المؤلّف وعدم دقّته، وهو عندما يشير إلى المُستكشفين الذين سبقوه، يتضح أنّه لم يكن على دراية عميقة بمؤلفاتهم كما أنّه لم يقرّ بفضلهم بل غمّطهم حقّهم.

لكن فيما يخصّ صنعاء على الأقل، فإنّ إقامته الطويلة هناك (خمسة أشهر في كلّ

(1) حصلت على كتابه: «من اليَمَن» *Aus dem Jemen* المنشور في لايتنيك (د.ت) حوالي عام 1924، وسوف أضيفه أيضاً للسلسلة.

مرة) وحرية الحركة التي حظي بها مكناه من دراسة طبوغرافيتها ومجتمعها بشكل أتم وأوفى من نيبور Niebuhr وكرتندن Cruttenden (اللذين شكك في زيارتهما بغير سبب مقنع)، أو المسافرين العابرين الآخرين الذين درسوها.

ومانزوني كان أول من أعطانا فكرة عن الطابع الإسلامي ذي الذوق المغربي لعاصمة اليمن، وعن الروعة البدائية لعمارتها المزخرفة بالجص ونوافذ الممر، وعن أناقة شوارعها، وطابع أبنيتها العامة القديمة، ومن أكثرها بهاء القصران والجامع الكبير. وهو يتناول موضوع المناخ بتركيز كبير، ويحاول تفسير الوضع الصحي الرديء الذي يسود هذه المدينة الباردة، الواقعة على ارتفاع يقارب سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر.

كان الحكم التركي قد أسفر عن إدخال نسبة معينة من التفوذ الأوروبي، فكان هناك عدد كبير من اليونان الذين نفذوا إلى شواطئ البحر الأحمر إثر اختتام الأعمال الإنشائية في قناة السويس، راحوا يعملون بالتجارة في الأسواق، كما أخذت البضائع الغربية بالانتشار في الأسواق. وكانت السلطات العثمانية شرعت في بناء المساكن والمستشفيات اللاتقة لمسؤوليها وجنودها، وهذا ما كان على حدّ تعبير زويمر الذي شاهد المكان في عام 1894 م قد أضفى على الحي المركزي طابعاً قاهرياً. أمّا تقدير مانزوني لعدد سكان صنعاء فيبلغ نصف ما قدره هاريس، وقام به بعد مضي خمسة عشر عاماً، ولعله يبقى الأكثر صحة.

وأما حول المناطق غير المستكشفة، الواقعة إلى جهتي الشمال والشرق من صنعاء، فلم يجرؤ الإيطالي على المغامرة بالذهاب إليها ولا حتى حاول الذهاب إلى مناطق همدان أو عمران أو كوكبان، التي بحكم كونها من الهضبة المركزية وارتباطها الوثيق بصنعاء، لم يمكن تركها لتبقى في أيدي غير موثوق بها، وهذا ما دفع مختار باشا ليعدّ العدة ويغزوها بالكامل في عام 1872 م.

* * *

على ذلك، يُعدّ رنزو مانزوني بين زوّار اليمن الأوروبيين من المرتبة الثانية وممّن سافر في رعاية الأتراك، عاش بين عدن وصنعاء ثلاثة أعوام في آخر سبعينيات القرن التاسع عشر، إبان الحكم العثماني الثاني لليمن 1872-1918، وترك وصفاً رائعاً للمدينة حافلاً بالرّسوم وبخارطة جيّدة. ومن بعده نجد عمل المهندس الفرنسي أ. ج. بنيتون A. G. Beneyton يكمل المهمة، إذ قام في مطلع القرن العشرين برسم بعض الخرائط وبمسح للأراضي من أجل سكّة حديدية مقترحة بين الحديدة وصنعاء.

أمّا آرثر جون واثل A. J. Wavell أحد أبرز الرّحّالين ما قبل الحرب العالمية الأولى، الذي زار الحرمين الشّريّفين في عام 1908-1909 وترك نصّاً ممتازاً عن المدينة ومكّة ومشاعر الحجّ، فقد زار صنعاء بعد سنتين وقَدّم أفضل وصف للمدينة منذ وصف مانزوني قبل ربع قرن⁽¹⁾.

* * *

وأوّل نشرة لكتاب مانزوني أصدرتها مطبعة إيريدي بوتّا Eredi Botta بروما في عام 1884 بعنوان:

EL YEMEN

Tre Anni Nell'Arabia Felice

Escursioni fatte dal Settembre 1877 al Marzo 1880

أيّ: «اليمن، ثلاثة أعوام في العربيّة السّعيدة، جولات تمّت منذ سبتمبر 1877 حتى مارس 1880». وهي طبعة ثمينة حافلة بالرّسوم والمخططات والخرائط، في 446 صفحة. لكن ثمة طبعة أخرى صدرت في تورينو لاحقاً بعنوان: *El Yemen*, *Un Viaggio A Sana'a* «اليمن، رحلة إلى صنعاء» اقتصرَت على ذكر رحلة مانزوني

(1) قمنا بنشر كتابه *A Modern Pilgrim in Mecca* «رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة 1908» ضمن السّلسلة في مطلع العام الحاضر 2012، ويوم أمس بالذات حصلت على طبعة أخرى من الكتاب تضمّ أخبار رحلته إلى صنعاء بعنوان: *A Siege in Sanaa* «حصار في صنعاء» وبالطبع سننشرها في أوّل سانحة.

الأولى، حصلتُ عليها أولاً وعملنا على ترجمتها وتحريرها قبل حصولنا على الطبعة الكاملة. ولذا نعد القراء المهتمين بأنّ لنا عودة إلى نشر الطبعة الكاملة في وقت لاحق. أمّا العمل في تحرير الكتاب فكان أمراً شاقاً للغاية، بسبب الكثرة الغامرة لأسماء القرى والجبال والشعاب والمياه والنباتات، ومصطلحات أدوات المعيشة اليومية في الدّور، والألبسة والحمّامات، وأسماء الأشخاص، والمواقع والأحياء بصنعاء التي تغيّر من معالمها الكثير اليوم بعد 135 سنة من وصف مانزوني لها. أضف إلى ذلك أنّ أسلوب التّقل الحرفي transliteration لأسماء من اللغة العربيّة (بمنطوقها العامّي اليمني) إلى الإيطاليّة، يبقى أمراً مشوّشاً للغاية، وثمة كثير من الحروف والثنائيات والأصوات التي تعجز الإيطاليّة عن التّعبير السّليم عنها، فلاحظ كيف سمّي الأعشار: *Hokùmet'el-hagefär*. ولذا فقد قمّتُ بإثبات التّسميات باللغة الإيطاليّة أيضاً في النصّ.

ومما زاد الأمور ضعفاً على إبالّة تنقّل المؤلف الكثير، والمشاق والمخاطر والمآزق المضحكة التي عاناها في ترحاله، ممّا حدّ من مقدّراته على تحرّي دقّة ضبط الأسماء، ناهيك عن ضعف لغته العربيّة وقرب عهده بتعلّمها (على يدي القاضي حسين القلاّدي كما يروي). وهكذا، وصلني الكتاب وفيه المئات من التّسميات المغلوطة، والأنكى من ذلك هي الأسماء الملتبسة مع تسميات متشابهة يتعذّر تمييزها بسهولة. إنّما كان لي في «الدّليل الشامل» بموقع «يمنا» العون الكبير على حلّ مغاليق هذه المآزق، فضلاً عن عدد كبير من خرائط اليمن على الشبكة العنكبوتيّة، وفي مراجع مكتبة الجامعة الأميركيّة في بيروت.

لكن برغم ذلك كله، يبقى كتاب مانزوني عملاً أصيلاً في فنّ «أدب الرّحلة»، قدّم فيه رواية حيّة تفاعليّة لأحداث ممتعة يغلب عليها أسلوب الرّواية الشخصيّة ولغة سلسلة أنيقة، فتفاعل الرّجل بعاطفته الإيطاليّة الحارّة المعهودة مع النّاس الذين قابلهم أو رافقهم، سواء كانوا من العامّة أو الأعيان المحلّيين أو الضبّاط والقضاة الأتراك، ووصف كلّ ما رآه بعين الشّاهد الدّقيق المُنصف. فأفادنا بتقديم صورة جميلة تنبض بالحياة لليمن العزيز على قلب كلّ عربي، في محافظات لَحَج والضّالع وإبّ وذمار وصنعاء، ورسم لعاصمة اليمن العريقة لوحة بارعة بهيّة تجعل القارئ يحسّ وكأنّه

يعيش فعلاً في صنعاء قبل قرن وثلث قرن من الزّمان.

حتى أنّ ثمة من يرى أنّ مانزوني الذي أقام بعدنّ في عام 1877، وزار في خلال ذلك صنعاء 3 مرات زيارات مطوّلة (1877-1880) وجال في طريقه بجنوب اليمن، إنّما قدّم فوائد تفوق ما جاء به الرحّالة الدنماركي الكبير كارستن نيبور⁽¹⁾ Carsten Niebuhr نفسه.

وكم سيكون من الممتع للقارئ أن يتتبع حلقة جديدة قادمة الآن مباشرة بخصوص الرّحلات في اليمن السعيد، أعني كتاب «جنوبيّ جزيرة العرب» *Southern Arabia* الشّائق والثمين للرحّالة والباحث البريطانيّ جايمس ثيودور بنت، وزوجته ماييل هول دير بنت. فهذا الكتاب أيضاً يمثّل ذروة مهمّة في أدب الرّحلات، وأحداثه تجري في جهة أخرى من اليمن، بين جنوبيّ حضرموت ومحافظة المهرة، وظُفار في جنوبي سلطنة عُمان.

* * *

وأخيراً، نعد القارئ بتقديم المزيد من نصوص رحلات الرّوّاد الإيطاليين إلى المشرق، وأشهرهم بوجه الإجمال: ماركو پولو، أوديريكو دا پوردينونه، جاكومو دي فيرونا، ريگولفو دا مونتة كروتشه، مارينو سانودو، نيگولو دا پودجيونصي، ليوناردو فريسكوبالدي، سيمونه سيغولي، جورجو غوتشي، ميشولام دي فولتيرا، عوبديا دا برتينورو، لودوفيكو دي فارتينا، موزيه باسولا دي آنكونا، دومينيكو ماغري، جوفاني فيناتي، كارلو غوارماني، رنزو مانزوني، جوزيّه كاپروتي، فينشنزو ماوريتزي.

ونرجو أن يكون في عملنا هذا ما يفيد ويمتّع.

والحمد لله على ما وفق وأعان.

د. أحمد إيش

(1) حصلت على كتابه *Beschreibung von Arabien* «وصف جزيرة العرب» وسنضمّه إلى السّلسلة.

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبية، يواجه القارئ العربي دوماً خلاً كبيراً لم يتمكن مجامعنا اللغوية من حسمه إلى اليوم. لكن بما أن هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقصر هنا على ذكر أربع نقاط:

1 - بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتباع طريقة اللغة التركية العثمانية القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسية، أمّا في الاسماء الإيطالية والإسبانية فأتركه: دي.

2 - الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاجين، سلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويمثله في الإنكليزية ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسبانية كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يمثله في الإيطالية حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويمثله في التركية حرف ç كقولك: çay, çok, çinar. لكن مع أنني أكتب بعض الاسماء: چستر، فرانچسكو، چيكو، بحرف (چ) فتمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّج، شلونج، پاچه. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوّط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرققة، التي يُعبّر عنها في التركية العثمانية والفارسية والأوردية بحرف: ژ، ويمثلها في الفرنسية والبرتغالية z والإنكليزية zh والروسية ж والبولونية ż.

3 - أمّا عقدة الترجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغوية، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السعودية: قوغل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: فوغل، وفي فلسطين: چوجل، إذ يعرّبون لوحات الطرق: چلعداد، چدعون، چدّول، رامات چان (علماً أن ڨم هي ذاتها جنة بالعربية أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهى ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟

هذا الحرف تصنّفه اللسانيات العربية باسم (الجيم اللهوية) تمييزاً له عن (الجيم الشجرية) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرغم من أن أصله في لهجات العربية القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق في الوقت الحاضر اتباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عزّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نسمّه بثلاث نقاط: (غ) تمييزاً له عن الغين العربية.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: جيم موسومة برمز مميز: ولتكن جيماً كنعانية أو بقلم المُسند العربي الجنوبي، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأردو. لكن متى ترانا نفعل؟! الواقع أن الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهوية، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما في اسم: Guillaume (غِيوم). وكذلك حلّ الطلبان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الأسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهوية. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطالية فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كيفو).

وأما الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانية القديمة تُكتب الجيم الشجرية كالعربية ج، وأمّا اللهوية فاستعاروها من الفارسية گ. وفي

التركيّة الحديثة بالأبجدية اللاتينية جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصصوا حرف g للجيم اللهوية، كقولهم: gerçek (غِرْجَك)، وحرف c للجيم الشجرية، كقولهم: geceler (غِجَلار)، Avcı (أوجى)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجرية أصلاً بل لهوية فحسب، كما في: Gewehr (غيفير)، وإن أرادوا رسم الاسماء الأجنبية لقوا في ذلك التباين، كقولهم في نقل عبارة «جبل» العربية: Dschebel حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسبان، فحرف G له أحكام واسعة يطول شرحها، فالأصل في القشتالية أن يُلفظ جيماً لهوية (غ)، وفي حالات معينة يلفظ خاءً، ومن الناحية الصوتية اللفظية ثمة مناطق تلفظه غيناً لهوية، وسمعتُ بأذني في غرناطة من يلفظ اسم Aragon هكذا: «أراغون»، وليس آراغون.

لكنّ التعبير في العربية عن حرف الجيم اللهوي بكتابه جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السعودية) يمكن حسم بطلانه بلحظة واحدة: احتكموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقل. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتعبير عن جميع الكلمات الأجنبية، فبالطبع حتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، البرتجال، بلجاریا، مجنطيس.. أم هل نسمّى البرغل مثلاً: بُرْجُل؟ (وهي كلمة معربة عن التركية bulgur).

4 - ثمة أسماء في اللغة الفرنسية تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أو Gervais، ونظراً لانعدام وجود الكسرة المُمالة في العربية (كما هي في السريانية والعبرية مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربية. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويز كولي (وهي أدبية ورخالة فرنسية)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربية في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كُتّاب العربيّة في العصر العبّاسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيبويه، خسرويه، خُمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا ما يتماشى مع أسلوب زمرة اللغات الكنعانيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وستتبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة هكذا: كوليه، رُنيه، غارنييه، جِرفيه. والأسماء الإسبانيّة هكذا: خوسيه، بيكيه. أمّا الأسماء الإنكليزيّة فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، James: جايمس.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسباني Condé كوندّه، أو Enrique إنريكيّه، والألماني Porsche پورشه، أو Pritzke پريتسكه، والهولندي Goeje خويّه، والبولوني Tyskie تيسكه، والإيطالي Simone سيمونه، أو Michele ميكيله.

* * *

RENZO MANZONI

EL YÈMEN

TRE ANNI NELL'ARABIA FELICE

ESCURSIONI

fatte dal Settembre 1877 al Marzo 1880.

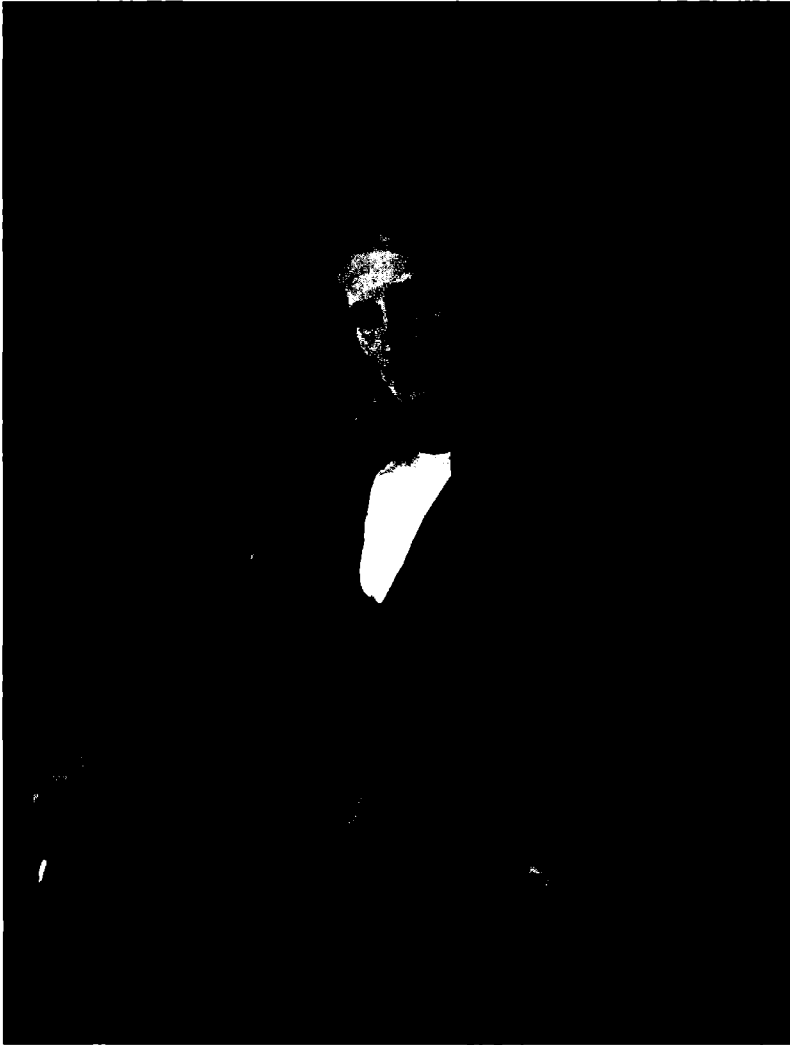


ROMA

TIPOGRAFIA EREDI BOTTÀ

1884.

نموذج عنوان الطبعة الأصلية للكتاب، روما 1884



الأديب الشهير أليساندرو مانزوني، جدّ المؤلف

مقدمة

رنزو مانزوني هو ابن بيترو، الابن الثالث للأديب الشهير أليساندرو مانزوني، والذي كان المساعد الأكبر والنّاصح الأوفى لأبيه الأديب الكبير. عندما توفيت تيريزا بورّي، الزّوجة الثّانية لمانزوني، انتقل بيترو مع عائلته إلى شارع موروني ليعيش مع أبيه. وهكذا ترعرع رنزو في منزل جدّه، أي منذ عام 1863.

ولد عام 1852. وكل ما نعرفه هو أن بيترو الذي عاش في ظلّ والده وشهرته الواسعة، أقدم بروح الاستقلال والتّحدّي على الزّواج من راقصة باليه في مسرح لا سكالّا (في ميلانو) هي جوفانينا فيسكونتي دون مشورة أهله ودون أيّ إشعار. وعاش مع زوجته وأبنائه حياةً هادئةً مطمئنةً إلى أن وافته المنيّة قبل وفاة أبيه بشهر واحد، في أبريل عام 1873.

كان رنزو في الحادية والعشرين من عمره عندما توفي والده. ولقد أبدى في سنّ مبكرة شخصيةً متميّزة نبذت التّقاليد التي أمّلتها تعاليم الجدّ وثقافة الأب الواسعة. كان يفكر بعالم بعيد، وجذّبه المغامرة لاكتشاف كل ما هو غريب وجديد.

تظهر الصّورة الفوتوغرافية وجهه النّحيل وملامحه الدّقيقة وعينيّه السّوداوين الغائرتين، ونظرته الحاذقة التّبيهة وشعره الأملس وأنفه المستقيم واضح الخطوط. وهو يشبه مانزوني الجدّ إلى حدّ بعيد.

وهكذا قرّر هذا الشاب اليافع الذي تعدّى بالكاد العشرين من عمره أن يتخذ مهنة

الرحالة المكتشف، ويبدأ بدراسة مفاهيم وأعراف أصقاع الأرض وشعوبها. وفي عام 1884 أصدر كتابه الضخم الذي يتحدث فيه عن اليَمَن (اليَمَن - ثلاث سنوات في العربية السعيدة). إنه حصيلة رحلاته، وفيه يجمع أحياناً ويتعمق أحياناً أخرى في المقالات والتقارير التي نشرها في صحيفة الـ "Esploratore" (المستكشف) في ميلانو وفي الـ "Bollettino della Società Geografica Italiana" (صحيفة الجمعية الجغرافية الإيطالية).

يخصّص الإهداء إلى أومبرتو الأول (ملك إيطاليا)، وهذا يدلّ على مدى فخره واعتزازه بأصوله ووطنه. ومع ذلك فهو ينتمي إلى جيل يختلف عن جيل جدّه، فتراه يكتب بطريقة جديدة يعالج بها الأمور، ويبدى وجهات نظر غير تقليدية تتعلق بالعلاقات الإنسانية ومواجهة السّفر، ويعبّر بحرية شخصية وبأخلاق علمانية نبيلة هي ربما وليدة النظرة البعيدة التي اتّسمت بها إيطاليا التي اتّحدت منذ فترة وجيزة مبتعدة نوعاً ما عن النظرة الكاثوليكية المتديّنة التي عاصرها أليساندرو مانزوني بشكل دراماتيكي. نحن الآن بعيدون جداً عن اليانسينية؛ المذهب اللاهوتي الذي تحول إليه الفكر المانزوني الذي ينكر حرية الإرادة⁽¹⁾. ويبدو بأننا انتقلنا من واقع كان شائعاً في ذلك الوقت أو في تلك السنوات. وهذا ما مهّد الطريق أمام الثقافة البراغماتية الإنكليزية التي تعتمد على الواقع العملي في بحثها للأمور أكثر من اعتمادها على الدين.

إن كتابته واضحة، جليّة ودقيقة، لا تخلو من الحيويّة في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى تبدو وكأنّها مجرد «تقارير» صدرت عن كاتب القرن التاسع عشر التقليدي الذي أوكلت إليه مهمة تفسير «كل شيء» والدّخول في تفاصيل لم تكن معروفة آنذاك. وفي بعض الأحيان كانت كتابته تحتجب تحت غطاء الحماسة والشّغف، ثم تعود لتتّضح وتبدو وكأنّها لوحة غير منظرائية، وإنما دقيقة ومعبرة.

نتلمّس من خلال «جولاته» كما يسميها هو، معرفته الواسعة والعملية. إلا أنّها تصبح في بعض الأحيان تعليمية واعظة بشكل ساذج، على الطّريقة التي من شأنها أن

(1) وهو موقف سلبي مفاده أن الطبيعة الإنسانية لا تقوى على فعل الخير.

تثير انتقاد فلوبير وتهكمه، وتتصف بمفهوم لا يتعدى كونه شخصياً. ولكنها بالرغم من ذلك، تزودنا بمعلومات شاملة ومفيدة.

إنه جغرافي، وعالم أعراق، وعالم نبات، ويتقن اللغة العربية، ويلاحظ كل ما يستحق أن يُلاحظ. يزودنا بلائحة عن النباتات والأعشاب، وعن القبائل والملل والأقليات، وكان معيناً خصباً لمن كان يريد التعرف إلى أراضٍ لم تُكتشف بعد في ذلك الزمان. وصف أساليب البناء، والانقسامات العرقية وتناقضاتها، والتسلسل البيروقراطي التركي العسكري. وبالإضافة إلى ذلك كله، زودنا بصور نقشية صاحبت اللائحة العقيمة المملة للأسماء والأقل عمقاً عن طريقة التعايش بين العرب والأتراك.

يعرض مانزوني، بدقة وأمانة الصديق الذي يمكن الوثوق به، اليَمَن كما هو «على حقيقته» أمام من يريد التعرف إلى هذه الأرض التي نُسجت حولها الخرافات والأساطير. يصف أرض الواقع بعيداً عن التّحامل والإجحاف والأخطاء التي أحيطت بها. ويؤكد على أقواله بالشهود والدلائل؛ أي بصوره ونقيشاته (ولو أن الأصلية ما تزال موجودة لكانت ذات أهمية كبيرة لعلم الأعراق Etnologia). وهي تصوّر رجال ونساء مختلف القبائل من العرب والقبيلي (كما يسمّيه) والبدو والأتراك، مدنيين وعسكريين، وأزياء المدينة والريف ومناظر طبيعية للجبال والساحل، وخرائط صنعاء (صنعاء مانزوني) وصور السور القديم الذي هُدم.

ولعلّ أسلوبه ولغته، مع ما فيهما من تهكم وحماسة وحبّ لكتابة التقارير، كفيلة بأن تبوّه مكاناً في صفوف الرّحّالين الأوروبيين إلى الشرق (حيث كان الإيطاليون بينهم قلة). لم يُذكر رنزو مانزوني إلا في العقود الأخيرة وفي دراسات متخصصة. فلقد أشار باولو كوستا، مثلاً، إلى صورة لمانزوني تبين سور صنعاء في سياق بحثه المتعلق بجوامع صنعاء الكبير (حوليات المؤسسة الشرقية في نابولي)، 1974.

Annali dell Istituto Orientale di Napoli, 1974.

لم يذكر التاريخ ولا سجل الأحداث ولا الأجيال اللاحقة أي شيء عنه بعد

موته، كما ولم تُنشر كتاباته. ويعود هذا الصّمت القاسي إلى الظلّ الكبير الذي فرضه أليساندرو الجّد. وهذا يدلّل مرة أخرى ويؤكد على فقدان ذاكرتنا الأدبية التي أذنت بحق رنزو.

لقد شغل تصميمه على السّفر حيزاً كبيراً في سنواته بين العشرين والخامسة والعشرين من عمره. نما شغفه هذا في مكتبة والده، ومن خلال صداقته أيضاً لجوليو آدامولي، وهو مهندس رحالة ذو خبرة في السّفر. وفي مهمّة رسمية لآدامولي في المغرب، سنحت الفرصة لرنزو الشاب بأن يحقّق حلمه الذي كان يراود خياله. استغرقت إقامته في المغرب عاماً، كان من المفترض فيه أن يتابع رنزو سفره بعد ذلك مع الكابتن مارتيني إلى أفريقيا الاستوائية منطلقاً من عدّن. إلا أن الرحلة ألغيت لأسباب عديدة. وكبدل، ظهرت فكرة اليّمن كمشروع شخصي يقوم به.

في ذلك الوقت كان المسافر بحاجة إلى تغطية رسمية حكومية أو إدارية. لأن السّفر محاط بأخطار وصعوبات كثيرة، خاصّة إذا سلك طرقاً كانت تُحظر على من لا يدين بدين الإسلام. وفي المغرب، كما في سوريا وفي الشّرق الأدنى كانت الظروف تضع المسافر غير الحذر أمام مواقف خطيرة، كالّتعرّض للأوبئة والأمراض ومهاجمة السّكان والسّلطات، الخ. وخاصّة إذا لم يكن لديه رسائل توصية أو أوراق ثبوتية ولا يعرف اللغة. إنّ أيّ التباس كان من شأنه أن يتسبّب في عواقب وخيمة واختفاء صاحبه وموته المأساوي.

يبدو أنّ مانزوني، من أجل أن يصبح رئيس قافلة، قد تعلّم فن السّفر والدبلوماسية في التّعامل مع العرب والأتراك والقبيلي والأثرياء والفقراء. ولقد ذكر لنا بعض الأحداث وما واجهه في بعض المرات من مواقف تتطلّب حسن التصرّف والدراية والحزم في أخذ القرار. لقد كان اليّمن بالنسبة إليه اكتشافاً استغرق ثلاث سنوات.

و شاء القدر أن تكون تلك الرحلة إلى اليّمن هي الوحيدة. ولا نعرف لماذا لم يترك إيطاليا بعدها، أهو بسبب المرض أو نقص في المال أو التّمويل أو لأسباب أخرى. كان الشّخص الوحيد الذي زودنا بأخبار صحيحة عن اليّمن (التي لم تتغيّر في مجملها)،

وفسر لنا أموراً عن عالم مغلق بالنسبة لمعتقداتنا، لذلك لم نكن نفهمه.

عندما عبر الجبال والصحارى والأراضي الزراعية في اليَمَن، وشاهد مدينة صنعاء المكتنفة بالأسرار، كان عصر الرحالة الكبار قد آل إلى الأفول. ولنبداً الآن بإلقاء نظرة على مسرح الأسفار إلى العالم الكلاسيكي الذي تمثله روما وأثينا مفتحين الستارة مع غوته وشاتوبريان. في الحقيقة، تنازل غوته Goethe عن حبّه الكبير للكلاسيكية إلى فينكلمان Winckelmann الذي شُغف بها، وكانت تجربته معها، ككل تجارب العظماء، متعدّدة الوجوه وصعبة التصنيف بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أي بين تاريخ سفره الحقيقي مرتين إلى إيطاليا وتغيير دقّة وجهته الأدبية.

على مسرح آخر كان هناك مسافرون أوروبيون، أغلبهم فرنسيون وإنكليز، إلى: المغرب وآسيا الصغرى وسوريا وجزيرة العرب ومصر وفلسطين. إن حملات نابوليون قد جعلت من الشرق مصدر وحي وأحلام محرّمة، وفي الوقت نفسه، حتى في إنكلترا الفيكتورية وتحت لواء «المعرفة»، كانت تلك الأحلام تُمزج بما يتناسب مع المصالح الثقافية؛ الرّغبة في المغامرة والأدب الإباحي والخروج على المألوف لإمتاع القارئ والطبقات الاجتماعية والموضة والسياسة والجنس. كانت رغبات البلاد الأصلية تنضوي تحت الشّعارات المضلّلة. وكان الرّحّالون المكتشفون يدرسون العربي لعدة سنين، يتوقفون فيها في البلاد ويلبسون الزي المحليّ ويقلّدون النّاس (والإنكليز بارعون في هذا) ويغيّرون مظهرهم لكشف أسرار النّاس من خلال احتكاكهم بهم.

وفي الواقع فلقد كُشفت أسرار تتعلق بالهندسة المعمارية المردومة والآثار الأركيولوجية المدفونة والثقافات المجهولة، أو التي عرف الشّيء البسيط عنها، عن طريق خبراء مزعومين. وكانت الحملات تخبئ أهدافاً أخرى. إذ كان الشرق دائماً القدر الذي تصبّ فيه المصالح الأوروبية وخاصة الإنكليزية والفرنسية ولأكثر من قرن من الزّمان. ومنذ حرب القرم Crimea نعلم بأن الإيطاليين أيضاً شاركوا في وضع أعينهم على أفريقيا والشرق على شكل مراقبين، وتمخّضت المصالح عن استعمار ليبيا.

يختلف رجال القرن التاسع عشر فيما بينهم، فالإنكليز يجمعون بين حبهم لكل ما هو غير مألوف وبين تعصبهم لما هو تقليدي، ويجعلوننا نؤمن بمدى أهمية اكتشافاتهم العلمية غير المنحازة. هم الأكثر تصميمًا وحبًا في الغوص إلى عالم «مختلف» عن ثقافتهم وعاداتهم. وهدفهم في أكثر الأحيان هو إغناء المتاحف البريطانية، لكنهم مع ذلك يظهرون للعالم مدى تقديسهم لـ «مهمّتهم» (Missione) التي تتعلق بالمعرفة وولعهم بالرحلات والكتب والوثائق المليئة بالمعلومات التي تدلّ على فضول عميق ومعرفة بالأماكن والأشخاص.

بدأت تلك الخصائص تظهر في بدايات القرن، وأخذت تتضح شيئاً فشيئاً مع تقدّم القرن التاسع عشر ومع الحقبة الفيكتورية. وحتى المعارف الخارجة عن المألوف بدأت تتكاثر. كيف لنا أن ننسى معرض صور ماري آن نورث Marianne North Picture Gallery في كيو غاردن Kew Garden في لندن الذي احتوى على 832 لوحة من الحجم الصغير رسمتها ماريان بنفسها خلال رحلاتها إلى أنحاء العالم بمفردها. وأظهرت ورود القارات المختلفة ومناخها ومرتفعاتها، أو الفراشات الـ 22,000 التي جمعتها مارغريت فونتين التي توفيت عام 1940 في الهند الغربية، وكانت مسنة تنتمي إلى العقلية القديمة الشهيرة بالتصميم والتعصب التبشيري الذي ميّز القرن السابق الذي جمعت فيه حصيلة مغامراتها في حب الجمع والتصنيف.

قليلون هم من يعرفون بأن فلورنس نايتنجيل قبل حرب القرم التي كرستها بطلاً وطنية وعالمية، قد قامت برحلة إلى مصر عابرة النيل في السنوات 1849-1850 تاركة انطباعات هامة في رسائلها إلى العائلة⁽¹⁾، وكان ذلك عصر المذكرات والرسائل، ولا يرتوي المتعطش إلى المعرفة والتصنيف إلا بالتمحيص والإسهاب في التعبير! ومع ذلك، فلولا تلك الروح الإيجابية المحبّة للتجارب، البعيدة في الوقت نفسه عن العقلية العلمية الحديثة، لما تمكّننا من الوصول إلى ما نحن عليه الآن من التجديد والتجارب

(1) هذا الكتاب لم ينشر بالعربية إلى اليوم حسب علمي، وربما نقوم بتقييمه لغرض إضافته إلى سلسلتنا هذه.

عالية المستوى. وكانت «الطريقة» الدّقيقة والمتقنة لتصنيف الأشياء والوثائق هي التي فتحت أمامنا آفاقاً جديدة في المعرفة.

من أهداف الرّحلات أيضاً سدّ ثغرات جهلنا للعالم. فالقرن التاسع عشر هو قرن الاكتشافات الأثرية (الأركيولوجية)، وكان الباحثون الفرنسيون والإنكليز وموظفو الإمبراطورية الإنكليزية في كثير من الأحيان، وتحت سحر نبلمهم ولطفهم، يتوصلون إلى اكتشاف كنوز كانت تعتبر من وحي الخيال. والمفاجأة الكبرى والشّهرة حصل عليها بلا منازع يوهان. ل. بوركهاردت عندما وصل إلى الوادي، الذي يحرسه البدو ويُحرّم على أي شخص غريب وخاصة أوروبي وكافر، متكرراً بلباس عربي ومعرضاً حياته للخطر، إنه وادي پترا⁽¹⁾ المحاط بالأسرار. كان ذلك عام 1812 ولم يعرف العالم هذا المكان إلا عبر كتابه الذي نُشر عام 1822⁽²⁾. ومع پترا ظهرت إلى النّور أكبر معجزة في الهندسة المعمارية لكل زمان ومكان، بما فيها حضارة التّبتيين وشعبها الذي محاه التّاريخ. لقد مات بوركهاردت في حلب⁽³⁾ قبل أن تناله الشّهرة، شاباً كالكثير من رحالة عصره آنذاك، ضحية الأمراض التي كانت تعترضه في تجواله. ولسنا متأكدين ومع الكثير من التّحفّظ، ربما كان ذلك أحد أسباب موت رنزو مانزونى المبكر.

أما الرّحالة الفرنسيون، فربما بسبب فكرة وجودة، أدبيّة أو جمالية تتعلق بالسّفر اختاروا، وخاصة الأدباء منهم، الشّرق. كان عددهم كبيراً إلى درجة تبدو محطّتهم في الشّرق وكأنها إلزامية لتزويدهم بما يحتاجون إليه من الوحي والمخيّلة الشعريّة: من لامارتين إلى فلوبير، ومن غوتيه إلى پير لوتي، الذي أصبح دون علمه رمز الإباحية

(1) هذا حول حضارة البتراء (سلع) النبطيّة، نشرنا في سلسلتنا هذه مؤخراً كتاباً قيماً للأثرية البريطانية مارغريت أليس مري بعنوان: «البتراء، مدينة أدوم الصّخرية».

(2) حصلْتُ مؤخراً على طبعات قديمة نادرة من كتابي بوركهاردت المهمّين:

Burckhardt, John Lewis, *Travels in Arabia*, London, 1829.

Burckhardt, John Lewis, *Notes on the Bedouins and Wahabys*, London, 1830.

وسوف أقوم بإعدادهما للنشر في هذه السّلسلة.

(3) هذا غير صحيح، فقد توفي بوركهاردت بالقاهرة عام 1817.

التي مهّدت إلى السّياحة الجماعية في القرن العشرين إلى الشّرق المدهش. كما ساعد على ذلك أيضاً الرّسامون المستشرقون.

قبل رحلة رنزو مانزوني بأعوام قليلة، قام جوزيف هليفي برحلة عبر مخاطر كادت تودي بحياته كتبها دليله في مذكراته - وهو يهودي من صنعاء، اسمه حاييم حبشوش⁽¹⁾ - وترجمته إلى الإيطالية غابرييلا موسكاتي ستايندلر "Istituto Orientale di Napoli" (المؤسسة الشّرقية في نابولي، 1976). وفي الكتاب وصف وفك رموز 700 نصّ إبيغرافي أو نقوش سبئية. الأولى وعددها 50، فسّرها في مأرب فرنسي آخر هو جوزيف آرنو. إلا أن عدد النصوص الإبيغرافية التي فسّرها هليفي هائل وتعتبر الوثيقة العلمية الأساس الذي ارتكزت عليه الاكتشافات اللاحقة.

كنا نتحدّث عن عام 1870، وفي العقد التّالي وحده وصل باحثون آخرون إلى اليَمَن، ربما متأثرين باكتشافات هليفي، وكان أشهرهم التمسائي إدوارد غلازر E. Glaser. لن أقوم بعرض لائحة الرّحالة⁽²⁾ الباحثين عن الكنوز المبعثرة أو المهملة في الشّرق وفي اليَمَن أيضاً الذي كانت تحيط به الأسرار الدّينية والسّحر وما هو محظور على الكفّار أو يحرسه الجان.

أما الإيطاليون، ليس في اليَمَن فقط وإنما في الشّرق، فباستثناء أركونات فيسكونتي الذي كان عضواً في الجمعية الجغرافية البريطانية ولذلك هو بعيد عن لائحتنا، بين 1870 و1880 أي في فترة وجود رنزو مانزوني، لم يُذكر أحد منهم وغاب الجميع ربما في خضمّ العلاقات الرّسمية الإدارية. ولم يصل إلينا إلا المقالات الصّحفية لإدموندو دي أميتشيس التي كانت تنقل الأخبار الشّائقة أو الغريبة وصوراً عن أشخاص عاديين وتجار وحوارات، وصفحات عن حريق القسطنطينية، مثلاً، أو صورة للسلطان عبد

(1) حصلت مؤخراً على كتاب رحلاته النادر «مَسَعُوت حَبشُوش»، المعنون أيضاً: «حِزْيُون تيمان» (مشاهدة اليَمَن) طبعة القدس 1941، وسأقوم بترجمته عن العبريّة للسلسلة.

(2) قد نستخدم عبارة (الرّحالة) على اعتبارها جمعاً للرّحال، أو عبارة (الرّخالين) على اعتبارها جمعاً لصيغة المبالغة المفردة للمذكر: رَحّالة.

لقد جاب الکتاب والمتخصّصون والمغامرون والجواسیس الشرق طولاً وعرضاً. وهو ليس شرق مانزوني، الأرض التي وصلها باحثون مثل هلیفی أو غلازّر، الشرق المغلق الذي خرجت منه ملكة سبأ في رحلتها الطويلة إلى الملك سلیمان، الأرض الرائعة التي اختارها الله جنة على الأرض وموطن الإنسان الأول، موطن الشعوب الأولى التي انطلقت تسكن الأرض في جزيرة العرب، ومن الجزيرة إلى سوريا وسواحل البحر الأبيض المتوسط.

إن القبائل وسلالاتها التي لم تنقطع، والأساطير التي كانت تروی حول البدو وتاريخهم غیر المكتوب وإخلاصهم للصحراء، كلّها ولدت في الیمن من انهيار سد مأرب الذي حوّل الشعب السعيد إلى مجموعة مزارعين ورعاة جائعين خرجوا وراء حدودهم باحثين عن المراعي وتحولوا إلى بدو لم یدون تاريخهم. لقد وصلوا الصحراء التي سكنوها وعاشوا فيها حتى تخوم البحر الأبيض المتوسط، الذي كانت القوافل تقصده كمحطة من طریق الحریر مارة بتدمر وبترا وطرق البخور والذهب التي كانت تمرّ في الیمن من مرفأ عدن.

لقد سدّ مانزوني فراغاً في ثقافة وأدب الرحلات وخاصة للشرق الأدنى. لتقاريره قيمة تاريخية، وحيث لا یدکر في إيطاليا، يذكره الدليل السياحي في صنعاء مبيتاً الخارطة التي رسمها. والطريف في الأمر أن رنزو مذكور ومعروف في الیمن⁽¹⁾، أما أليساندرو الجّد، فلا يعرف الیمنیون عنه شيئاً.

لقد اقتسمت الإمبراطوريتان التركية والإنكليزية هذا الجزء من العالم الإسلامي. وضمت الإمبراطورية التركية الشرق الأدنى إلى إمبراطورية (الهابسبورغ)، وحتى اليوم ما زلنا نرى العملة الفضية ريات ماريا تيريزا التي بقيت متداولة في الیمن حتى عام 1962 إلى أن قضت الجمهورية في شمال الیمن على الإمامة. ولا نعرف كيف

(1) وكما سيذكر في ختام كتابه، كان الناس في اليمن يسمونه: مانجوني.

حافظت اليمَن على زِيَّها وعاداتها لم يمَسَّها الزَّمان حتى اليوم، وعلى دينها. وبقيت أوروبا القريبة بعيدة ومُبعدة.



ولفهم رحلة رِنزو، ينبغي لنا ذكر بعض التَّواريخ المتعلقة بتلك الفترة.

غادر عَدَن التي سيطر عليها الإنكليز عام 1839. فعندما لم يتحمَّل الأتراك تدخُّل الإنكليز في اليمَن، قاموا بغزوها مرة ثانية عام 1848. (وكانت الأولى في القرن السادس عشر). وبعد معارك واصطدامات مع السَّلفيين (الوهابيين) وأئمة الزَّيدية، سيطروا على جميع الأراضي عام 1872. أما وضع البلاد في الفترة التي كان فيها مانزوني، أي 1877-1880، فكانت أفضلها لأوروبي في نهاية القرن. وأما ظروف هَلِيفي، فكانت صعبة جداً. وهذا ما يؤكده دليله حبشوش حوالي عام 1870. فلقد كثر في تلك الحقبة عصيان الوهابيين وقرصنة البدو وحملات الزَّيدين، الخ. ولم يكن الأمن قد استتبَّ بشكل نهائي في أيدي الأتراك.

يقوم مانزوني من خلال «نزهاته» بدور مدوِّن أحداث، ويتجنَّب الحكم على الوضع المعقَّد في الشَّرق، مرَّكِّزاً انتباهه على الأشخاص والحقائق التي يصادفها. وتخلو نظرتُه من البُعد الإيديولوجي، فتراه يتعرَّف على جميع الفئات من النَّاس بموضوعية وعدم تحيُّز: اللصوص والمثقفين والنِّبلاء والمحتالين والجشعين والأتقياء الذين يتبعون تعاليم القرآن وأغنياء الأتراك الذين يحبون مُتَع الحياة ويشربون الخمر. إن حذرَه السِّياسي أمام العرب والأتراك على السَّواء، يسدُّ الطَّرِيق أمام من يريد أن يأخذ لمحة «تاريخية» عمَّا يجري على السَّاحة اليمَنية. أما موقفه من البدو فمتحامل، ولكن حتى إذا كانوا قاطعي طرق قوافل أو قتلة وغزاة، يبدو أنَّ اليهود أقلَّ مستوى بشريّاً منهم. ويظهر بأنَّ يهود اليمَن أفضل حالاً من يهود المغرب. إنَّ تاريخهم يكرَّر نفسه، فلقد اضطهدوا على مرَّ الزَّمان.

إن وضعه في عَدَن أمام الإنكليز، كإيطالي يترأس قافلة ويملك رأسماً لا يكفل له حياة

محترمة كما صوّرها لنا، يتطلب خبرة وجراءة وتصميماً ودبلوماسية حذرة. إن الوضع في إيطاليا (وظروف النظرة الثورية الوطنية) لم يكن ليشجع على سفر أي إيطالي إلى الإمبراطورية التركية. وهنا تأتي نظرة مانزوني في حرية التفكير. إلا أن تناقضاته تظهر في كونه رجلاً نبيلاً يطيع السلطات من جهة ويحرص على عدم خرق القوانين، وينظر من جهة أخرى إلى الفساد وغياب العدالة والفقرون حساسية. إن سفر هليفي الذي دونه حبشوش يفتح ستاراً مغيراً: حياة أقرب إلى الرّعاع، جرائم وسرقات كبيرة.

ومع ذلك فإن هدف مانزوني كان تسجيل ما يجري فقط، وذكر طبقات المجتمع وفئات الناس. كان يتجنب التدخل الشخصي، فهو لا ينتمي إلى الرّحّالين الذين لهم أبعاد سياسية من رحلتهم. هو ليس في مصاف لامارتين أو فلوبيير أو شاتوبريان، وهو ليس بصحفي. إن عقليته ذات طابع فيكتوري (مع كل ما تتضمنه من حرية جريئة)، علمية محبة للمغامرات وتبتعد عن الانخراط فيما يجري على السّاحة. ربما كان يخفي الاطمئنان الداخلي لأنه يعرف بأنه ينتمي إلى عالم آخر هو الحضارة الأوروبية. وهو يجمع الخصائص الثلاث التي تميّز المسافر الفيكتوري ألا وهي: تسجيل الوقائع كما هي، وتصنيف مختلف الفئات العرقية الإنسانية، وكذلك النباتية والحيوانية.

نتناول في هذا الكتاب الرّحلة الأولى، من أصل ثلاث رحلات في كتاب مانزوني⁽¹⁾، وتنتقل من عدّ ن لتعبر حردبة فبلدة الجليّة وقعطة ثم وادي بّنا حتى السّدة مارة بجبال اليمّين وأوديته إلى دّمار وأخيراً صنعاء. تدوم الرّحلة ثمانية شهور تقريباً، من سبتمبر 1877 حتى يونيو 1878. وهي الأوفر معلومات لقراء اليوم. تتضمن الرّحلة الثانية من عدّ ن السّاحل الغربي للبحر الأحمر المحاذي للمخا، الحديدة ومناخة وتنتهي بصنعاء مرة أخرى. وهي أطولها، من أبريل 1878 إلى يناير 1879. أمّا الثالثة والأخيرة، فلا تتعدّى ثلاثة شهور وتتضمن منطقة عدّ ن والرّجوع إلى صنعاء. لقد دامت رحلة مانزوني ثلاث سنوات وانتهت بإقصاء مصطفى عاصم باشا وعزله.

(1) مع ذلك، سوف نعود لنشر كتابه الكامل *Tre Anni Nell'Arabia Felice* (ثلاث سنوات في العربيّة السعيدة) في فترة لاحقة كما أسلفنا.

لقد كرس رحالتنا لصنعاء في الرحلة الأولى ثمانية فصول، وصف فيها هندستها المعمارية وسورها وسكانها وطريقة عيشهم. كان علينا الانتظار حتى هذا اليوم لنحظى بمخطط عن نموذج للبيت الصنعاني وطريقة استعمال كل غرفة، وبالتالي طريقة عيش العائلة العربية في المدينة. والملاحظات حول مجاري مياه التصريف الخارجية ما تزال في الأحياء القديمة من صنعاء وفي المناطق التي بقيت محافظة على طابعها لم يُمسّ في جهة الجبال، وهي ليست ملاحظات فولكلورية وإنما معلومات قيّمة.

وأيضاً، استخدام الآجر المخلوط بالطين والقش وروث البهائم المشوي تحت الشمس في بناء منازل المدينة أو الأحياء القديمة أو الريف، وهي ما تزال تُستخدم. ويتكلم عن السوق كما يتكلم عن السمسرة Samsare وهو مكان مكوث القوافل في الجبال. ويصف العائلات التي التقى بها ونفسيات الرجال والنساء، والمخاطر التي واجهها والمال الذي سُرق والمتعة التي شعر بها والاختلافات بين القبيلي والعرب والأتراك والبدو واليهود الذين تعامل معهم.

هنا تكمن أهمية كتاب مانزوني، في الشرح الدقيق الحقيقي؛ قراءة ضرورية لمن يريد أن يفهم الحياة الاجتماعية في اليمن وثقافتها وتنوع طبقاتها.

عندما تصل اليمن، لن تراها تغيّرت كثيراً عن زمن مانزوني إلا في بعض الأماكن التي غزتها الصناعة الحديثة والتجارة الغربية.

يقال بأنه في زمن ما، كان باستطاعة ستة صفوف من الخيل أن تركض على سور اليمن. ويصفها مانزوني على أنها أميال وأميال لم تُخدش. أما پازوليني Pasolini، ففي فيلم وثائقي عن اليمن عام 1970 يظهره وقد تهدّم⁽¹⁾، وهو اليوم عبارة عن كومة من التراب. إن أهمية الرحالة الذي سافر منذ قرن تكمن في كونه الجسر الذي يربط ماضي الشرق مع مستقبله الذي ضاعت فيه هويته بسبب الغزو الغربي.

(1) پازوليني مخرج وممثل اشتهر في السبعينيات في إيطاليا، وكان قد عرض فيلماً وثائقياً عن اليمن من جملة أعماله الكثيرة.

إن صنعاء مانزوني غنية بحدائق التّخيل والزّهور العطرة والنّساء اللواتي وصف خضوعهنّ لقوانين الزّواج، ومكان الحريم الذي اتضح بأنّه يغيّر الفكرة الخاطئة التي وصلتنا والأكاذيب التي لُفقت حولها من كل نوع.

هنالك عادات وطقوس تعطينّ نوعاً من الحرّية تختلف عن الحرية التي نفهمها نحن ونعرفها. وهناك نوع من التّعاضد والتّكاتف بين النّساء قوي جداً وينم عن صداقة وأريحية. وعالم النّساء مغلق على الرّجال إلا فيما يتعلق بصلة القرابة، ومُتضامن فيما يتعلق ببعض الحقوق، لذلك فالخمار الذي هو رمز الخضوع يتحوّل إلى مناعة وحصانة من تسلّط الرّجل.

إن وصف الحياة العائلية والاختلافات بين المدينة والرّيف والعلاقات بين النّساء والرّجال والآباء والأبناء هي من الفصول التي شرحها الكاتب بدقة. وهناك وصف للبدو وعدم تقيّدهم بالتّعاليم الدّينية فيما يتعلق باللباس وبمعاملة النّساء. وعندما تنتقل قافلة مانزوني إلى الجبال، يلتقي بالفارّين من الحكم التّركي، المخلصين للإمام المعزول. ويعطينا فكرة عن السّلطنات المتنازعة فيما بينها. وعن الفرق بين العربي والقبيلي والبدوي: فالعربي يسكن المدينة والجبال. والقبيلي هو الفلاح، وكلاهما يعيش في بيوت من الحجر والأجرّ المشوي. وأما البدوي، فيعيش تحت الخيام أو أكواخ الرّوث والطّين وينحدر من أصول حبشية، وهم الذين سيطروا قديماً على اليَمَن. ولونه أسود كلونهم. وحتى البدو يخضعون إلى نظام معيّن تمليه عليهم قبيلتهم. إلا أن الكتاب لا يحوي قصص العشائر وملاحمهم التي شاعت في الشّرق وتنقلت من مكان لمكان وألهمت مشاعر توماس إدوارد لورنس.



الفصل الأول

الفصل الأول

التحضيرات - المغادرة - قوات عَدَن - المغرات - قرية الشيخ عثمان - منزل وحديقة حسن علي بك - في الصحراء ليلاً.

لم يزر اليَمَن إلا القليل من الرّحّالين، ولم يكتشفوا منه إلا جزءاً بسيطاً. وحسب ما روهه، فقد تعرضوا لمشقات كثيرة وصعوبات جمة: لم يستطع أيّ شخص غادر عَدَن الوصول إلى صنعاء، عاصمتها. ومؤخراً، عام 1869 أُجبر الفرنسي جوزيف هليشي، الذي سلك الطّريق الحديثة، على التّراجع نحو عَدَن دون أن يتمكّن من إتمام حتى ثلث المسافة (ثلاثين بالمئة من المسافة). وهذا هو ما سأقوم به.

لا أعتبر رغبتني في زيارة تلك الأماكن غير المكتشفة نوعاً من التّرفّع والتّباهي، فخلال إقامتي في عَدَن استضافني قنصلنا المبحّل الفارس جوزييه بيننفلد رولف Cavalier Giuseppe Bienenfeld-Rolpf وتعلّمتُ اللغة العربية على يد الحاج حسين الرّحبي وهو عربي من صنعاء، إلا أنه يقيم منذ فترة طويلة في عَدَن. كما أُجريت اتصالات عديدة مع رؤساء السّلطات الدّاخلية حتى شعرتُ بأنّ سفري مضمون النتائج.

في الأول من سبتمبر 1877، عندما وجدت أن متاعي يفوق عشرين صندوقاً من الحجم الكبير، ومع عدم رغبتني في نقله بنفسني، ارتأيتُ أن أرسل الحمولة مغطاة بقماش يستخدم في صناعة الأكياس مع عربي موثوق إلى الجلييلة، وهي قرية تقع على تخوم حامية عثمانية وسط اليَمَن.

عقدنا العزم على الرحيل أنا وأخو الحاج حسين الرّحبي أخيراً. وبما أن شهر رمضان كان قد بدأ، أي الصّيام عند المسلمين، فقد عبّر هذا الأخير عن رغبته في المكوث في عدّن. وخوفاً من برد الجبال، ذلك أن الشّتاء قد بدأ يقترب، قرّرتُ الذهاب مع رجال معروفين ومع خادم اسمه مُقَبَّل⁽¹⁾.

ومُقَبَّل هذا (ويعني اسمه المُرحَّب به) لم يدعنا نصوّره على الإطلاق. كان يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً وهو من الحجريّة (أي السّدّ الحجري) التابعة لمقاطعة تعز. أما والده صالح حيدرة، فكان سلطاناً صغيراً أو شيخاً. وعند مجابهته للأتراك (في فترة الغزو العثماني لليمن 1870) هُزم وتعرّض منزله للدّمار، وعاش في بؤس مع ثمانية أولاد ذكور وابتنتين. ولكي يتغلّب على مشقات الحياة، حاول تأمين مهن لأولاده. فأصبح أحدهم جَمَّالاً والآخر بائعاً والثالث مزارعاً. أما مُقَبَّل، فذهب إلى عدّن وحاز على عمل في منزل القنصل. كان يحبّ اكتشاف العالم والتعلّم، فركب متن مركب المراسلات البحرية وتمكن من مشاهدة مرسيليا ومضيق جبل طارق وقادش وبرشلونة وشرقي الهند ومرافئ الصّين. وكان على جانب من الذّكاء، فتعلّم الفرنسية بشكل لا بأس به وكان رفيقاً ممتازاً.

يتبع كثير من العرب نهج مُقَبَّل، لذلك فليس من الصّعب أن تلتقي بمن يعرف الفرنسية منهم ولو بشكل بسيط.

في العشرين من سبتمبر، في السّاعة الثالثة بعد الظهر، غادرتُ عدّن على متن بغل صومالي حصلت عليه لقاء خمسين ريالاً فضياً Talleri (حوالي مئتي وخمسين ليرة) من قرية الشّيوخ عثمان. وكانت قافلتني عبارة عن ثلاثة جمال تحمل رجالي. وأراد اصطحابي الأصدقاء غوستافو سارافاتي Gustavo Sarfatti من البندقية (فينيسيا) وريكاردو⁽²⁾ هاورث Riccardo Howorth من ليقرپول. عند خروجنا من عدّن وعند

(1) هكذا الاسم بالفصحى، ولكنه في اللهجة الدّارجة باليمن يلفظ بميم مخففة بين السكون والكسر. وعلى ذلك ساستمر بإثباته في الكتاب دون تشكيل الميم.

(2) يقوم الطليان دوماً بقبولة الأسماء الإنكليزية والفرنسيّة إلى لغتهم، فلا يقولون لويس ولا لوي

جبل حديد، وجدتُ طريقاً يصلح للقوافل وعلى جانبه قناة الماء الحجرية التي تقوم بنقل الماء، العكرة، إلى عَدَن من آبار الشيخ عثمان. ويتفرّع الطريق فيما بعد، فيتجه واحد نحو قوات عَدَن أو ثكنات الخيّالة الإنكليزية، ويمرّ الآخر بالمغرات El-Migrat (الأراضي الحمراء) وهي قرية صغيرة تنتهي حدودها عند قرية الشيخ عثمان التي تبعد سبعة أميال عن عَدَن وتقع على بندر التّواهي (مرفأ عَدَن) في قلب نقطة إنزال وتفريغ الحمولة أو ما يعرف باسم «ستيمر پوينت» Steamer Point.

لقد قام الإنكليز بإنشاء الطريق، وطوله أربعة أمّاتار، على تربة حمراء نديّة وذلك بسبب المدّ العالي الذي يغمرها وتسرب المياه الجوفية إلى البحر. وتنمو في تلك الرّمال شجيرات عديدة غنية بمادة البوتاس التي يسميها العرب القلي⁽¹⁾.

يجمع العرب أوراق تلك الثّبتات ويتركونها لتجف، ثم يحرقونها داخل فجوات يحفرونها في الأرض. ثم يضيفون الماء إلى الرّماد المستخلص حتى يتحوّل المزيج إلى عجينة تصبح عندما تجفّ على درجة من الصّلابة تحسبها حجراً. إلا أنها سرعان ما تُحلّ بالماء فيضيفونها إلى غسيلهم. ومن البوتاس يُصنع الصّابون.

وصلنا في الساعة السادسة والرّبع إلى قرية الشيخ عثمان وفيها منزل حسن علي بك، المعتمد الرّسمي لتركية ومصر، المقيم في عَدَن. وهو عربي ثري من الخليج العربي، ومسلم شيعي، ويظهر حفاوته وصداقته للأوروبيين. وأما منزله في قرية الشيخ عثمان فمفتوح دائماً للضيوف.

منزله جميل مربع الشّكل، وغرفة واسعة ومريحة. وهناك (سطيحة) على الطّابق

= بل لويديجي، ولا يقولون مايكل ولا ميشيل بل ميكيله، ولسانهم يعجز عن الوقوف على حرف ساكن (كالمصريين تماماً)، فجورج يصبح جورج، وأنتوني أنطونيو، وهلمّ جراً. وهنا يقولب مانزوني الاسم الإنكليزي ريتشارد إلى ريكاردو.

(1) كتب المؤلف: لن أقوم خلال روايتي بالتكلم كثيراً عن التاريخ الطبيعي، بل سأقوم بنشر دراسات خاصة فيما بعد حول الأبحاث الخاصة التي قمت بها خلال سفري وكذلك مجموعاتي التي أحضرتها إلى متاحف جنوة وميلانو.

الأرضي وشرفة تحيط بالطابق العلوي من جميع جهاته وتتوسطها حديقة جميلة.

حديقة! بعد أربعة أشهر أمضيتها في عدن لم أر خلالها عشباً واحدة، وجدت نفسي فجأة وبطريقة سحرية وسط حديقة خلابة مليئة بالأشجار، منها التّخيل الرائع والأكاسيا والميموزا والتّمر هندي الأنيق والسّنا أو القرفة الصّينية ملتفة الأوراق، وشجر الطّرفاء مع عدد كبير من الورد والخضار. وهناك بئران فيهما نواعير ومضخّات لجرّ المياه وريّ المزروعات. كما أن هناك ثلاثة أحواض للماء. لقد جلب هذا المشهد الحبور والراحة لرفاقي. أما أنا، فلقد شطّحتُ بأفكاري وأنا أشم عطر الزّهور وبلسمها الشّافي.

في السّاعة الرّابعة تقريباً، غادر الأصدقاء وتركوني وحدي أنتظر وصول قافلتني الصّغيرة.

يعود اسم قرية الشّيخ عثمان إلى قبر رئيسها، الحاج عثمان الذي يقبع جثمانه في مسجد صغير مربع الشّكل دون قبة، بالقرب من منازل نصف مهذّمة. وفي السّنوات القليلة الماضية، إضافة إلى كوخ القهوجي (أو بائع القهوة العربيّة) الذي كان ينفرد في هذا المكان، بدأت منازل أخرى في الظهور إلى أن تكوّنت قرية صغيرة من مئتي نسمة تقريباً. وجميع المنازل مبنية بالأجر المشوي تحت أشعة الشّمس، باستثناء منزل حسن علي بك والمشفى المخصّص للحيوانات اللذين بُنِيا من الحجر الذي تم إحضاره من عدن. وفي عدن العديد من البانيان أو الهنود الوثنيين الذين يؤمنون بالتّقمّص وانتقال روح البشر عندما يموتون إلى الحيوانات. لذلك، فهم يجعلونها كثيراً وعندما تمرض يرسلونها إلى مشفى الشّيخ عثمان.



انطلقنا في السّاعة العاشرة ولم نأخذ الطّريق المباشرة إلى لحج، لأنهم حدّثونا عن قطّاع طرق من البدو انتشروا في المكان. لذلك انضممنا إلى قافلة كانت في طريقها إلى بير أحمد غرباً. كان الطّريق أطول لكنه أكثر أماناً.

كان القمر يتلأأ في السّماء، وكان باستطاعتي تمييز كل شيء حولي. الصّحراء!

وظهر هنا وهناك بعض شجر الهاموك أي الميموزا والفوم أو لحية التيس الذي تؤكل جذوره. وبعد ذلك ظهر الطلع أو الميموزا المثمرة، وكذلك الشَّمَّاق. وأخذت الأشجار في الازدياد شيئاً فشيئاً حتى تحوّلت إلى أدغال.

في منتصف الليل، مررت قرب الدرب وهو مكان شهير للاستراحة وضرب الخيام. وكان هناك مجموعة من الأكواخ العربية بإمكانها من موقعها رؤية أضواء مرفأ عدن وهي ما زالت تتلألأ ومراكبه الرّاسية في بندر التّواهي.

ظهرت أكواخ أخرى إلى الشرق. وهنا انفصلنا عن أولئك المتجهين إلى بير أحمد وأخذنا طريقنا باتجاه الشمال مارّين بالمحلّة، ونوبة هران (طريق المرعى) والمقيرة (بلد الثّوار) والمكان مليء بالأكواخ وصّبر، وهي القرية الأولى المبنية بالآجر. دخلنا في السّاعة الرّابعة صباحاً واحة تسمى لحج (المكان الكثيب)، وبعد ساعة كنّا في الحوطة (المحميّة) وهي العاصمة، بعد مسيرة استغرقت أربعة عشر ميلاً تقريباً ودرجة حرارة تناهز السّتين.

وهنا جرت العادة أن يُفرغ الجمّالون بضاعتهم في بهو السّلطان. لذلك انتظرتُ نصف ساعة قبل أن يأتي دور ناشر⁽¹⁾ Nàscier (ومعنى اسمه: المفسّر) وهو جمّالي. وبعد ذلك دخلت المدينة معه واتجهنا إلى منزل رجل يدعى عبد المحسن المسمار حيث ربطنا حيواناتنا وأخذنا إلى الرّاحة بعد رحلتنا الليلية.

* * *

(1) ينبغي الإشارة إلى أن حرفي sc يلفظان بالإيطالية شيئاً بالمطلق، كقولك: Brescia. ويرد أدناه في النص مثلاً: Ghescier قشر.

* كذا وصوابه: كل ناتئ مشرف من الجبل ينخفض ماتحته، وقيل المكان الضيق (المراجع).

الفصل الثاني

الفصل الثاني

بلاد العبدلي - لحج - الحوطة - محطات للقوافل - القهوة والرجيلة العربية - كتاب السلطان - رمضان - منازل عربية - مساجد.

تسمى البقعة من الأرض التي تتجه من عَدَن إلى الشَّمال وحتى الجبال الأولى، بلاد العبدلي (أي العبيد) وهي إحدى القبائل العربية. ويبلغ عرضها أربعة وثلاثين كيلومتراً وطولها حوالي ثمانية وثلاثين كيلومتراً. ومجمل مساحتها ألف ومئتان واثان وتسعون كيلومتراً مربعاً. سدس تلك المساحة مزروعان، وجزء من اثني عشر عبارة عن غابات، والباقي صحراء وفيافٍ من الرمال.

أما الجزء المزروع، فهو عبارة عن واحة جميلة في الصحراء تسمى لحج. وتمتد على أميال عديدة جنوب الحوطة، العاصمة، وبين الوادي (النهر) الصغير والكبير. وهي روافد وادي تُبن الذي يتجه شمالاً حتى قرية الشقعة (اسم نبتة: Podex catulae).

وزعيم بلاد العبدلي هو السلطان فضل بن علي، وهو صديق الحكومة الإنكليزية في عَدَن، ويعدّ الرئيس المطلق. أما إخوته وأعمامه وأحفاده الذين أخذوا هم أيضاً لقب السلطنة، فهم وزراء تصريف الشؤون العامة.

تُسمى محطات توقف القوافل السَّمسرة Samsare، ولا تخلو منها مدينة أو قرية. وسَمسرة الحوطة عبارة عن فناء واسع محاط بسور من الأشجار، حوله مقصورة

واسعة تتكون من أعمدة مغطاة بحصر تجلس تحتها الجمال وحيوانات الجرّ. وتنتشر الأشجار هنا وهناك لتضفي ظلالاً ورطوبة على مكان شديد الحرارة.

أما صاحب السّمسة فيسكن في منزل من الأجرّ ولديه غرف تسمّى الديوان لحرسه. وإذا كان على درجة من الثراء، تراه يقتني أشياء ثمينة وبحوزته عدد من الأكواخ كتلك التي يملكها الفلاحين في حقول لومبارديا (شمال إيطاليا). وفي الديوان كما في الأكواخ، هناك عدد لا بأس به من الأسرّة وهي عبارة عن مقاعد طويلة تُستخدم للنوم.

وفي بلد حارّ كهذا، يُحبذ النوم في الأكواخ لأنّ النوم في المنازل خانق بسبب الحرّ والرطوبة. وقبل وصول القافلة بمسافة، يقوم رئيسها الذي ابتعد عنها بالبحث عن سمسرة خالية أو مكان شاغر يطلب فيه القهوة له ولأصحابه والكلأ لحيواناته. وبعد ذلك يأتي الجمّالون كل واحد على حدة يدخل الفناء ويلقي بحمل الجمل الذي يصطحبه ثم يجلس في المقصورة. وفي النهاية يترك حمل كل جمل في مكانه بترتيب معيّن ومنظم بينما يجلس الجمّالون في صف في المقصورة تحت الظلال.

بعد إفراغ الحمولة، يجتمع رجال القافلة تحت كوخ أو داخل الديوان متمدّدين على الأسرّة للراحة وهم يشربون كمية كبيرة من فناجين القهوة المغلية ويدخنون المداعة، أو التّرجيلة التي يتناوبون على تدخين قصبتها من شخص لآخر.

إنّ عرب اليَمَن، بلد قهوة المُخا (موكا بالإيطالية Mocca)، لا يستهلكون البن كما نعتقد. بل إنهم يبيعون حبوبه⁽¹⁾ ويستهلكون فقط قشرته لاستعمالهم الشّخصي ويشربون خلاصته بطريقتين: في البلاد الحارة يُطحن البنّ خشناً ويُغلى على النار في أوانٍ فخارية مستديرة ذات عنق طويل وضيق تسمى الجملية⁽²⁾ Gemelia ويضاف إليه كمية كبيرة من البهارات (التوابل)، كالقرفة وجوزة الطيب وعيدان القرنفل والزنجبيل.

(1) ويسمّى حبّ البنّ بقشره: الحقب.

(2) في تراث منطقة جازان بجنوبي المملكة العربيّة السعوديّة ما يشابه ذلك، فثمة إناء فخاري كان يستخدم لصنع القهوة وحفظها عوضاً عن الدّلال أو الأواني المعدنية، وهو «الجبّة» بفتح الجيم والباء والنون.

وتخرج القهوة داكنة اللون وطعمها قوي. أما في البلدان الباردة أو عند الأغنياء بشكل عام، فلا يُطحن القشر بل تُترك الحبة على حالها في الماء المغلي ولا تضاف البهارات إلا نادراً. أما السكر فيضاف دائماً.

والقهوة التي تسمى أيضاً القشر ذات لون ذهبي أشقر. أما طعمها فلذيذ ويُفضل على الشاي.

لا يمكنك أن تترك القهوة تبرد، لذلك فأينما حللت تشربها ساخنة. لهذا السبب يضعون الموقد (آنية من الفخار) وتحتة الجمر دائم الاشتعال وعليه الجميلية. وهذا يساعدهم أيضاً على تدخين الترجيلة في أي وقت من الأوقات.

تتألف المداعة (الترجيلة) المُسمَّاة أيضاً عند البدو الشيخة، من قطعة كبيرة من جوز الهند (الترجيل) ولهذا السبب يدعوها الأتراك الترجيلة، وترتكز على قاعدة ذات ثلاث قوائم من المعدن (الجلاس) el gelas. وتدخل قصبتيان في حبة جوز الهند، إحداهما طويلة من الخشب توضع بشكل عمودي وتدعى الملتقى el meltaga وتحمل في أعلاها إناءً من الفخار (البوري) el buri حيث يرتكز التبغ والجمر ويدخل حتى قعر الجوزة تقريباً كالأنبوب الزجاجي في قوارير السلتر Seltz عندنا. والأخرى قصيرة ومنحنية (القضبة) el gudba وتدخل فقط في الطرف العلوي للجوزة وعليها ترتكز القصبة الطويلة التي يتم التدخين عبرها. ويوضع الماء في ثلثي الجوزة، وهي نفس طريقة الترجيلة التركية، والفارق الوحيد هو أن المداعة العربية تصل إلى ارتفاع متر ونصف، وتصل قصبتهما في بعض الأحيان إلى أربعة أمتار.

أما ورقة التبغ (التبناك) فتُجمع وتترك لتجف في الظل. وبما أنها غير معالجة كتلك الموجودة عندنا، تُحرق بسهولة ولا تحتفظ بالنار. لذلك فعند التدخين يجب أن يُصغَّر حجم تلك الوريقات الجافة بتعريضها للماء ثم توضع على البوري وفوقها الجمر المتقدم. ولم أجد أحداً في هذا المكان يدخن الحشيش (أوراق القنب الهندي napeca) أو الأفيون.

إلا أنني وجدت عادات أخرى أخذت عن الهند، وهي وضع التبغ في الفم. إذ يُحول التبغ إلى مسحوق ناعم (البردقان) el burdukan ويوضع على راحة اليد ويبلل باللعاب متحولاً إلى كرة توضع بين لثة الأسنان والشفة السفلى.

وبما أن لكل شعب عيوبه، يبصق ماضغو التبغ أولئك اللعاب قاذفين به من بين أسنانهم المطبقة.

إنني أتحدث عن فعل بدا لي وما زال مبعثاً للتقرّز والإنكار.

يسمى التبغ بالعربية الدخان أيضاً (لأنه ينبعث عنه دخان) أو حاجة الرجال. أردت أنا أيضاً أن أجرب تلك العادة العربية، فاستلقيت مستريحاً بعد أن شربت عدداً كبيراً من فناجين القهوة ودخنت، بينما كان بغلي وحمار مقبل يأكلان العشب بنهم.



في صباح يوم الجمعة الحادي والعشرين من سبتمبر 1877، كان الطقس صحوّاً، وشاهدت أعداداً كبيرة من الصقور والغربان تحلق في السماء فوق البيوت، تماماً كما تفعل عندنا في مثل هذا الوقت وتدور في أسراب وحلقات نسميها: rondoni.

وفي الساعة العاشرة تقريباً بعث السلطان مسلمين من الهنود، هم كتابه أو مساعده، للترحيب بي، فسألوني بلطف وأدب فيما إذا كنت في حاجة إلى أي شيء. وشيئاً فشيئاً سألوني بحذر عن سبب زيارتي ووجهتي.

إذا كان من الأفضل لك في الشرق أن تكون صادقاً، ففي بعض الأحيان حري بك أن تكذب لتتخذ نفسك. وهذا ما فعلته. فبعد أن علمت أن سلطان الحوطة فضل بن علي، الذي أصبح فيما بعد من أفضل أصدقائي، قد منع هليقي في السنوات الماضية من الذهاب إلى صنعاء، لا بل أمره بالرجوع إلى عدن، احتلت على الرسولين قائلاً بأني أتيت إلى بلاد العبدلي للصيد وأني سأرجع إلى عدن بعد فترة وجيزة أقيم فيها في الرّيف والغابات.

قدّمتُ القهوة والسّجائر إلى ضيوفي، وبعد المجاملات الودية، صرفتهم. ولقد صرّحتُ أيضاً عن رغبتني في تقديم نفسي إلى السّلطان، إلاّ أنهم أجابوني بأنّه من الصّعب رؤيته في شهر رمضان إلاّ في الليل. لذلك تريّثتُ في أمر لقاء فضل بن علي والتمتّع بصحبته.

رمضان⁽¹⁾ أو رمضان كما يلفظه الأتراك، ليس كما يُعتقد عندنا بشكل خاطئ بأنّه شهر المُباحات عند المسلمين. بل على العكس، هو صيام صارم يُفرض على كل مسلم بلغ الرّابعة عشرة من عمره القيام به.

ومحمّد (ومعنى الاسم: الجدير بكل حمد) رسول الله طلب من المسلمين الصّوم، فلقد جاء في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة، 183). ونزل القرآن⁽²⁾ في رمضان من السّماء ليهدي النّاس ويفسر بوضوح (الأركان) والتمييز بين الخير والشرّ ووقت الصّوم الذي يُحدّد عند مشاهدة القمر.

.... تُتبع تلك التعاليم الدّينية بحذافيرها ولا يخرج عنها إلاّ العدد القليل جداً من العرب. وإن فعلوا، فيكون سراً. والامتناع عن الطّعام لا يعني فقط الأكل والشّرب وإنما التدخين أيضاً وحتى استنشاق العطور. ومن المتشدّدين من يمتنع عن بلع لعابه. لقد خرق مبعوثا السّلطان الصّيام، فشربا القهوة ودخنا السّجائر إلاّ أنّهما كانا من الهنود المسلمين، ويبدو أن الإسلام في بلدهم يتمتع بحرية أكبر.

لا تُجبر الحوامل على الصّيام ولا المرضى أو من كان على سفر، لذلك لا يطرأ على محطات القوافل أو السّماسر أيّ تغيير طوال أيام السّنة.

لا ينطبق الأمر على المدن والقرى في شهر الصّيام، إذ يعيش المسلم يومه في عزلة وسلام. ويمكنك بسهولة تفهم صعوبة تطبيق الشّريعة في بلاد شديدة الحرارة، لذلك

(1) كتب المؤلّف: هو الشهر التاسع في التقويم القمري العربي.

(2) كتب المؤلّف: القراءة، من فعل قرأ.

لا تندهش إذا رأيت العربي يبحث عن طريقة يبذل فيها أقلّ جهد ممكن. وتجد المدن والقرى تكاد تخلو من السّكان من الصّباح وحتى غروب الشّمس. وتقفّل الدّكاكين وصالات القهوة أبوابها. وعندما كنت ألتقي مصادفة برجل في الطّريق وأتوجّه إليه بالحديث، كان يجيبني بانزعاج واضح وكأنه يخاف من الكلام لكي لا يخالف قانون الصّيام.

تلك هي الحوطة في شهر رمضان وعَدَن ومدن المغرب الذي زرته خلال شهر رمضان من العام المنصرم.

ما يكاد يأتي المساء إلا ويستيقظ الجميع وتدبّ فيهم الحياة، فتمتلئ الأسواق (البازار بالتركية) وصالات القهوة وتعاود المداعة نشاطها الصّახب. أما الصّوامع* المضيفة فتدّل من بعيد على أن الحياة تنشط في الليل وأن النّاس الذين طال صبرهم قد بدؤوا بالأكل والشّرب في الوقت الذي يجب أن يخلدوا فيه إلى الرّاحة. وتظهر النّساء على الشّرفات، ويعلو نغم الأغنيات الجميلة وصيحات الفرح وتناثر أضواء الأحياء الضيقة التي تتصارع مع الظلام. وهذا ما يعطي البلاد العربية هيئتها المميزة التي من الصّعب أن تجدها عندنا. وهي لا تشبه ليالي الكرنفال في بلادنا.

تحتوي الحوطة (المكان المحصن) على ألفي نسمة. وهي منظمة كبلادنا وإن لم تكن نظيفة. مع ذلك فهي أكثر نظافة وانتظاماً من المدن المغربية بما فيها طنجة، التي هي مكان إقامة السّلطات الأوروبية المدنية. إن السّلطان فضل بن علي قد وظف عمالاً لتنظيف الطّرقات يكنسون ويرشّون الأحياء كل يوم. وكما في كل أنحاء العالم، فإن بيوت الحوطة أوسع وأكثر جمالاً وأناقة من بيوت القرى. ذلك أن السّكان، وهذا ينطبق على اليَمَن أيضاً، هم أكثر فقراً في القرى، بينما ترى مظاهر الثّراء والرّخاء في المدن فقط.

وبيوت الحوطة ليست مبنية من الحجر لأن بُعدها عن الجبال يجعل من عملية نقلها على ظهر الجمال - بما أنه لا توجد وسائل نقل أخرى - من الأمور الباهظة.

* كذا في الأصل ولعل المؤلف أراد بذلك المآذن (المراجع)

لذلك فهي تصنع من الآجر وروث الثور والجمل والخروف والماعر الذي يُجفف ويحول إلى مسحوق يُمزج مع التراب والماء والعشب الجاف. يُصنع من هذا المزيج عجينة أو لبنة الآجر التي لا تُشوى وإنما تترك لتجفّ تحت الشمس. ويُصنع الكلس من المادة نفسها أو الإسمنت لتشييد المنازل.

تشيّد الجدران بتلك المواد. ولإعطائها صلابة داخلية وخارجية، تُدهن بنفس المواد مضافاً إليها القش وألياف الأعشاب لتلتحم مع بعضها أكثر وتصبح أكثر صلابة. أما السقف فيُصنع من أغصان الأشجار.

تجعل تلك المواد القدرة التّظافة مستحيلة، ذلك أن البراغيث والبق وبرغوث الجمل والعناكب والتّمل والعتّ تتكاثر وتسكن غبار الغرف والجدران. وحتى السّحالي تعيش بين أغصان السّقف وتضع بيوضها.

ويلجأ الأثرياء، هنا أيضاً، إلى طلاء داخل الغرف بالكلس، وكذلك السّقوف والتّوافذ والأبواب حتى تصبح مريحة وقابلة للسّكن.

أما الفقراء من البدو الذين لا يملكون المال لشراء الكلس - باهظ الثّمن - فيلجؤون إلى وسائل أخرى تجعلهم ينامون بأمان بعيداً عن اللّسعات، فإما أن يدهنوا جسداهم بالزيت، أو يدخلون في أكياس طويلة يغلقون فوهتها بأيديهم فوق رؤوسهم. وعندما تراههم نياماً على تلك الحال تعتقد بأنهم أموات.

وكان هذا هو غطاء مُقبّل الليلي.

سألته مرة: «كيف تستطيع أن تتنفس وأنت في الكيس؟».

أجابني: «الأمر يتعلّق بالعادة».

ولقد حاولت أنا أيضاً بعد ليلة مريّة أن أدخل في كيس مُقبّل، إلا أنني لم أستطع التّنفّس وفضّلت ترك دمي تمتصّه الحشرات على أن أموت مختنقاً.

تحتوي بيوت الحوطة على طابق أرضي وطابق أول، والقليل جداً منها يحتوي

على طابقين، إلا إذا كانت منازل حديثة أو قصور السلطان وعائلته التي بناها مهندسون معماريون هنود والتي تحتوي على أربعة أو خمسة طوابق.

وبشكل عام فالبيوت ليست واسعة، ذلك أن عائلة واحدة فقط تشغلها. تلك هي عادات المسلمين. والسبب هو نساؤهم؛ فهم يعزلون العائلة للمحافظة عليها، ويغارون ويضعون كل عاطفتهم فيها. ولقد لاحظت بأن من يسكن البيت يمتلكه أيضاً.

ولذلك تبنى البيوت بهذا الشكل، أي وفقاً للعادات الإسلامية، حيث توزع الغرف الداخلية بطريقة معينة أيضاً ويتفتنون في مظهرها الخارجي بما يعطيها سمات تميزها عن الديانات الأخرى.

يوجد في البيوت العربية كل ما من شأنه تأمين الراحة التي يتوخاها صاحبها. وعند اقتناء ما يريد، يحيط كل شيء بسرية تامة. لذلك لا يترك شيئاً يمكن للغريب أن يستمتع به. ويبنى معظم تلك البيوت بشكل غير متناظر في أحياء غير منتظمة. ونادراً ما تُطلّى بالكلس من الخارج. وتبدو معظم بيوت الأغنياء، المليئة بالزخارف والتفاصيل، فقيرة من الخارج.

أما أبوابهم فمنخفضة وضيقة وتفتح إلى الداخل فقط وتُغلق بعارضات من الخشب. وعندما تُترك مفتوحة، يعترض المنظر الداخلي جدار يسد المدخل ويشكل ما يشبه البوصلة مع مدخل جانبي يفضي إلى داخل البيت.

وتحتوي واجهة البيت على نوافذ صغيرة ذات قضبان تشكل شبكة ملونة بالأسود والبني المحمر وهي تسمح بمرور الهواء والضوء اللازمين لتهوية الغرف إلا أنها تمنع في الوقت نفسه الناظر من الخارج أن يرى ما في الداخل.

والسقف أفقي ويخفي شرفة أو سطيحة. ويحيط به إفريز منخفض من التتوءات المحدبة ويُستعمل لنشر الغسيل. وفي بعض بيوت الأغنياء الذين اعتادوا تمضية المساء مع حريمهم على السطوح، يرتفع الإفريز بشكل كبير.

وفي داخل البيت في الطابق الأرضي فسحة واسعة تحيط بها غرف التخزين والإصطبلات وغرفة الدقيق والفرن والمطبخ وبيت الخدم، والديوان في بعض

الأحيان أو غرفة استقبال الرجال. أما الطابق العلوي فمخصص للحريم، وهناك أيضاً مخدع الزوجية.

ومنازل منطقة السوق تحتوي على طابق واحد فقط ودكاكين صغيرة ومنخفضة. أما مساجد الحوطة فهي شديدة الفقر.

على الجانب الشرقي للمدينة يوجد قصر مريح تملكه حكومة عدن ويُستخدم كنزل للغرباء الآتين لزيارة لحج والحوطة.

ويحيط بالمدينة حدائق وغابات النخل والحقول الزراعية. وخلال إقامتي الأولى في الحوطة وبعدها وجدتُ استقبلاً جيداً وترحيباً ممتازاً.

أمضيتُ الليلة الأولى في الحوطة أتنقل بين صالات القهوة والتسوق وأستريح، لأكون مستعداً للسفر في اليوم التالي.

* * *

الفصل الثالث

الفصل الثالث

مغادرة الحوطة - حقول وحدائق - دار القرشي - حائط حقل الليمون - الغيل - نساء
من البدو - زيهيم وعاداتهم - الرّجال - اللحية - قافلي التي ازداد حجمها - الزايدة -
ثعبان - ضربة شمس عولجت بالكينين - البدو وطباعهم وزيهيم وحروبهم وحرية ممارسة
عقيدتهم - السلاطين والأمراء والشيوخ - الخلافة على العرش - القوافل - الكاتب في
سفر - الاستراحة.

يوم السبت الثاني والعشرون من سبتمبر 1877: في الساعة السادسة والتّصف
صباحاً غادرنا سَمْسرة أبي محسن المسمار، وهو شيخ طيّب أبدي حرصه ولهفته
علينا. وما إن تركنا المدينة حتى دخلنا ممرات داخل حقول الدّرة والطّعم tāham
(الأحمر) والشّوفان والشّعير والحمّص والبرّ el-burr والدُّخن ed-dòkhon والفول
والبادنجان والشّذاب Scedàb والبامية Hibiscus esculentes والقَضْب el-gadhb.

وكنا بين الحين والآخر نجد مزروعات مسوّرة فيها اللوبياء وحبوب الفاصولياء
القشيري والقطن والسّبان es Seban والقشد) وشوك الحمير sciuq (أو مهماز
الحمير)، والأرضي شوكي (الخرشوف) والخسّ الأخضر والفجل والقرع والحباب
والخيار واليخنة والملفوف والبقلة والثوم والبصل والطّماطم، الخ. وتنتشر أشجار
التّخيل في كل مكان. وهناك بعض الضّافي ed-Dàfi والدّوم ed-Dùm وجوز الهند
(الرّجيل). وعلى بعد ميل ونصف تقريباً إلى شمال الحوطة، رأيتُ على يمين الطّريق
دار القرشي أو القريشي (مكان القريش Goresc وهي شجرة استوائية)، منزل محمّد

الشَّاويش وهو من أقرباء سلطان لَحج.

والمنزل عبارة عن فسحة يحيط بها سور من الآجر وفيه مدخل واحد من الجهة الغربية. ومساحة المنزل ألف وخمسمئة متر مربع تقريباً. وفي منتصفه بناء مكون من ثلاثة طوابق، وعلى كل زاوية من الزوايا الأربع برج أسطواني. وقرب المنزل الضخم وجانب الباب ارتفع مسجد صغير. وفي الدّاخل ظهرت أكواخ ومساكن الفلاحين والخدم.

هذا هو البناء العام لمنازل الأغنياء في ريف بلاد العبدلي. وهي عبارة عن قرية صغيرة مسوّرة لصدّ غزو البدو.

في حوالي السّاعة الثّامنة وعشرين دقيقة صباحاً وعلى بعد خمسة أميال من المدينة في مكان يدعى حائط حقل الليمون في غيل (تجري فيه المياه الغزيرة بسرعة)⁽¹⁾ وفي ظل شجرة الطّرفاء، توقفنا.

كانت الشّمس حارقة، فنشرتُ أغطيتي على الشّجرة لتشكل خيمة وسجّل جهاز قياس الحرارة السّاعة التاسعة صباحاً سبعمئة واثنين وخمسين ميليمتراً ونصفاً، أي أربع وثلاثين درجة ونصف مئوية. أما السّماء فكانت صافية وهبت ريح خفيفة رطبة من الجهة الشّمالية الغربية.

اقتربت منا ثلاث نساء كنّ يرعين عدداً كبيراً من الماعز والخراف، سلمى الكبيرة

(1) كتب المؤلّف: في اللغة العربية توجد طرق عديدة لتسمية مجرى الماء أو تجمعه، منها: العين والوادي والغيل. والعين هي التّبع، والوادي هو المجرى، والغيل هو المجرى الدائم للماء. وخلال إقامتي في اليمن عرفت أربعة أنهر ذات مجرى دائم هي: وادي تبن، الذي ينبع من جبال ماوية، ويتلقى عن يساره قرب جول مدرم، وادي خندوق Uádi el-Khondùq. ونهر بلاد الحدة وجبل مُريس وبلاد الشّاعري. وعند وصوله إلى الزائدة وحيط الليم يتفرع إلى فرعين: يدعى الشّمالي الوادي الكبير ويجري جنوباً ماراً ببير أحمد ويصبّ في مرفأ عدن. أما الشرقي الذي يسمى الوادي الصّغير، أو وادي عُبر، أو الغيل فيقوم بريّ واحة لَحج التي لا يمكن لها أن تزدهر دونه. ويمرّ إلى شمال الحوطة ثم يصبّ في البحر على بعد خمسة عشر ميلاً شرقي عدن.

وجارية في مقتبل العمر وعلية الصّغيرة. توقفن بالقرب مني ومن مُقَبَّل. أخذت سلمى مداعتي وأرسلت علية تحضر روث ثور جاف لتشعله، ثم وضعت على البوري buri وبدأت بالتدخين. ثم جاء دور جارية، فدخنت هي الأخرى.

كان هذا خرقاً لقوانين رمضان. وإذا كان عرب المدينة يتبعون الصّيام بصرامة، فلا يعير البدو أهمية كبرى له ولا يتبعون تعاليم القرآن بحذافيرها.

وصل مالك الحقل، وحيى النساء الثلاثة مصافحاً أيديهن ثم قبل يده. حيّاني وجلس بجاني. كان رجلاً مسناً وسيماً، وسماته تدل على طيبته.

كان معي مستخلص النّعناع المركز القوي، فوضعت بضع قطرات مدّنتها بالماء وأضفت السكر وأعطيته للنسوة فشربنه بسرور. وعرضته على المسنّ فلم يقبل لأنه كان صائماً.

والنعناع نبات مشهور جداً عند العرب وكثير الاستهلاك.

لقد بدت النساء على جانب من التّحرّر، وأردتُ اختبارهن فعرضت مشروب الجين قائلاً بأنه لاذع، فتذوّقنه ووجدنه قوياً وقلن «طيّب» أو «مليح كثير».

أراد شيخ الحقل معرفة من نحن، وعرف مُقَبَّل فحيّى باحترام ابن سلطانه السّابق، وكان قد فرّ هو أيضاً من بلد مُقَبَّل بعد دخول الأتراك. ودون أن يضيف شيئاً، ابتعد عتاً ليعود بعد ذلك ومعه الشّوفان للبلغل والحمار وأحضر أيضاً القهوة والتّبغ والنّار ولم يقبل أن ندفع له ثمنها ولا حتى البقشيش، وكنت قد عرضت عليه ما لا يقل عن تالّيرو ماريا تيريزا (خمسة فرنكات).

في الوقت الذي بقيت فيه في الحقل تسنّى لي دراسة زي البدويات. كنّ يسرن حفاة إلا من صندل يتألف من سّيرين من الجلد في الأعلى تدخل فيها أصابع القدمين. أما اللباس، فهو عبارة عن قميص واسع من القطن الدّاكن، مربع على الصّدر والأكتاف بحيث لا ترى شيئاً من الجسد. ثم يضيق على الوسط بحزام من الجلد الأخضر أو البني المحمر. أو من حبال من التّحاس المجدول بشكل سلاسل. أما الأكمام فقصيرة

كالقمصان القصيرة عند نسائنا. وحول العنق وعلى الصدر والأكماء وفي أسفل القميص، يوجد قماش من القطن البني المصفرّ وعليه تطريزات حمراء وخضراء. وعلى الرأس تضع النساء الخمار أو المنديل الأسود ويبدو من خلاله شعرهن الأسود شديد اللمعان بسبب الزيت والدهون. ولا تلبس النساء بنطالاً ولا يجلسن بشكل عادي وإنما القرفصاء على كاحل القدم اليمنى التي تبقى عمودية وفقط الأصابع تنثني، أما الرجل اليسرى فتبقى مستوية بشكل أفقي. وعندما تتكلم المرأة تلوح بأيديها وأذرعها. وملابس رجال البدو بسيطة جداً؛ فهي عبارة عن قميص أبيض أو أزرق من القطن طوله متران ويُعقد من الخصر بحزام من الجلد توضع فيه الجنيّة، أي خنجر معقوف على شكل حرف U. أما الفوطة، وتُسمى كذلك، فهي عبارة عن قطعة من نسيج القطن تغطي الأرجل حتى الركب فقط تاركة باقي الجسم عارياً.

يأمر القرآن المسلمين بحلق الرأس بالكامل*، أما البدو فيتركون شعورهم الطويلة الجعداء تنسدل على أكتافهم العارية بنية اللون. وعلى الرأس، حول الشعر يتركون حبلاً أصفر يميل إلى الحمرة يحيط به وهو يستخدم لإشعال بارود بنادقهم، فالمقدح لا يتخذ من الحجر في البلاد العربية بل يستعمل عوضاً عنه الفتيل.

وللذقن شأن عند الشرقيين، فهي رمز الرجولة والحرية والقوة الجسدية والمعنوية. وفي اليمن كما في مختلف البلاد الحارة لحاهم قصيرة وغير كثّة. لذلك يعتنون بها كثيراً سواء العرب منهم أم البدو. وهناك مثل عربي يقول: «يمكنك أن تعدّ شعر لحيته». ويقال لمن لا يتمتع بقدر وافٍ من الذكاء. وأما أخذ العهد، فيتم بلمس اللحية وكأنها تؤخذ كشاهد على القول وتعادل القسم.

جاءني كثيرون من العرب في ذلك اليوم، ومنهم علي وهو رجل طيّب. وإلى جانب كرمه كانت صحبته جميلة وحرصته دقيقة في حردبة وعلى طول الطريق حتى دّمار. وبعد علي كان أحمد ومحمد من الجليّة وعرب آخرون كان لديهم حمير محملة بالتبغ والبضائع وطلبوا الانضمام إلّي عارضين الحماية.

* لا صحة لذلك، وبهذا وغيره يستدل على جهل المؤلف بالإسلام (المراجع).

وليس هناك ما يدعو للعجب، فالبدو كرماء، يحترمون ويستضيفون الغريب الذي يزورهم ويعتبرونه مع من معه شيئاً مقدساً. وهذا ما يفسّر رغبتهم بالمضيّ معي، فلقد كانوا متأكدين من أنهم سيلقون ضيافة جيدة. ومن العرب الذين جاؤوا معي هناك شخص رديء الشكل كان قد قام بسرقات عديدة وكان يخاف إن وجدوه منفرداً أن ينتقموا من أفعاله. ولكنني سمحت له بمرافقتي لأنه كما قال لي مقبل بعد أن سرد علي قصته: إذا عملت معروفاً مع بدوي لن ينساه أبداً. «هم بدو» قالها مقبل باتضاع، «هم غزاة وقتلة ولكنهم في النهاية رجال لهم قلوب».

وهكذا، وفي الساعة الرابعة من بعد الظهر، تركنا الحقل ووجدت قافلتي وقد ازداد حجمها بحوالي دزينة من الرجال وحوالي عشرين حماراً.



عبرنا وادي الغيل ودخلنا أراضي الزايدة وكلمة زيد بالعربية تشير إلى المكان الخطر. وهو جزء من البلاد مليء بالأدغال التي تمتد بين الغيل والوادي أو النهر الصغير والجبل. وهنا تنتهي سلطنة العبدلي مع بلاد الحوشي. وزيد كان سلطاناً، وكما حصل لجيرانه، خضع لوصاية حكومة عدن الانتقالية. ولقد توفي منذ أعوام عدة دون أن يترك ورثه، فاستولى حاكم لحج على السلطنة عنوة. وهذا هو أحد الأسباب إن لم يكن السبب الرئيسي في المعارك المستمرة بين سلطنة لحج وسلطنة الحواشب.

في المساء دخلنا غابة الإثل Atel الكثيفة، فسمعت صوتاً خلفي وضجيجاً وصراخاً متقطعاً. لم أرَ إلا صخباً في صفوف قافلتي فظننت أننا قد هوجمنا مع أن مقبل لم يتوان عن الحراسة. تبددت أفكارني تلك عندما علمت أن مصدر الهلع هو ثعبان وُجد في وسط الطريق وحاول العرب القبض عليه وقتله لأنه كبير وسام جداً، إلا أن الحنش سرعان ما اختفى بين الأشجار. وكان العرب يرغبون جداً في قتله، وعندما اختفى فقدوا الأمل في العثور عليه وتوقفوا عن البحث.

وصلنا في الساعة السابعة والتوقف إلى مكان خاوٍ من الأشجار قرب قرية دار

قاسم، فأضرمت النار وحُضِرَ العشاء. وللأسف فإن ضربة شمس خفيفة قد جعلتني أرتمي في سرير الحبال المعلق أو الأرجوحة بسبب ألم في الرأس.

وفي عَدَن، قال لي الأطباء الإنكليز بأن ضربة الشمس تُعالج بسُلفات الكينين وإذا كان الألم في بدايته تؤخذ جرعة كبيرة في الفم. أما إذا تضاعف فتعطى حُقن من السُلفات تحت الجلد. ولقد أكّد لي الأطباء نجاح مفعوله، لذلك ففي المساء أخذت جرعة قوية من الكينين وكان تأثيره قوياً لأنني نمت حتى الصباح وتعافيتُ تماماً.

* * *

يوم الأحد الثالث والعشرون: أمضينا اليوم بأكمله تقريباً في المكان الذي لجأنا إليه مساء الأمس لسببين، الأول هو مسيرة طويلة في الرمال الطرية وهذا ما أتعبنا كثيراً. والثاني هو أنه ما زال أمامنا مسافة كبيرة وكان على الجمال أن ترتاح. كما أن غابات الزيد كثيفة والجمال تحب أوراق الشجر كثيراً وهذا العلف لا يكلف أصحابها شيئاً. وخلال تلك الاستراحة الجبرية التي استغرقت النهار بأكمله، أخذت بالتدقيق في كل ما يجري حولي وسألت مقيبلاً والآخرين أسئلة كثيرة تتعلق بالحياة وأزياء البدو والجمالين. وكنت أسجل كل الأمور بحذافيرها في دفثري الصّغير. وسأقوم بفتحها الآن لأعطي القارئ حقائق يأخذ عبرها فكرة عن هذا الشعب الذي ما زلت على اتصال معه.

ينقسم العرب إلى ثلاث فئات اجتماعية أو أجناس: العرب والقبيلي والبدو. العربي (قوي وشجاع وسريع الحركة). والعربي من الدّم الصّافي يرجع نسبه إلى قحطان⁽¹⁾ الذي ذُكر في سفر التكوين. ويعيش في المدينة ولون بشرته فاتح. وهو أكثر ذكاءً من إخوانه وتصرفاته أكثر لِيناً.

القبيلي (صفة اسمية للقبائل وتعني رجل القبيلة) وهو عربي أيضاً صافي الدّم، يعيش في الجبال ولونه داكن وهو أقل ذكاءً من العربي الحضري ولكنه شجاع وقوي،

(1) يرد في سفر التكوين باسم: يقطان بن عابر.

يحب العمل ومن محتدٍ كريم. وهو كالفلاح عندنا.

يعيش العربي والقبيلي في المدينة أو القرية في بيوت مصنوعة من الحجر أو الآجر المشوي في التّور.

أما البدوي (من البادية أو الرّيف فهو عكس الحضري الذي يقيم في مكان سكن ثابت). يسكن البدوي الصّحراء وهو من الرّحل ولون بشرته بنيّ أحمر مائل إلى السّواد. ومع زعمه كونه عربياً أصيلاً، فأعتقد أنه مهجّن ينحدر من اختلاط العرب بالحجّريين الذين لا أشك في كونهم ينحدرون من الحبشيين القدامى الذين استولوا على اليَمَن بقيادة أرباط في عام خمسمئة وتسعة وعشرين بعد ولادة المسيح، واستمروا حتى ستمئة وواحد بعد الميلاد أي فترة الغزو الفارسي. أغلب أولئك الحبشيين إن لم يكن جميعهم الذين استُخدموا عبيداً للمهيمنين الجدد هم أجداد الحجريين الذين صاهروا العرب والقبيلي. ولا أستطيع القول بأنهم أنجبوا البدوي ولكنهم هجّنوه حتى ظهر جنس آخر يحمل دماً من هذا الشعب وذاك⁽¹⁾.

وبما أن العالم واحد. وكما نعت نحن أيضاً الوضع بـ «القروي» لكي نفرّج به، فإن العرب أيضاً يقولون: قبيلي أو بدوي للأسباب ذاتها.

احتفظ البدو بالنّظام القبلي الذي يترأس فيه رجل. ولا يعيشون تحت الخيام لأنها غير معروفة في اليَمَن ولكن في أكواخ. وتعيش عائلة واحدة في الكوخ، ويتزوّج الرّجل بامرأة واحدة بشكل عام.

من الخطأ الاعتقاد بأن البدو متوحشون، فهناك قبائل تغزو وتسطو وهي تفوق عدداً القبائل الأخرى، إلا أنها تميّز بالنّبل والكرم.

والبدوي رجل حرّ وكل ما فيه يوحى باستقلاله. وبالفعل فهو يفتخر بأنه ينتمي

(1) كلام مانزوني فيه خلط وافتات، وما برحت قبائل البدو على امتداد جزيرة العرب وخارجها في العراق والشام وشمال أفريقيا تعني بأنسابها أيما اعتناء وتعزّز بها، ولا تقبل اختلاطها بوجه من الوجوه. ومن الواضح أن المؤلّف أحبّ الادّعاء بأنّ لديه خبرة في علم الأعراق البشريّة (الأنثروبولوجيا)، غير أنّ الرّأي الذي يسوقه هنا مغلوط دون ريب.

كما قلت إلى العرق العربي الصّافي، بل إلى العرق الذي لم يخضع لأحد ولم يختلط دمه⁽¹⁾.

وشكله جميل، فارع القامة، صلب القوام، بُني البشرة، نصف عارٍ، يتدلى شعره الطّويل على كتفيه ومعه البندقية ذات الحربة. وهو لا يعرف العادات الحسنة اللبقة أو المجاملات ولا ينحني للتّحية، فهو يوجه الحديث لرئيسه كما لو أنه في مثل رتبته⁽²⁾.

والبدو بسطاء يعيشون على القليل من الحليب والتّمر في طعامهم اليومي، لا يشربون الخمر أو الكحول. وبسبب حياة التّقصّف تلك لا يصابون بالأمراض ويعمّرون.

تعلّمهم حياة الرّعي نقاء الطّباع، فقلب البدوي يعرف الحبّ ولا يعرف الخيانة وتعدّد الزّوجات. ولا يمكن إغواء النّساء بينهم، بل الزّواج هو الرّابطة الحقيقيّة التي يحترمونها.

ويتركون الحرية لنسائهم أكثر من الفئات المسلمة الأخرى، فلا تضع البدويات الخمار وتعيش مع الرّجال منذ نعومة أظفارهن، لذلك تراهن يكتسبن طباعاً رجولية. وينتمي البدو إلى قبائل كبيرة يرأسها السّلطان (يتمتع بسلطة ونفوذ مطلق) أو أمير (ولي العهد).

والقبائل الرّئيسية هي: العبدلي (العبيد)، والفضلي (المنحدرين عن أصحاب الفضائل الحميدة أو صاحب الفضل)، والحواشب (سكان الجرد أو البلاد القاحلة)، والصّبيّحي (سكان السّهول التي تتحول إلى سبخات من الماء العكر أثناء الشّتاء)، والعلويين الذين يجاورونهم. ولكل قبيلة من تلك القبائل أرضها في الصّحراء، وتستطيع أن تتخيّل صعوبة تحديد الحدود في أرض كهذه. لذلك تقوم المشاجرات

(1) الآن يتكلم مانزوني كلاماً سليماً لا تشوبه شائبة، فبارك الله بكل إنسان صادق.

(2) نعم هذا صحيح، لا بل ويخطبه باسمه المجرّد، وهذه لعمرى من أجمل سجايا البداوة ومن معالم الدّيموقراطية الطّبيعيّة بعيداً عن تعقيدات المدنيّة الحديثة.

* محاولة المؤلّف إرجاع أسماء القبائل إلى الجذر اللغوي المشتقة منه، وبالتالي شرح معناه أو وقعه في أخطاء، حقيقة الأمر أن لا علاقة لتلك الأسماء بالمعاني اللغوية التي ذكرها (المراجع).

دائماً بين القبيلة والأخرى المجاورة وتحوّل إلى حروب لا تنتهي. وينقطع السلم بين قبيلة وأخرى لأسباب عدّة، منها عدم العدل أو سوء المعاملة أو بسبب قتل بدوي من قبيلة أخرى.

يطبّق العرب الاستبداد السياسي والديني. أما البدو فعلى العكس لا يعرفون الأول ويتصلّون من الثاني. إنهم مسلمون ولكن إسلامهم بدائي ويختلط مع عاداتهم القديمة.

يقولون: «لا نصليّ لأنه ليس لدينا ماء لتوضاً. ولا ندفع الزكاة لأننا فقراء، ولا نصوم رمضان لأننا نصوم السنة بأكملها. ولا نذهب إلى مكّة لأن الله في كل مكان».

والخلافة على العرش ليست وراثية من الأب لابنه. فإن مات السلطان أو الأمير أو الشيخ (المسنّ، الحكيم) في القبيلة، يجري انتخاب شخص من عائلة السلطان المتوفى، يكون أكبرهم سنّاً، رئيساً للقبيلة.

وهناك حالتان تمنعان الخلافة بتلك الطريقة. إما أن يرفضها من يجب أن يتولاها مفضلاً شخصاً آخر يكون عضواً من العائلة نفسها أو تجري انتخابات جديدة دائماً في صُلب العائلة الحاكمة نفسها. وعندما لا يُنظر إلى الخليفة بعين الارتياح تُحل المشكلة بشكل شبه دائم بقوة السلاح.

إذا مات السلطان دون أن يترك أحفاداً ذكوراً، يعيّن للقبيلة أحد مساعدي الرئيس أو شخص يحترمه الجميع على أن يكون من القبيلة نفسها.

يقوم البدو بإرشاد ومرافقة المسافرين في الصحراء (الرّشيد أو الدليل) وهم جمّالون، والجمّالون هم عامة من القبيلي.

والأحياء التي عندنا لا وجود لها في اليَمَن ولا في البلاد الشرقية التي لا تتمتع بالحكومة الحكيمة قوية التفوذ كالأوروبية. والأحياء في اليَمَن عبارة عن طرق ضيقة بين رمال البادية أو بين الحقول الزراعية أو أحواض النّهر التي جفت أو الجبال. وهي تتغيّر في الصحراء ذلك أنها تتشكل من عبور القوافل التي تمرّ مسبقاً فتكفي عوامل

الرياح غير الشديدة لتحريك الرمال ومحو الآثار التي تركتها الآثار السابقة. ومع ذلك فالبدو، من نظرة واحدة وبمنتهى الثقة، يعرفون دون خطأ الطريق من علامات معينة كهضاب رملية أو شجيرات نادرة. يعبر تلك الطرق عشرون أو ثلاثون أو خمسون أو مئة أو مائتا جمل الواحد تلو الآخر، حسب كبر القافلة. ويُنقب خشم كل جمل ليربط به جبل يربط من طرفه الآخر بذيل الجمل الذي يسبقه فتصبح القافلة عبارة عن سلسلة لا تنقطع من الجمال المربوط أحدها إلى الآخر. وعلى يسارها يسير الجمال على أقدامه من جهة الخلف ممسكاً بيده اليمنى ذيل الحيوان يحته على المضي بصوته وبعصاه. يسير الرؤساء والرّجال المسلحون من جهة اليمين محمّلين ببنادق طويلة. وأما في الخلف فهناك عدد لا نهائي من الحمير والبغال، يركبها من يتبع القافلة أو تُحمّل بالأغراض.

عندما تسير القافلة يخيم الهدوء، فلا تسمع إلا ضجيج الحمولة وهي تتحرك على وقع حُطى الجمل الوئيدة. وفي حالات نادرة، يقوم الجمالون صغار السن الذين يتمتعون بالحيوية والنشاط بالحداء من مقدمة القافلة؛ فينشدون أغاني بدوية فرحة. أما المسافر فيصاب بالملل لأن التّقدّم بطيء ورتيب وحزين. ولا تسير القافلة أكثر من ميل في الساعة على الرمال. أما على الأرض العادية فيمكنها أن تقطع ميلين ونصف.

يصاب المسافر الذي لا يعرف لغة القوم بالملل وتعتريه الكآبة والإحباط فيشغل نفسه بالانتباه إلى الأغراض. ذلك أن الصّمت الإجباري يجعله يصاب بالتعب النفسي والجسدي، فوحده مع أشخاص مصابين بالملل والحرّ الشديد، إضافة إلى اضطرابه لما يخبئه المجهول مع عدم فهم لغة من يتكلم، كل ذلك عانيته في المغرب، إلا أن ذلك الدّرس كان قصيراً إذ سرعان ما أخذت بتعلّم اللغة العربية. وبأقلّ مما تخيلت تغلبت على مصاعب اللغة الجديدة وبدأت بالكلام بطلاقة. ومنذ ذلك الحين أصبحت أسفاري ممتعة. كنت أسمع وأفهم كل ما يقوله رفاق السّفر، وكانوا يتحمّسون هم لكلامي. وعليكم أن تتخيلوا شاباً ذا لحية يركب بغلاً وراء صف من الجمال والحمير وعلى رأسه قبعة على شكل خوذة بيضاء ولباس أبيض وعلى كتفه بندقية وسيجارة

تتدلى من شفثيه ونظارات على عينيه فوق أنفه الطويل، محاطاً بالعرب والبدو، بعضهم يسير والبعض الآخر على ظهر الحمير يتكلمون بجذبة حيناً وبتظارف حيناً آخر مجيبين على أسئلة الغريب. وهكذا يصبح لديكم فكرة عما يعنيه السفر الذي قام به صاحبكم الكاتب في اليمَن.

وحالما نصل إلى مكان الاستراحة، كان الجمّالون يقومون بنزع الحبل عن ذيل الجمال التي يدفعونها إلى مكان جلوس رئيس القافلة فينيخونها أرضاً ورؤوسها تتجه نحو المركز. ثم يرفعون عنها الأحمال التي تُترك في الجوار ويصبح شكل المخيم مستديراً مسوراً تُضرم في وسطه النار. وما إن تُرفع الأحمال عن البغال والحمير حتى تشعر الدواب بالحرية فتتمرّغ في الرمال باعثة غيوماً من الغبار. وبعد فترة قصيرة يتم عقل قوائمها الأمامية. يقوم بذلك شخص يدعى الوصيف el ussif. فعدا عن الرئيس في القافلة والمسافرين، هناك العرب والخدم الذين يتقاسمون العمل لتسهيل سير العائلة. لأن القافلة تعني ذلك.

والخشب المعدّ للنار، إما أن يُجلب مع القافلة أو يُحضر من المكان الذي تمرّ فيه. ويتمّ جمعه بشكل مجاني مما توفره قبائل البدو المضيفة. لذلك يأخذ كل شخص حاجته من الحطب بشكل عادي دون أن يدفع مالا لقاءه. ولهذا السبب لا تخلو القافلة العربية في الصّحراء من النار.

عندما يسافر العربي يأخذ كل ما يحتاجه معه من الضروريات للأكل والزّاحة. لذلك يحضر معدّات الطّبخ والمداعة والجملية والزّبد وزيت جوز الهند ودقيق السّميد والأرز والملح والفلفل والبهارات والبصل والبطاطا وقشر القهوة والتّبغ والتّمرو حتى الحلويات. وإذا كانت القافلة كبيرة، يُذبح كل مساء خروف (كبش) من الماشية التي يتم شراؤها قبل الرّحيل لتُضم إلى القافلة وتوفر الطّعام للمسافرين. ويتقدّم حينئذٍ أحد العرب في هيئة جزّار ويتقاضى ثمن أتعابه جلد الخروف. وبعد أن يقوم بتقطيع اللحم الذي يفرمه بنفسه، يقدّمه إلى الطّهاة الذين يضعونه في الماء ضمن البرمة burme (وعاء كبير من الفخار) وفي الطّبق التّحاسي مع الملح والفلفل والبصل وبهارات كثيرة. يسلق اللحم ويصبح لذيق الطّعم. أما

المرق فطيب بسبب البهارات المضافة إليه.

ويصنع العرب الخبز أيضاً (السنبوسك)، ويحضر دقيق السميد في كيس من جلد الماعز. وعند عجن الخبز يقوم الشخص بوضع الدقيق في وعاء كبير من الخشب مع ماء مملح ويحولونها إلى عجينة (اللقمة) يعجنونها لفترة قصيرة. وفي الوقت نفسه يوضع على الجمر وعاء من الحديد المدهون بالزبد. ثم يقوم الخباز بوضع القليل من العجين في يده يحوله إلى قطعة كبيرة مستديرة يضعها على الوعاء الحديدي لخبز ويقلبها عند الحاجة. بينما يتم خبز (الفطير)، تُحضر أخرى وهكذا حتى يتم خبز كل ما يفي بالحاجة. والفطير الذي خُبز لتوه وما زال ساخناً طعمه لذيذ جداً حتى لأوروبي. أما عندما يبرد فيصبح رديء الطعم.

والشيء الجديد الذي علّمته إياه كان عندما طلبت من مقبل تقطيع البصل إلى قطع صغيرة وعجنها مع الخبز فحصلنا على الخبز الذي يصنعه فلاحونا من دقيق الذرة. وكان لتلك العملية نتائجها، فقد لاقى الخبز بالبصل استحساناً شديداً. وشعرت بالابتهاج فيما بعد إذ أنني علمت أن تلك الطريقة لاقت رواجاً في اليمن وانتشرت بعد ذلك.

هناك طريقة غريبة في اليمن يطعمون بها الجمال التي تجلس حول مكان الطعام. فعندما يتمدد المسافرون والرؤساء بهدوء على السجاد يدخنون المداعة ويشربون القهوة، يقوم الجمالون بعد أن يرتاحوا ويأكلوا الخبز البسيط المصنوع من دقيق الذرة، لأنهم فقراء ولا يستطيعون الحصول على اللحم، يبدؤون بالاعتناء بجمالهم التي حتى هذا الوقت لم تأكل إلا القليل خلال وقت السفر. والجمال في البلاد العربية لا يأكل وحده وإنما يتم تلقيمه من صاحبه. يجلس الجمالون على الأرض مواجهين جمالهم وأمامهم أطباق من القصب الأخضر أو الجاف حسب الفصل وبعد الأماكن المزروعة به. يقطعون القصب إلى قطع تبلغ الواحدة ستمتراً واحداً ويخلطونها مع الأوراق من النبتة نفسها ومن نبتة خضراء أخرى كالتريام trifoglio ويدخلونها في فم الجمال الواحدة تلو الأخرى.

ولقد شاهدت عش الصُفيري Zufheri على غصن شجرة الطّرفاء وهو نوع من

الشحرور ذي الريش الأصفر والأسود. كان العش عملاً فنياً رائعاً، استند فيه إلى أغصان الشجرة بخيط من الأعشاب وتدلّت فوهته إلى الأسفل كجعبة مقلوبة. أما العيدان والوريقات التي تشكّل منها فاتحدت مع بعضها بخيوط عشبية صغيرة جافة عقدها الطائر بطريقة بدت وكأنها من عمل إنسان.

وشاهدت العديد من التمل: الصّغير الأحمر والكبير الأسود الذي يكثر في المغرب وعَدَن. ولكن هناك نوع جديد هو نملة كبيرة (طولها حوالي ستة مليمترات) رأسها وجسمها أسود أما مؤخرتها البيضاء فتبقى بشكل عمودي. والتملة نفسها لونها أصفر في حردبة Hardaba وفي تعز. ونظرها حادّ جداً، وتهرب كالذباب قبل أن تقترب منها اليد. ولقد حصلت على الكثير منها باللجوء إلى الحيلة لأنها بفطرتها تتوآب بعيداً.

* * *

الفصل الرابع

الفصل الرابع

المغادرة - رمال الصحراء - لصوص وقتلة - وادي منيف - قافلة خفيفة - وادي سيت
Seët - دار شيان - دار الهجر - وادي صهيب - السلطان العلوي الذي أخفّته - في
حردبة - وادي جافلة والخريبة - الرباح (القردة) - قدّيس - عامر البيشي - نقيّل الخريبة
- بلاد الشاعري - الوصول إلى الجليلة.

في الساعة الرابعة من بعد الظهر، بدأت التّحضيرات للمغادرة التي كان من المتوقع أن
تتم في الساعة الخامسة. اتجهنا شمالاً لمسافة ميلين مارّين عبر الغابات والحقول الزراعيّة
تاركين قرى كثيرة على يسارنا تحيط بها الأسوار. تقع دار قاسم، ودار الشّقة قرب الماء. ثم
انعطفنا نحو الجهة الشماليّة الشرقيّة عبر طريق معبّدة بالحجارة ثم عبر حوض وادي الرّملة،
وهو مسار جدول يجف عندما لا تهطل الأمطار، ودخلنا الصحراء مرة أخرى.

كانت الرّمال طرية بحيث تغوص قوائم الجمال فيها بما يقارب عشرين سنتيمتراً.
ولقد تعبت البهائم كثيراً من جرّاء ذلك. والبلد عرضة لسطو بدو الحواشب بفروعهم:
العلوي والفضلي والصّيحي*.

«لذلك انتبه» قالها مقبل، الذي كان بالإضافة إلى إخلاصه ووفائه كخادم، كثير
التّخوّف. «شوف الطّبنجك يا خواجة»⁽¹⁾ (حضّر المسدس يا سيد)، كان يحذّرني من

(1) يكتب المؤلّف العبارة بالعربيّة بحروف لانيّة:

“Sciüff et-tobùngiak, ja khavàgia”.

* هذه الفروع التي ذكرها المؤلّف لا تعتبر من قبيلة الحواشب بل قبائل مستقلة (المراجع).

وقت لآخر محاولاً إنقاذ نفسه وإنقاذي عن طريق إعلام الجميع أنني أمتلك مسدساً.

ليس من الصعب وجود أشخاص بيننا يلجؤون إلى الغناء للتغلب على العتمة وتشجيع أنفسهم على المضي في الظلام. أما مقبل فقد وجد طريقة أخرى يزرع بها العزيمة في نفسه وهي تخويفي، معتقداً بأنني مستعدّ لأي شيء. فما فتئ يكلمني عن عالم المجرمين واللصوص وعن الاعتداءات التي وقعت في نفس المكان الذي كنا نمرّ فيه. وكان الليل قد اقترب واحتمال تعرّضنا للاعتداء بات وشيكاً. كان يسير خلفي ويتمنى في قرارة نفسه ألا يصيبنا أيّ سوء بالطبع. ولقد أعلمني بأن العربي الذي يسرق يسمى لصاً أو سارقاً⁽¹⁾. وأما الحرامي فهي كلمة تطلق على الكفار فقط لأن الكلمة وضیعة جداً وهي أيضاً اسم مذهب وثني منحط يؤمن بالتقمص والفجور، لذلك مهما اقترب المسلم من جنحات يسمى سارقاً فحسب. ولقد أشار أيضاً إلى أن المكان يدعى سلاسة⁽²⁾ Salàssa وأنه مليء بقطاع الطرق. وكان المكان الذي نسير فيه يدعى سلاسة العبدلي Salàssa el-Àbduli.

توقفنا عند الساعة التاسعة مساءً في منتصف الصحراء لتستريح الجمال المتعبة. وسجّل البارومتر 752. كانت السماء مغطاة بالغيوم وهطلت بضع قطرات من المطر. إلا أننا أوقدنا النيران وشربنا القهوة ودخنا.

في الساعة الحادية عشرة اقتلعنا الخيام وغادرنا. سرنا في نفس الاتجاه الشمالي الشرقي عبر الرمال الطرية. وفي منتصف الليل نزلنا حوض وادي أو نهر منيف الذي امتلاً. كان ينبع من الجبل ويمر بجبل الشرار (الذي يقع باتجاه الشمس) وهو عبارة

(1) كتب المؤلف: من هنا المثل العربي الذي يقول: «من يسرق بيضة، يسرق جملاً».

(2) لم أتمكن من الجزم بقراءة الاسم، فهل يكون: ثلاثة؟ أم تدلّ s المزوجة على صاد بالعربية؟ الواقع أنّ نصوص الرّحّالين الطليان تبقى من أصعب النصوص عند استخراج مقابلات الأسماء بالعربية. لكنني لا أظنها «ثلاثة»، لأنه يتحدث في آخر الكتاب عن موضع معروف بقطاع الطرق ويسمّيه: «السلاسة الكبيرة»، ممّا يدلّ على أن العبارة تدلّ على مكان يكثر به التّهب، لكن هل تُكتب بالتين أم بالصّاد؟

* لعل صوابه الشّلة أو الإسلا وهو لغة: السرقة الخفية (المراجع).

عن تلال من الرمال. وهناك مقاطعة الراحة (الرحى تعني الطاحون)* ويتلقى على يساره وادي الرملة ثم يصب في الغيل⁽¹⁾. توقفنا نصف ساعة أخرى للاستراحة.

* * *

يوم الاثنين الرابع والعشرون من سبتمبر - لحقت بنا قافلة تتألف من ثمانين جملًا في وادي منيف، وكانت تأتي من عدن. كانت الجمال غير محملة في معظمها وجاءت تستعرض أمامنا ببطء وكأنها قطارٌ على سكة حديدية.

لم نعد الآن في سلطنة لحج أو في بلاد العبدلي. فقد كنا قد دخلنا بلاد الراحة، وهي مقاطعة تقع تحت سلطة علي بن مانع، أمير أو بالأحرى سلطان الحواشب.

استرحنا ثم عاودنا المسير في حوض وادي منيف الذي يتحول، كغيره، إلى طريق عندما لا تمطر. ولكن عندما يعود نهرًا، تنتقل الطريق إلى الجبال وهي شاقة وخطرة لانحدارها الشديد وهوائها العميقة. أصبحت الأرض صلبة في مناطق عدة، لذلك سارت الجمال والبغال والحمير يئسر. كان بإمكاننا السير ميلين ونصف في الساعة. خرجنا من التهر فوجدنا البلاد عارية إلا من بعض الأشجار التي قطعت رتابة الصحراء. وكانت التربة تتألف من الوحل الأصفر الصلب.

عبرنا حوالي الساعة الخامسة صباحاً وادي سيت (الماء الذي يندفع من فجوة) وهو تيار غزير ينبثق من جبل الضبيات (شكله على هيئة المقلاة) والثنام (الذي يفرق المياه) والمخادر (على هيئة الأسد) والسرادل (وهو مرتفع وضيق) ويصب في وادي صهيب القريب. ثم توقفنا مرة أخرى لأننا وصلنا المجابة أو حدود الراحة حيث يدفع فيها كل جمل خمسة وعشرين إلى ثلاثين سنتيماً حسب حمولته، وهي ضريبة المرور. وناشر، الذي كان قد دفع في الحوطة ضرائب العبور للجمال فقط، كان عليه أن يدفع عن البغل والحمار الذي كان يسوقه مُقَبَّل.

(1) الغيل مصطلح يمني محض، وكذلك يستعمل في عُمان، ومعناه: مجرى الماء دائم الجريان. * كذا في الأصل ولا علاقة لهذا الاسم بالرحى (المراجع).

بعد أن انتهينا من دفع ما توجب علينا - والجدير بالذكر أن البلدان تكثر وكذلك السلاطين!- تابعنا مسيرتنا تاركين على يسارنا قرية دار شيان (المستين⁽¹⁾). وعند بزوغ الفجر دخلنا وادي صهيب (النهر المتشكل من مياه الأمطار) قرب دار الهجر، وهي القرية الأولى التي بنيت فيها الأبنية من الحجارة المصقولة. كنا داخل الجبال في وادي صهيب. وعلى يسارنا ظهر جبل بوبياق Bubeiagh (جبل المزروعات)، وبدا داكناً وعارياً وقد تشكّل من الحمم. وعلى يميننا بدا جبل الحرامي Gibèl el-Haràmi (جبل الجُناة). وكل تلك الجبال قاحلة تتشابه مع جبال عدن البركانية، وحممها بنفس اللون وبنفس درجة الانحدار وترتب الطبقات.

في الساعة السادسة والرّبع، ليس بعيداً عن دار الهجر، ووادي صهيب وفي ظل صخور ضخمة، أسفل قرية العلوب (المدخل l'ingresso) توقفنا. وبدأنا نستمتع بالراحة في مخيمنا، وكان مخيم القافلة خفيفة الأحمال بالقرب منا.

في دفتر ملاحظاتي وجدت مكتوباً ما يلي: «يا إلهي، ما هذه الوجوه؟ ما هذا المزاج العكر الذي أصبت به. أمضيتُ النهار بأكمله في حالة من الحمى والوهن الشديد. حتى أن عليّاً والآخرين توقفوا وراءنا من شدة التعب والسير الطويل. ولم أتمكن من التّوم لشدة الإعياء والقلق وكابوس تلك الوجوه... طهوت قطعة من لحم الخروف لآكله. ومع أنني طبّاخ ماهر، فلم أطهه بشكل جيد».

ربما لم أبالغ عندما كتبتُ تلك السطور، فلقد كان أولئك الرّجال دميمين حقاً. إلا أنني وجدت الوقت الكافي لمعرفةهم ومحبتهم. وكانوا من قعطبة، وسكان تلك المنطقة وضواحيها تعوزهم الملاحه. لقد رأيت في اليَمَن رجالاً ونساء في منتهى الدّمامة وإلى جانبهم قبائل عربية في منتهى الجمال هم ونسائهم. تبقى تلك الاختلافات خالدة، ذلك أن الزّيجات لا تتم إلا من نفس القبيلة. والعرب يسمّون الأولى القبيلي والثانية البدو، وكلهم يقطنون الجبل.

(1) هذا خطأ مضحك من المؤلف، فشيان ليست صيغة جمع للأشيب، بل هي أسرة عربية عريقة معروفة: «بنو شيان».

في الساعة الثانية والتّصف أخطرت الجميع بالمغادرة، فبدؤوا بتحضير أنفسهم وكانوا على أهبة الاستعداد. وعندما وجدت ناشراً، لم يكن قد أعدّ جمالي بعد وكان مقبل ينام ملء جفنيه. لم يرغب ناشر بالمغادرة مع الآخرين، لذلك بدأ بتبادل الشّتائم مع قافلتنا وقافلة الثّمانين جملاً. ولم يقطع الشّجار إلا صوت اسكتوا⁽¹⁾ "Eskattu" الذي أطلقته. ثم سألت ناشراً عن سبب كل تلك الغوغاء فأجابني بأنه أخذ أوامر من قنصلنا في عدن بأخذ الحذر وعدم مرافقة القوافل الأخرى دون أخذ الاحتياط.

انطلقنا في الساعة الرّابعة والتّصف وتابعنا سيرنا في نهر صهيب ووصلنا السّودة، بعد ساعة (تطل على الوادي) وهي مقر سلطنة العلوي.

على قمة تلة تنفصل عن جبل بويياق وشكلها مخروطي، يوجد منزل لا يميّزه شيء سوى موقعه الذي يجعل منه حصناً. في أسفل التّلة باتجاه النّهر كانت هناك قرية السّودة حيث قصر السّلطان. أشار رفاقي إليه وحاولت أن أميّزه عن البيوت الأخرى إلا أنه كان يقع بين كومة من البيوت المتشابهة فلم أتمكن من رؤيته. ولكنني تمكنت من التّكلم مع السّلطان مسبباً له بعض الخوف. وهذا ما حصل: لقد انضم إلينا علي وأحمد ومحمّد وكنت سعيداً بلقائي بالأصدقاء، فمشيت معهم وابتعدت عن السّودة. أما مقبل، فبسبب رداءة حماره كان يسير رويداً وتخلف عنا. وفي سيره التقى بالسّلطان العائد من الحقول. وعندما رأى هذا الأخير عربياً أنيق الملبس يركب حماراً لا يستطيع الرّكض لأنه محمّل بأشياء نفيسة، هي سجّادي، طلب منه التّوقف ولم يدعه إلا بعد أن دفع ثلاثة ريالات (حوالي خمس عشرة ليرة). وكان ناشر كعادته قد دفع ضرائب السّودة.

كان مُقبّل قد خاف من السّلطان قائلاً بأنه في خدمة أفندي Effendi (كلمة تركية تعني السّيد) وأما السّلطان، وبالرغم من الحماية الإنكليزية، فقد رفع كتفيه ودفع مُقبّل المبلغ لئلا يرسل في طلبي طالباً منّي الرّجوع.

رجعت راکضاً على ظهر حصاني وقدّمتُ نفسي للسّلطان الذي حالما رأى خوذتي

(1) يكتبها الكاتب باللغة العربية بحرف لاتيني.

البيضاء بدلاً من الطربوش التركي أصابه الارتباك ظناً منه بأنني إنكليزي، فوقف وطلب المَعذرة. انتهزتُ فرصة خوفه وأعطيتُ نفسي شأناً - في بعض الأحيان يتطلب الأمر ذلك - وأمرت مَقْبِلاً بالمغادرة وتوجَّهت إلى السُّلطان ماذا يدي لمصافحته، فقَبَّلها المسكين عربون السَّلام والاعتذار. ثم انضممت إلى الآخرين تاركاً السُّلطان الذي سرَّ لأنني لم أؤنبه.

وأثناء ذلك كان الظلام قد خيَّم وكنا ندخل حردبة التي يسمونها في عَدَن وكر قَطَّاع الطُّرق (السَّلاسة Salassa الكبيرة) وهي مقاطعة سلطان آخر هو أمير الضَّالْع.

دخلنا أدغالاً كثيفة، وكان الظلام شديداً منعنا من تبيّن أي شيء. لم نستطع رؤية ما حولنا وكانت أذاننا تصيخ السَّمع والهدوء يخيّم على المكان. طلب مني مَقْبِل الذي كان بالقرب مني أن أهَيِّ المسدس، ودخلنا الهويني. وفجأة سمعنا صوت طلقة نارية.. ونزل مَقْبِل من على حماره ملتجئاً إلَيَّ.. وبعد لحظة أخرى طلقة ثانية على مقربة منا.. «ضعنا يا ربي.. ويش باد». ويش هاد! (يا إلهي ما هذا).. «يا خواجة.. الغيث الغيث» (يا سيدي العون العون).

كان ناشر هو الذي أطلق النَّار محيياً القوافل التي كانت تخيّم! وردّت بالطَّبع التَّحيّة. وفوق الجبال كان القمر رائعاً ألقى بضوئه على مَقْبِل والقافلة وعليّ أيضاً. وبعد فترة قصيرة وجدنا القافلة الخفيفة التي كانت قد أضرمت النَّار منذ فترة طويلة.

في السَّاعة السَّابعة والتَّصف توقفنا في مكان رحب ونصبنا خيامنا. أضرمنا النَّار وتناولنا طعام العشاء. كنت أثق بالعرب معي، والحقيقة أنني كنت تعباً جداً (لم أغمض عيني منذ ست وثلاثين ساعة، منها ست وعشرون على ظهر بغلي) لذلك كنت أرغب بالنَّوم. ولقد طلبت من الآخرين تشديد الحراسة ومن مَقْبِل إعداد القهوة ونمت نوماً عميقاً ولم أفق إلا في السَّاعة الثَّانية بعد منتصف الليل.

لا تظنوا بأنني أريد أن أصف نفسي بالشَّجاع. أريد فقط أن أنقل الحقيقة. ففي تلك الليلة كنت سأنام واقفاً.

غادرنا المكان يوم الثلاثاء في الساعة الثانية صباحاً متجهين إلى الجهة الشمالية الشرقية. عبرنا وادي حردبة وسرنا نحو وادي جافلة (الذي يجري بسرعة مشكلاً زَبْدًا) وهو استمرار لوادي الخريبة (النهر الكبير) الذي اتجهنا نحوه.

لقد صادفتُ قطاع الطرق مرتين أثناء سفري. وكانوا من البدو. كانوا في المرة الأولى بعيدين وعددهم حوالي العشرين. وكانوا يُعرفون من بنادقهم اللماعة، ذلك أنهم يتركون الفتل مشتعلًا. وفي المرة الثانية كانوا أقل عددًا ومَرَّوا بالقرب منا، وصاح ناشر: «يا خواجة، شوف الحرامي». كنت واثقاً بأن أولئك البدو لن يصيبونا بأذى. وفي الواقع قالوا لي دون أن يفعلوا: «السَّلام عليكم»، فأجبتهُم: «وعليكم السَّلام ورحمة الله وبركاته»⁽¹⁾.

إن توصيات قنصلنا الممتاز الفارس جوزييه بيننفلد رولف لا تُشْرِى حتى بالذهب. فلقد عرفت لاحقاً في الجليلة من حُبِيش صالح الذي كان لديه رسائل توصية أنه قد تكلم شخصياً مع علي مقبل، أمير الضالِج ومع عامر البيشي⁽²⁾ Àmer el-Bèsci شيخ الخريبة قائلاً بأنني أخو رولف أو «ألف» Alf كما يسمونه، وأنه أرسلني إلى صنعاء بغرض التجارة. إن قنصلنا في عَدَن معروف ومحترم جداً من قبل عرب اليَمَن جميعاً. ولا يتجرأ أحد أن يمسّ قبعة من يدخل في حمايته بأذى. وفي الواقع، فإن نجاح مهمتي في اليَمَن يعود بالدرجة الأولى إلى حماية وصداقة السيد المحترم بيننفلد رولف.

عند الصُّباح تركنا سهول حردبة، وانطلقنا نحو حوض وادي الجافلة، ومجبة أمير الضالِج، وشيخ الخريبة. وهنا أيضاً دفع ناشر ضرائب العبور.

بإمكان كل تلك الوديان أن تكون ملجأً مناسباً للبدو من قطاع الطرق، ولكن الأمر

(1) يكتبها الكاتب باللغة العربية بحرف لاتيني:

Alikum es-salàm u rahamet' Allàh u berkàtu.

(2) هكذا تبيّنت لي قراءة اسم شيخ الخريبة، كما يكتبه المؤلف بالإيطالية: el-Bèsci والمؤسف أنه لا ذكر له على الشبكة العنكبوتية. أم هل هو: البشير، البشر؟

الغريب هو أنهم لا يتوقفون في مكان. والسبب في ذلك ولا يمكن لأحد أن يتخيله هو أن الجبال الأولى من سلسلة التردل التي تشكل يسار الوادي مليئة بالرياح أي القردة التي تنزل ليلاً في جماعات كبيرة. ومع أن البدو مسلّحون بالبنادق، فلا يستطيعون التصدّي لتلك الحيوانات المفترسة. لذلك يتعدون عنها. وعندما قال لي ناشر ذلك أطلقت عدّة رصاصات فوجدت أعداداً منها تفرّ إلى قمة الجبل.

بعد المجياة بقليل وبسبب المسافة الطويلة التي تفصلنا عن الجلييلة، تركت الجمال مع ناشر بنصيحة منه وذهبت أنا ومقبل وعلي وأحمد ومحمد نهرول بشكل سريع حتى دخلنا حوض الخريبة، وكانت الشمس تشع في السماء. كان وادي دار شيبان والخريبة حافلاً بالخضرة وضاف الوادي كثيفة الأشجار، والأراضي الكثيرة قد زُرعت بالذرة والسميد والنخالة والحمص والشوفان. وأما وادي الخريبة فكان خصباً. وأخيراً انقطع تواجد أشجار الميموزا البشعة خالية الأوراق، ذات الأشواك البيضاء والأغصان المنحنية نحو الجذع حتى تبدو وكأنها مظلات ضخمة.

هنا وجدت من الأشجار والشجيرات والعشب، كما دوّنت في دفثري: الغلاق *Euphorbia antiquorum* والقريش *E articulate minor* والطوبشو *Ricinus communis* والبرسوم *Acalypha fruticosa* والدفران *A. ciliata* والثباب *Croton lobatum e villosum* والحمضة *Jatropha pungens* والرديف *Capparis oblongifolia* والبقيّل *Subularia purpurea* والفصة *Bunias orientalis* والأدعين *Nerium obesum* والقشيب *Asclepias nivea* ودرعاف الكلبة *Stapelia variegata* والجدمال *S. dentata* والبنج *Datura metel* والبرد *Phisalis somnifera* والسرّة *Cadaba farinosa* والديجر *Digera arvensis* وعين البافر *Solanum incanum* والبيكمام *S. coagulans* والبنكّم *S. armatum* والمسلحة *S. nigrum* والرّن *Sida cordifolia* والعيّدة *Hibiscus flavor-ferrugineus* والقُلُقُل الرائعة *Cassia tora* والشّونا *C. lanceolata* والسُنْفَعَة *C. fistula* والخانّس *Ficus sicomorus* والطّوقة *F. morifolia e palmata* والبلاس *F. vasta* والطلاق *F. Sur* والسرور *F. toka*.

وكان المداح *Ficus religiosa* يكثر أيضاً والخامة *Eucalyptus* الكبيرة والكثيفة والحلبة *una Lauwsonia* والطرفاء *Tamarix àtel*.

ولقد رأيت كذلك من الطيور عدداً كبيراً: الحمامة واليمامة والشحرور والحسون والغراب والصقر والتسر.

وعلى قمة جبل الضبيات⁽¹⁾ الذي انفصل عن السردل (العالي والضيق) شاهدتُ قبة سيدي الحسن (سيد المغرب والجزائر وتونس) وهو قدّيس أو ولي من الأولياء كما قال لي عرب اليمَن. والجدير بالقول إنني لم أشاهد إلا القليل من تلك الصُروح حتى في صنعاء. وهناك فرق واختلاف كبير بين هذا البلد والمغرب أو الجزائر الذي يربو فيه عدد الأولياء الصالحين على عدد السكان. وتنتشر القباب هناك في كل مكان وعددها أكثر من منازل الفلاحين.

والخريبة (النهر الجامح) هو أحد الأنهر العادية ويعطي اسمه لكل البلاد التي يمرّ بها. وهذه المنطقة هي بلد قائم بذاته ويقع تحت سلطة عامر البيشي الذي يسكن قمة الجبل ويطلّ داره على الضفة الغربية للنهر.

كنا في عجلة من أمرنا، لذلك منعنا عدونا السريع من التوقف لتحية عامر البيشي الذي أصبح فيما بعد وفي أسفاري التالية من أعز أصدقائي.

بعد الوادي يبدأ النهر بالتقلص. وفي منتصف النهار وصلنا أسفل جبل الخريبة الذي كان يتوجب علينا عبوره. ولقد سجّل البارومتر 658 والترمومتر 23 و 3/4. وبعد نصف ساعة كنا على قمة المعبر وسجّل البارومتر 643 والترمومتر 19 و 3/4. لذلك فارتفاع المعبر كان 230 متراً وحوالي 1390 متراً عن سطح البحر، بما أن تلك الأخيرة كانت على ارتفاع 1160 متراً.

بعد ارتفاع التقيّل، بدت أمام عيني سهول شاسعة (بلد الشاعري المغطى بالمزروعات) المحاط بجبال عالية كلها مزروعة. وهنا ظهر الجبل الأول في اليمَن.

(1) يكتبها المؤلف بالغلط: الطبيات كما أوضحنا أعلاه.

في السّاعة الثّانية بعد الظّهر وصلنا بلد الجليّة (بلد الجلاّلي El Gelali الذي يعني الكبير والشّهير). في منزل حُييش صالح الذي كان يتظرني منذ أيام عديدة، وبعد مصافحتي بحرارة، أراني صناديقي التي كانت في حالة جيّدة ومنظمة. ثم استضافني في بيته.

* * *

الفصل الخامس

الفصل الخامس

الجليلة - عُوبَش صالح Obèsc' Sàleh وعائلته - قوافل من عَدَن إلى صنعاء - أُجبرت أن أتحوّل إلى طبيب ونجحت - الأمراض المنتشرة - صيد - القبيلي - طباعهم - علومهم وزيهم وعاداتهم - نساء القبيلي - غنج النساء - هاجس النساء في إثارة إعجاب الرجال - الزواج - هو عقد بسيط - كيف بكيّت - احتفال - لحظة حرجة - الأبناء - الختان - رحلة إلى قَعْبَة - زيارة إلى القائمقام مصطفى بك - ليلة رهيبة - الرجوع إلى الجليلة - البئر والنساء - فيما يتعلق بمُقبِل - (النيلة) الأزرق.

كان استقبال عُوبَش كما أسلفت في منتهى الحرارة، إذ سرعان ما أدخلنا غرفة الضيوف (الديوان) حيث أحضر القهوة والمداعة، إلا أنه لم ينضمّ إلينا لأن الوقت كان رمضان. هو ابن صالح ويدعى ببساطة عُوبَش صالح، وهو شيخ أو رئيس الجليلة، وهي القرية الأولى الجديرة بالأهمية والمأهولة في الحوطة. والجليلة، الذي يلفظه القبيلي: الجليلة⁽¹⁾ كان قبل عام 1870 لعامر البيشي حاكم الخريبة. وفي تلك الفترة سيطر العثمانيون على بلد الشاعري فأصبحت الجليلة بلداً على الحياد يقع بين البلدان الخاضعة للترك وتلك المستقلة التابعة لحكومة عَدَن.

لذلك فقد نُصِّب عُوبَش في هذا المكان كأمر صغير.

تقع الجليلة على تلة ترتفع مئة متر عن سطح البحر. وداره عالٍ يحتوي على أربعة

(1) أي بالجييم اللهوية G كما تلفظ بمصر، ويعادلها في أسلوب التهجئة التي نتبعها في هذه السلسلة حرف: غ.

طوابق مبنية بشكل جيد من الحجارة المصقولة دون أي تزيين. والغرف واسعة ومطلية. أما السقف فهو من الخشب الطبيعي وقد طلي كل شيء بالكلس. كما أن هناك نوافذ صغيرة كثيرة تدخل إلى الغرف نوراً جميلاً. وفُرشت الأرض بالحصر أو بسجاد من الصوف الأسود. والنظافة تعم المكان.

وفي الجليلية مسجد صغير هو البناء الوحيد الذي طلي من الخارج أيضاً وكُرس لسيدي الجلال الذي يعطي اسمه للقرية.

ومن شرفة عوبش تمتعت بمنظر خلّاب. فمن الشمال إلى الشرق تمتد سهول الشاعري الخصبة وتحيط بها من الخلف تلال منخفضة ترتفع تدريجياً لتشكل سلسلة بلاد الشعيب (السوقية).

وإلى الشرق تمتد سلسلة حرير (بلاد تجار الحرير) وجد* الشاعري، أي قمة الشاعري.

وإلى الجنوب بالقرب من جبال الروس (الجزّارون)، والساكن (المسكن الهاديء) والحدود، وسميت كذلك لأنها تشبه سنام الجمل.

وإلى الغرب برز جبل جحاف عالياً (جبل السيول) وإلى الجهة الشمالية الغربية قطع جبل مُريس زرقة الأفق (حيث تركد المياه) وجبل الهقم (الجبل العالي).

والجليلية هي النقطة الحيادية التي تتوقف عندها القوافل المحملة المسافرين نحو اليمّن، أو منه ترجع باتجاه عدن.

وعوبش صالح عربي أصيل (قبيلي) وشخص ظريف، مربوع القامة ولكن جسده متناسق، وهو شخص صريح وصادق وكان مضيفاً معي وصديقاً ممتازاً. أعطاني غرفة صغيرة نظيفة في بيته أستطيع ترتيب أغراضي فيها وخاصة عدّة تسجيل الملاحظات، وكان يبعث إلي وإلى مقبل بالخبز والعسل في الصباح، وحساء ولحماً في المساء، والقهوة

* كذا في الأصل ولعل صوابه: حَيّد الشاعري (المراجع).

ثلاث أو أربع مرات في اليوم. كما أعارني مداعته وأهدى إليّ تبغاً. ولم يكن يقبل أية هدية بالمقابل بل على العكس كان يسهر على تلبية رغباتي كلها، وكان يأتي من وقت لآخر يسألني إن كنت محتاجاً لأي شيء. ولقد كان البغل والحمار عنده في عناية تامة.

بالإضافة إلى كونه شيخ الجليلة، وهو منصب يدرّ عليه ثلاثة آلاف ليرة في السنة، كان عوبش صالح أيضاً الوكيل المعتمد لجميع القوافل المسافرة بين عدن وصنعاء ذهاباً وإياباً. لديه أربع إخوة، سعيد وأحمد وثابت وناشر، وكلهم متزوجون. يمضي ناشر أغلب الوقت في عدن حيث يمثل أخاه ويمكث أحمد في السدة. أما سعيد الأكبر سنّاً فهو مزارع فقط. وأما ثابت فهو رجل أنيق وزوجته جميلة وهو ملازم في الحرس الجمركي التركي.

ينبغي لكل من يذهب من عدن إلى صنعاء أن يتفق في عدن مع الأخ ناشر أو مساعديه عندما لا يكون موجوداً، وذلك للحصول على العدد الكافي من الجمال حتى صنعاء. وفي عدن تُدفع أجرة الثقل الكاملة حتى عاصمة اليمّن، ذلك أن الثمن المدفوع لا يُحسب بعدد الجمال ولكن بوزن البضاعة. وهذا عدل.

وفي الواقع ففي اليمّن أيضاً لا تستطيع جمال الصحراء عبور الجبال، وجمال الجبال لا تستطيع المشي على الرمال. والجمال الموجودة في عدن وحتى الجليلة هي أقوى من جمال الجبال، وبما أن الطّرق أفضل وأسهل فهي تستطيع حمل أثقال أكبر.

الجمال على الخط الآخر من الجليلة إلى السدة أقلّ قوة ولديها جبل صعب العبور ولذلك، لنفس كتلة الحمولة، هناك حاجة إلى عدد أكبر من الجمال. والشّيء نفسه ينطبق على الخط الأخير بين السدة وصنعاء.

* * *

يوم الأربعاء السادس والعشرون، وضعت أريكة وأغطية في غرفتي الصغيرة هي سريري الجديد. لقد كان تعب السفر والاطمئنان إلى وجود سرير يجعلني أمضي ليلة هادئة مريحة، وفي الصباح كنت على أهبة الاستعداد.

جاءني عُوبش في الصباح الباكر مع والده صالح ومع مقبل وعقدنا اجتماعاً جدياً. كنت قد أرسلت متاعي وصناديقي إلى الجليلة كما قلت سابقاً خوفاً من السرقة على طول طريق حردبة ولم أبقِ معي إلا القليل من المال بما يسد حاجة السفر. وكان معي رسائل اعتماد إلى منزل الحاج حسين الرّحبي في صنعاء. لذلك كنت لا أملك في الجليلة إلا القليل من المال، والشّيء الذي كنت أجهله هو أنه بالقرب من قَعطبة كانت توجد الحدود أو الجمارك التركية. وهناك كان علي دفع الكثير من المال لتمرير حمولتي.

سلّمت أمري بالكامل إلى حكمة وتجربة عُوبش الذي استعدّ للذهاب إلى قَعطبة وسؤال القائمقام (الحاكم) لإعفائي من الرّسوم الجمركية كوني أوروبياً. وفي تلك الحالة أستطيع الذهاب مباشرة إلى صنعاء. وإذا لم يُسمح لي أمكث في الجليلة حتى يتمكن رجل أبعثه إلى قنصلنا السيد رولف يعود بمال أو برسالة توصية من حسن علي بك، القنصل التركي في عدن.

اتفقنا على أن يذهب عُوبش في اليوم التّالي، ذلك أن عليه أن يقضي بعض الأشغال في هذا اليوم. وفي الوقت نفسه كان صالح، الرّجل الطّيب المسنّ يوتّخ الجميع ويصيح بهم حتى ينفذوا كل ما يطلبه. وفي ذلك اليوم قال لي بأنه يتعجب من كوني رجلاً طيباً وذا سلوك جيد (على الأقل كان هذا هو رأيه) دون أن أكون مسلماً. «أسلّم لنتقي في الجنّة»، كان يكرّر علي ذلك باستمرار.

بعد هذا الاجتماع الهام، جاءتني زوجة عُوبش ومعها ابنها قاسم الصّغير وكان يشكو من الإسهال وقلة الشّهية فأعطيته تحت نترات البزموت Sottonitrato di bismuto الذي أحدث أعجوبة. فلقد توقف الإسهال عند الصّبي وطلب الأكل في

التَّهَار نفسه. لذلك أصبحت طبيباً شهيراً وانتشر الخبر في الجليلة فجاءتني النسوة والبنات والرَّجال من المنازل لاستشارتي.

في البلاد الإسلامية يعتقدون بأنَّ الأوروبي إذا كان يعرف القراءة والكتابة يعرف كل شيء، ولكن العربي البسيط يعتقد بأن كل شيء موجود في كتاب واحد إذا قرأه عرف عن كل الأمور. لذلك كنتُ بالنسبة إليهم أيضاً طبيباً أعرف فن الطب. وللأسف، فالاعتقاد السائد بين تلك الشُّعوب هو أنه إذا رفض الأوروبيون أمثالي، الذين لا يمتنعون الطب ويمتنعون بضمير حيّ يمنعهم من الاحتيال، فهم يُعدُّون ناكرين الجميل الذي قدَّم إليهم ويقابلون الخير بالامتناع عن المساعدة. لذلك، حبّاً للفضائل وكوني مُجبراً، تركتهم على اعتقادهم.

لم يكن معي عقاقير ولا كتب الطب العائلي ولا تجربة من أي نوع. وعندما كان البعض يسألونني كنتُ أعطيهم ماء محلّى بالسكر أضع فيه الصَّبْر aloè أو محلول الأفيون laudano أو البوصير (آذان الدُّب) aconito حسب الحالات، وفي أحيان بعض الكونياك. وفي نظر المرضى، فإن الحصول على علاج من أوروبي متعلِّم كان له تأثير كبير على حالتهم النفسية. حتى أن جسدَهم كان يشفى. لذلك كان هناك أشخاص يأتون مراراً يشكرونني لأنَّ صحتهم تحسَّنت أخيراً. والحقيقة أنه من خلال سفري المستمرَّ ولجؤي إلى التَّطبيب ورجوعي إلى بعض الكتب فقد غدوتُ شيئاً فشيئاً أَلَم بمبادئ الطب المتجول.

والأمراض التي كان عليّ معالجتها في الجليلة هي الدِّيزنطريا⁽¹⁾ والحمى والسَّعال والرَّشح ومشاكل الهضم. وأعطيت بنتاً كانت أعضاؤها متصلبة ومتضخمة مرهماً يحتوي على (الزَّبُق) تدهنه مع الزَّبد على جسدها.

بعد منتصف النَّهار أغلقت دكان الطَّبابة وأرجأت زيارة المرضى إلى اليوم التَّالي. ومع بندقيتي على كتفي وبصحبة أربعة أو خمسة من الرِّجال خرجت للصَّيد. اصطدت

(1) كتب المؤلف: في العربية تسمى الدِّيزنترىا، إسهال الدَّم. والتهاب القولون، القولنج وهناك الحمى والسَّعلة والكَّحة.

العديد من الحمام (الجولة⁽¹⁾ el-Giòlaba) والحساسين، وكان العرب يحضرونها إليّ متعجبين من مهارتي في إصابة الهدف. وفي هذا اليوم أعلنتني القبيلي ليس فقط طبيباً (حكيماً) وإنما صياداً ماهراً أيضاً.

الواقع أنك تحتاج إلى القليل فقط لتحصل على الشهرة الكبيرة وسط أناس طبيين ولكنهم بسطاء.

في اليمَن يسمى المزارع قبيلي وفي مصر فلاح. ويشكل القبيلي القسم الأعظم من الشعب اليمَني. وهم يقطنون القرى في بيوت حجرية. ويتصفون بالذكاء، يفهمون الكثير ويتذكرون كل ما سمعوه أو شاهدوه. إلا أنهم بسبب إهمالهم وإيمانهم بالقدر لا يبذلون جهداً في التفكير والتَمَعّن بالأشياء. وبمجرد أن يتخيّلوا شيئاً معيناً يظهرون منتهى التقدير والتَحَقُّز. وإذا شجعتهم يستطيعون فعل الكثير.

وهم يتأقلمون مع أنواع العمل: فهم مزارعون وجمّالون وحدّادون ونجارون ومعماريون ونسّاجون وصبّاغون وبائعو فحم وتجار.

والقبيلي في صغره كثير الحيوية ويتمتع بالظرف والحبور. وعندما يصبح بالغاً يتحول إلى رجل بارد وجدّي، وهي طباع المسلمين جميعاً. وبلا شك فإن دينه هو الذي يفرض عليه هذا التّغيير.

يُظهر القبيلي حتى بأسماله البالية نبلاً وترفعاً، ويقف منتصباً ويسرع في مشيته وحركاته كثيرة الرّجولة. أما نظرتة فجديّة ووجهه ينمّ عن التّصميم ولا يهتز لشيء ولا تخونه انطباعاته الداخليّة التي يشعر بها. وبشكل عام، فكلّامه قليل وينمّ عن تفكير ملي. وصوته قوي وحادّ ونبرته عالية جداً، حتى أنك تظنّ بأنه يتشاجر بينما هو في الحقيقة يتحدّث.

(1) الجولة: نوع من القماري والحمام المطوق، والفرق هو أن طوق القمري أعلى عنقه وطوق الجولة تحت عنقه. وقد يطلق عليها البعض اسم: حمامة النخيل. وهي صنف حمام مستوطن، تعيش قرب المنازل وفي الاراضي الزراعية والجبال.

شعره طويل ينسدل على كتفيه ويغطي رأسه بعمامة زرقاء داكنة اللون، يحيطها بجدلة حمراء وصفراء هي جدلة أو فتيل البندقية. يلبس الملابس القطنية البيضاء التي يحزمها من الخصر. ويلقي على كتفه بقماش قطني أزرق. هذا اللون هو النيلة الذي تُصنع به الأقمشة. وهو غير ثابت، فجلد القبيلي ملطخ دائماً بالأزرق الذي يبدو، مع لون بشرته البني المحمر، وكأنه من الحديد. ويلبس أيضاً البالطو (الجبة) وهي عبارة عن قميص كبير دون أكمام مصنوع من جلد الخروف الذي يُجعل فيه الصوف إلى الداخل. ولا تُستعمل الأزارار في هذا البلد، لذلك تُترك الجبة مفتوحة من الأمام. ولا يلبس السروال ولا الجراب. ويتعل الصندل الذي يشبه ذلك الذي يستخدمه البدو.

والقبيلي كالبدوي رجل متقشف يقيم وزناً للخبز الذي يأكله. فهو سبب وجود الإنسان ويُعتبر الغذاء الرئيسي حتى أنهم يطلقون عليه اسم العيش ومعناه الحياة. لذلك فلا تضيّع منه حتى كسرة واحدة. وإذا رأى قطعة في الطريق أخذها بعناية وقبلها ثلاث مرات شاكرًا الربّ واضعاً إياها في مكان لا يمكن لأحد أن يدوسها بل ربما كانت طعام كلب جائع.

والضيافة العربية مشهورة جداً ويحثّ عليها الدين الإسلامي. فالزكاة واجبة على المؤمنين. والضيافة هي من الفضائل. لذلك فالمسافرون مهما كان دينهم يُستقبلون بطريقة ممتازة ويُرحّب بهم.

وإذا كان الجهل يسود في تلك البلاد، يخطئ من يعتقد بأن السبب هو الدين الإسلامي. فهناك نصوص كثيرة في القرآن تحثّ على العلم وتوصي بالثقافة⁽¹⁾. والكل يعلم ما ترك خلفاء بغداد والحضارة الإسلامية في إسبانيا من منجزات. إن سبب جهل العرب يعود إلى نفس جهل الفلاحين في جنوب إيطاليا وإسبانيا وبلاد الإغريق وبلدان أخرى، ولا يتجزأ أحد على القول بأن السبب هو الديانة المسيحية.

يستيقظ القبيلي ككل العرب في ساعة مبكرة من الصّباح لأن من واجب كلّ مسلم

(1) صدق المؤلف، ومن الجميل اتّباعه هنا للإنصاف والاعتراف بفضل الإسلام في حضارة البشرية، وحضّه على فضائل الأخلاق وعلى العلم.

أن يصلي صلاة الفجر قبل طلوع الشمس. وبعد شرب الكثير من القهوة والتدخين، يخرج كل واحد لممارسة عمله. وفي الظهر يستريح ويسمى عندهم الكيف، وفي المساء يتعشى. والمزارعون من القبائل الذين يخرجون صباحاً إلى الحقول لا يرجعون إلا في المساء. أما نساء العائلة فتحضر لهم الطعام في الحقول.

تمتّع نساء القبيلي بالحرية التامة ولا تضع الخمار. وبشكل عام يتزوج الرجل من امرأة واحدة. وهناك حالات نادرة يتزوج فيها القبيلي من اثنتين أو أكثر، عندما يكون ميسوراً وتستقر كل زوجة في بيت.

وهن متوسطات الطول ويتميزن بالأناقة وتناسب الشكل⁽¹⁾ ويتمتعن بنفس قوة الرجل الجسدية. يتقاسمن معه العمل والمشاق وفي بعض الأحيان يفقنه حيوية. وعمودهن الفقري يتقوس إلى الخلف وأعضاؤهن متناسقة ومنتظمة ومستديرة. وأيديهن وأرجلهن صغيرة وممتلئة. وعيونهن سوداء عميقة ذات أهداب طويلة سوداء. ونظرتهم جذابة وكلها حيوية حتى أن الكثير من نساؤنا ممن كتبت عنهن الصحف تشيد بجمالهن وكأنهن آلهة ترتفع على عرش الأوليمبو، حتى أن نساء روما أيضاً لهن كل مبررات الغيرة منهن. وإضافة إلى ذلك، فأنفهن صغير وطويل وشفاههن ممتلئة وأسنانهن ناصعة البياض وهي تتضارب مع لون بشرتهن البني. أما صدورهن الممتلئة فمتناسقة ولا تتنازل كما تتنازل الأوروبيات في فن الجذب الرخيص. فطريقتهن أنيقة وواثقة. وصوتهن العذب يدخل القلب دون استئذان مع تعبيراتهن المحببة ولطفهن. وعندما يتكلمن مع الحبيب يتوجّهن بعبارة: يا عيني، يا قلبي، يا روحي. ويسمّين سيداً أو أخاً.

وتهتم المرأة القبيلية بمظهرها جداً، فهي تحب أن يُعجب بها خاصة الغرباء. لذلك تلجأ إلى أساليب عدة. مثلاً تحيط العين باللون الأسود من مسحوق يسمى الكحل يوضع في كيس من الجلد أو قوارير من الفضة وقلم من الفضة أيضاً. وتضع الكحل

(1) كتب المؤلف: أتكلم عن نساء القبيلي في الجلييلة والخربة والضالع، وبلاد أخرى، وهن جميلات.

على رموشها أيضاً.

قلتُ مرةً لمقبل عن زوجة ثابت بالعربية: «قدما شوف فيها وهي تحلى في قلبي»⁽¹⁾.
أهديتُ لها عوداً من الحبر الصّيني استعملته بذوق جميل فصبغت رموشها ووضعت
نقاطاً سوداء على خدّها وذقنها كشامات.

وتضع بعض النساء الشّامات على العنق والصّدر من الكحل، وتطلي الأظافر
وراحة اليد والأصابع والقدم بالكحل أو بالحناء الحمراء lausonia inermis. تلك
الأوراق، بعد أن تجفّف وتطحن لتتحول إلى مسحوق، تمدّد بالماء وتحولها نساء
القبيلي إلى عجينة تدهن بها جلدها في المساء بفن كبير. وتبقى آثارها في الصّباح
واضحة وأنيقة. وتضع حول الرّقبة عجينة الدّقيق لكي تنمو بشكل أكبر، وتزيّن الدّقن
والأذرع والأيدي والأرجل والأقدام والصّدر بالوشم.

أما لباسهنّ فيشبه لباس البدويات، إلا أنّهنّ يلبسن سروالاً ضيقاً ينزل حتى القدمين
مصنوعاً من القطن الأزرق وحافته مطرزة بالأحمر أو بالأصفر والأخضر.

تصل النّساء في اليَمَن إلى سن البلوغ في سن العاشرة أو الحادية عشرة. وفي الكثير
من الأحيان يلدن اثنتي عشرة مرة ويصبحن جدّات في سن الخامسة والعشرين وأم
الجدّة في سن الثّمانية والثلاثين، وجدّة الجدّة في الخمسين. وليس من النّادر أن
تلتقي بنساء حولهن أحفاد من الجيل الخامس. ويسرع سنهن المبكر في شيخوختهن.
وبشكل عام، فالخصوبة كبيرة والعقم في اليَمَن غير مستحبّ وكذلك الشّخص العقيم.
فتلجأ النّساء عندئذٍ إلى الخرافات ليصبحن أمهات.

(1) يقولها الكاتب بالعربية:

Qad ma nasciuf fiha, u hia tahala fi ghelbi.

ويترجم معناها بالإيطالية حرفياً:

“Più io vedo in lei, più essa entra dolcemente nel mio cuore.”

بينما يكون المعنى باللغة الإيطالية السليمة:

“Più io la vedo e più essa mi piace.”

لا تتلقى النساء تعليماً مدرسياً، ولم ألتق في اليمن بامرأة تعرف القراءة أو الكتابة. والواقع أن الإسلام قد حرّم الزنا أيضاً كما حرّمه المسيح والنبي موسى، ومع ذلك فلا يعني هذا أن كل امرأة لها نقاء الزّنبقة، لكنهنّ يعرفن كيف يراعين الأصول.

ومع أن الشريعة الإسلامية تحلل للرجل الزواج من أربع نساء، أي تبيح تعدد الزوجات⁽¹⁾، وجدنا كيف أن البدو أو القبيلي يكتفون بامرأة واحدة. ويعتبر الزواج واجباً وفضيلة لا يمكنك تجاهله. وعلى كل رجل أن يتزوج عندما يبلغ السن المناسبة ما بين الثالثة عشرة إلى الخامسة عشرة. لقد ترسّخ هذا الاعتقاد في عاداتهم حتى أنك لا ترى أحداً إلا ولديه نساء وإلا فيتوجب عليه العيش في سَمْسرة⁽²⁾ samsare.

وعند الأهل رغبة في إنجاب النسل لهم ولأولادهم، لذلك يحرصون على تزويجهم بسرعة وفي سن صغيرة.

عندما يطلب الرجل يد فتاة يقبل به أبوها حتى لو لم تكن قد بلغت، أو من نفسها إن كانت قد بلغت، ذلك أن موافقتها ضرورية ويبدأ بكتابة العقد. والزواج المسلم لا يتطلب قراراً دينياً ولا إجراءات مدنية، إذ يكفي لكي يكون شرعياً الإقرار المتبادل وموافقة الزوجين أمام اثنين من الشهود. تقول العروس: «نتزوجك» (أتزوج منك) لمن يطلب يدها. فيجيبها زوجها المقبل: «نقبلك».

وعندما يتمّ القبول يُحدّد المهر⁽³⁾ ولا تعطيه الزوجة للزوج وإنما تحدّد الشريعة مقداراً من المال. وفي مجتمع يُحلّل فيه الطلاق، يبرّر هذا القانون. فهذا يضمن حق الزوجة المخلوعة. والمهر بشكل عام يحدّد بالريال I talleri di Maria Teresa. وهي العملة الفضية الوحيدة المتداولة في اليمن. أو يُحدّد بعدد من الجمال أو البضاعة حسب ثراء الزوج أو عائلة الزوجة. ويُحدّد مهر العروس من مئة إلى ألف تاليري (أي

(1) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقِيطُوا فِي الْيَمَنِ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى وَكُنْتُمْ وَرِثْتُمْ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقُولُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَقُولُوا﴾. (سورة النساء، 3).

(2) تقدم شرح هذه العبارة، وتعني في اليمن خان القوافل والمسافرين.

(3) ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هِيَكَامَ رَبِّنَا﴾. (سورة النساء، 4).

من خمسمئة إلى خمسة آلاف ليرة) ويُعطى إلى أهلها الذين يأخذون الثلثين في حال حصول الطلاق تاركين لها الثلث لمصاريف جهاز العرس.

وبعد ثمانية أيام من العقد، تبدأ احتفالات الزواج. ويركب العريس على بغل أو جمل بشيابه الثمينة يحيط به أفراد عائلته الذكور والأصدقاء وأهل بلده. ويسيرون مشياً بلباسهم الفخم تزين عماماتهم ورود كثيرة وأعشاب عطرية ويتسلّحون ببنادقهم من منزله أو بلده وحتى منزل أو بلد العروس. تتقدّمهم الفرقة الموسيقية التي تفرع الطبول باستمرار أو تنفخ الأبواق والمزامير بشكل غير منتظم.

وعند الاقتراب من البلد أو منزل العروس يلتقون بأهلها وكلهم بلباس الاحتفال ومعهم الموسيقيون.

وعندما يلتقي الجمعان يبدأ الهرج: تصدر طلقات نارية ويبدأ الرقص بالجَنبِيَّة⁽¹⁾ حيث يتقدّمون أربعة أربعة يقفزون ويرقصون ويرجعون وينحنون والخنجر في يدهم، بينما يستمرّ قرع الطبول والأبواق والطلقات النارية في هذا الصخب الرّهيب.

وعندما ينتهي الاحتفال، المتميّز جداً، يسير العريس نحو منزل أهل العروس الذين يقبلون يديه ولباسه.

وتخرج العروس بخمارها بصحبة والدها وإخوانها أو ولي أمرها أو أحد أفراد عائلتها المقربين، وتقترب من الزوج الذي يضعها على ظهر بغله أو جملة وبعد ذلك يرجع الجميع إلى منزله أو بلده.

وعند وصول العريس، يضع العروس في بيته عند النساء وهي ما زالت مغطاة بالخمار، ويذهب هو والآخرون إلى المسجد. وبعد الصلاة، يقيم العريس وليمة على شرف المدعوين بينما تحتفل النساء في البيت وحدهن.

(1) كتب المؤلف: عبارة الجنبية Genbie بالعربية تأتي من الجنب أي الخاصرة. ولا أستغرب أن تكون كلمة Gamba بالإيطالية وتعني الساق مأخوذة من الجنب العربية. والساق في اللاتينية: كروس crus، وفي اليونانية: سكيوس skeios.

وبعد الوليمة يذهب الضيوف ويختلي العريس بالعروس ويجب عليه أن يبرهن على عذريتها إذا لم تكن أرملة أو مطلقة.

الشيء الأساسي الذي يرجى من العروس هو أن تكون عذراء، وعليه يتوقف شرفها وشرف العائلة. ولذلك يعطيه العريس أهمية قصوى.

وعلى العروس أن تعطي براهين ملحوظة ليس فقط لزوجها وإنما للأهل والأصدقاء أيضاً. ولقد جرت العادة عند العرب ألا يعتبر هذا من الخصوصيات التي تكتم كالأسرار. فالجمهور يؤخذ كشاهد يتأكد من النتائج. وتجري تلك العملية القاسية في حضور الأمهات ونساء العائلة المقربات. فالرجل يأخذ قطعة نسيج أبيض ويعرض الدّم أمام الأهل الذين يعرضونه بدورهم للأصدقاء والمعارف، وهو عمل قميء يدل على غيرة الرجل فقط.

وإذا حدث خطأ أو أن مرضاً ما كان قد أصاب العروس أو أي عيب في جسمها قد منع من إعطاء الدليل على عذريتها، يطردها الزوج ويسترجع من أهلها المهر المدفوع. ولا تلتقي العروس بزوجها إلا بعد مرور ثمانية أيام على النكاح وتقضي الأيام في بيت أبيها.

وبما أنه لم يحصل أيّ حادث عند البدويات أو نساء القبيلي ممّا يستدعي اللجوء إلى الحيل لئلا يطردها عريسها، ذلك أن البدوي أو القبيلي يستطيع رؤية البنات لأن النساء لا يضعن الخمار، فلن أتكلم الآن في هذا الصّد.

أما ولادة ابن فهو حدث يجلب الجبور إلى العائلة. وتعطي الأمهات كل الحب والحنان والعناية لأطفالهن. ويرضعن إلا في حال عدم تمكنهن بسبب نقص الحليب أو مرض أصاب الثدي، عندئذ تقوم المرضعة بذلك وكأنها من أفراد الأسرة.

وتمنع الشريعة الإسلامية الفطام قبل بلوغ السنتين من عمر الوليد*.

لا يسبّب أطفال القبيلي المشاق للأمهات، إذ يُتركون أحراراً دون أن يلتقوا بشيء.

* بل يجوز الفطام قبل بلوغ السنتين إذا اقتضت المصلحة ذلك، والرضاع حولين كاملين إنما هو لمن أراد أن يتم الرضاعة كما نص عليه القرآن (المراجع).

وفي سن الثمانية أو التسعة أشهر يستطيعون المشي وحدهم. ومن الستين إلى الثماني سنوات يكون أطفال القبلي نحيلي الجسم وبطنهم شديد البروز. وفي سن الرابعة عشرة يتم ختانهم. وفي تلك الفترة يبدوون بتعلم القرآن غيباً.

لا يشير الكتاب المقدس إلى كلمة واحدة تدل من قريب أو من بعيد إلى الختان. بل هو رمز العهد كما ورد في سفر التكوين بين الله وأتباع إبراهيم. كانت تلك الطقوس سابقة لعهد اليهود، ذلك أنها كانت تُمارَس في مصر والحبشة وجزيرة العرب وكانت تعدّ جزءاً من تراث الشعوب وعاداتهم. وربما كان من الضروري للنبي محمّد الذي يتفق مع الكثير مما جاء في سفر التكوين تذكيرها لنسل النبي إبراهيم من العرب. لذلك فتحى لو لم يكن الختان مطلوباً من الشريعة يُعدّ بالنسبة للعرب المسلمين سنّة لأن النبي محمّد قد خُتن أيضاً.

ويُحتفل بعملية الختان بالرقص والاحتفالات. حيث يلبس من يجب أن تجرى له العملية أجمل ما عنده، ويوضع على بغل ويتنقل في البلد كله مصحوباً بالأقارب والأهل وأصدقاء الطّفولة والموسيقين. وعند وصوله المسجد يذكره الإمام بالخير، في كونه ينتمي إلى الدين الحق ويجعله ينطق بالشهادة التي تُقرأ بهذا الشكل: «الله أكبر». «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمّداً رسول الله». ويستخدم في هذه الحال للمريض رماد الورق المحروق الذي يُعدّ عند العرب من أنجع الوسائل لتخفيف الآلام⁽¹⁾.

ثم يرجع المختون إلى منزله مصحوباً بنفس التّظاهرة. وتقوم عائلته ولأيام ثلاثة بتحضير الولائم التي يشارك بها كل من يمرّ بالبلد.

* * *

يوم الخميس السّابع والعشرون. في الصّباح كانت غرفتي الصّغيرة تمتلئ باستمرار بالرجال والنساء والصّبية والمرضى الحقيقيين أو الذين يتظاهرون بالمرض. وتأتي

(1) وليس هذا بالتصرف الخاطيء، فالرّماد له مفعول المضاد الحيوي ويفيد بالحدّ من الالتهاب النّاجم عن الجراح المفتوحة.

النساء خاصة ليشبعن فضولهن برؤيتي والتحدّث إليّ. وعند منتصف النهار غادرت مع عوبش ومقبل إلى قَعْطَبَة (التي يبتجّلها الجميع) والتي وصلناها مساءً عابرين وادي الشاعري الجميل والخصب من الجنوب وحتى الجهة الشماليّة الغربيّة.

وفي قَعْطَبَة نزلنا ضيوفاً على صديق عوبش، وهو رجل مسنّ مسكين أعمى وأطرش منذ الولادة، وزوجته ربما كانت أقبح امرأة في البلد، إلا أن ذلك لم يمنعها من أن تكون لطيفة ومضيافة.

بعد ذلك ذهبنا إلى مصطفى بك القائمقام، أو حاكم مقاطعة قَعْطَبَة الخاضعة لحكومة تعز. ولقد استقبلني في ديوانه بكل ترحاب وتقدير.

بعد المجاملات التقليديّة قدّم لي قهوة ممتازة وسجائر جيدة قبلتها، ثم بدأ الحديث عن الحرب التي تدور بين الروس والتّرك ولم يهتم إلا بنأا النصر الأول والوحيد لغازي عثمان باشا في پلّافنا Plewna (إذ أن انتصار روسيا الكاسح في پلّافنا تمّ بعد وقت طويل، بينما في السّابع والعشرين من سبتمبر عام 1877 كان الأتراك ما زالوا هم المنتصرين!). وأخيراً تكلمنا عن صناديقي.

طلب مني القائمقام إحضارها جميعاً إلى قَعْطَبَة ليراها هو بنفسه وإذا لم تكن تخضع لضريبة جمركية كالخمر والكحول والأقمشة والتّبغ، الخ. يتركني أمرّ حتى صنعاء. أن يقترح عليّ رؤية البضاعة بنفسه هو معروف كبير يسديه إليّ، ذلك أن الجمارك التّركية تقع على منتصف الطّريق بين الجليّة وقَعْطَبَة في مكان يدعى حكومة* الحِجْفَر Hokümet 'el-hagefâr (مكتب الجمارك). وأراد مصطفى بك أن يحمّلني أيضاً رسالة إلى رئيس الجمارك والحرس ليتركوني أمرّ بسلام.

شكرت مصطفى الطّيب ورجعت إلى منزل صديق عوبش للعشاء وكان بانتظاري مفاجأة سارّة.

* كذا في الأصل وصوابه لكَمَة الحِجْفَر، والكلمة مدلول جغرافي تضاريسي يكثر استخدامه في المنطقة ولعل معناه التّوّ الجبلي على هيئة قبضة اليد، ومن المواضع التي تحمل هذا المدلول: لُكْمَة لشعوب ولكمة النوب ولكمة لعبار ولكمة الرونه ولكمة الدوكي وغيرها (المراجع).

كنت خلال سيرنا من الجبلية إلى قَعطبة قد اصطدت عدداً من اليمام والعصافير، فوجدتها محمّرة على شرفي وقد هيّأها لي مقبل.

* * *

يوم الجمعة الثامن والعشرون. أمضينا في قَعطبة ليلة رهيبة بسبب الحشرات (الكُتّان) el-Khutàn التي تسكن منزل صديق عوبش الأعمى والأخرس.

وفي الصّباح الباكر عاودنا مسيرتنا نحو الجبلية مارّين بلكمة الحاجر، حيث أعطيت رسالة مُصطفى بك لرئيس الجمرك، وهو رجل مسن طويل ذو لحية بيضاء طويلة. كان من جزيرة كريت وقد زار صقلية وكان يعرف القليل من الإيطالية.

* * *

أمضيت أيام الثامن والعشرين والتاسع والعشرين والثلاثين من سبتمبر كلها في الجبلية أشفي المرضى وأصطاد وأدوّن ملاحظات علميّة دون أن أنسى أيضاً تدوين عادات وتقاليده القبلي.

لا يوجد آبار في الجبلية. وتذهب النساء إلى بئر قريب من البلدة لإحضار الماء. وهو يوجد في وادٍ ضمن غابة كثيفة، لذلك فهو ملائم لصيد اليمام والعصافير التي تذهب باحثة عن الماء، وكان مكان اجتماع نساء الجبلية والقرى المجاورة. وكنت محاطاً دائماً بالعرب أتوقف عند البئر وأتحدّث إلى النساء اللاتي لا يقمن بتغطية وجوههن عند مشاهدة الغريب كما تفعل نساء المغرب. بل على العكس، كنّ يستمتعن بحضوري وبصيدي.

في الجبلية وللمرة الأولى أكلنا أنا ومقبل من نفس الطبق، لذلك أستطيع التأكيد عن مدى التقدير الذي يكتّه لي هذا الشاب الذي كان صديقاً قبل أن يكون خادماً. إذا كان عرب اليمَن من البدو والقبلي أكثر كرمًا من أهل المغرب، فإنهم أقل كياسة

فيما يتعلّق بأداب الطّعام. ففي المغرب يتحلّق الجميع حول طبق الطّعام ويأكلون باليد اليمنى وبشكل أنيق. أما في اليَمَن، فبعد كل لقمة يلعبون أصابعهم الواحدة تلو الأخرى وكأنه جزء من عاداتهم. ولحسن الحظ أنّ لديهم خمسة أصابع فقط وإلا كانت العملية ستستغرق وقتاً طويلاً. ولو كان لديهم خمسون فسيلعبون الخمسين إصبعاً. أما مقبل، فعوضاً عن الأكل كالآخرين كان يكتفي بوضع الخبز في المرق لثلا يدخل أصابعه في الطّعام أو في فمه، وإذا أكل من الخبز لا يعيد تغميسه في الطّبق بعد أن يكون قد أكل جزءاً منه. وفيما يتعلّق باللحم، كان يأخذ الكمية التي يظن أنها تكفيه ويضعها على تلك الأقراص المستديرة من الخبز.

في الجبلية مصبغة للنيلة. وهي عبارة عن منزل واسع مكون من طابق واحد مقسوم إلى مخازن عدة حُفرت في أرضه أحواض ضخمة تستوعب مئة وخمسين إلى مئتي لتر من الماء الذي يضيفون إليه أوراق وزهور وحبّيات أو ثمار النيلة *Indigofera tinctoria* ويتركونها تختمر. أو يضيفون الحوير *Huer* والحسار *el hasar* والحل *spinoso* أو الدّراع *Nerium foliis ternatis* أو العدين *obesum* أو الضرف *integris*. وتنمو كل تلك النباتات في بلاد الأَجُود (شرقي بلاد العلويين)، إلى الشّرق من الشّاعري وفي المنطقة الواقعة بين الجبلية وتَعَز. وما بين تَعَز والمُخَا، أو بين إِبّ وصنعاء.

تُقتلع تلك النباتات عندما يصل ارتفاعها إلى عشرة أو خمسة عشر ستيماً عن الأرض بعد أن تكون قد أزهرت وأعطت بعض الثّمار. ويُترك المحصول يجف في الظل حتى تتحول الأوراق التي كانت خضراء إلى أوراق هشة مليئة بالبقع تستطيع أن تطحنها بسهولة بيدك. ويحصل هذا بعد شهر من الزّمان، تكون الأوراق خلاله قد أخذت لوناً رمادياً معدنياً. ولولا ذلك لما استطاعت الأوراق التي تُحلّ بالماء أن تعطي هذا اللون. وفي البلاد التي تُجمع فيها الأوراق تُحضّر أكياس من الجلد لتوضع فيها ثم توزّع على المصايغ العديدة في اليَمَن.

أما عملية التّخمير فلا تستغرق وقتاً طويلاً. فبعد ثمان وأربعين ساعة كحدّ أقصى

تكون الكتلة قد تضخمت. وبسبب ذلك يُحلل الإنداغو الأبيض في السائل⁽¹⁾ ويتحرر الكثير من غاز الأمونياك وحمض الكربون (الفحم). والسائل الذي يكون أصفر في البداية يتدرّج إلى الأخضر مع ارتفاع في درجة الحرارة. وبعد عشر ساعات يظهر على السطح اللون الأزرق المخطط المغطى هنا وهناك برغوة بنفسجية. وتصل عملية التخمير إلى درجتها الملائمة عندما يظهر السائل لوناً أصفر ذهبياً. وعندما يؤخذ في فنيجان ويحرك، يرسب حبيبات كاملة الشكل هي المادة الملونة. فيقوم عندئذ العرب بسكب السائل في أحواض نظيفة ويخطوه بقوة لمدة نصف ساعة بمخبطة من القصب ليركوا الهواء يتسرب إليه ويسهل عملية الحصول على الصباغ الأزرق. بعد التحريك، يُترك السائل ليهدأ عدة ساعات ثم يحرك مرة أخرى وتدخل الأقمشة البيضاء لتُصبغ بالأزرق.

بعد صبغ الأقمشة للمرة الأولى بالسائل، تُرفع لتُشتر في الشمس آخذة لوناً فاتحاً وتكرر عملية الصبغ والتشتر إلى أن يصبح لونها أزرق داكناً. وعند الحصول على هذا اللون وبعد أن يجفّ، يطوي العرب القماش ويخطونه بعصي من الخشب على حافته حتى تخرج المادة البراقة.

وكما يبدو للقارئ، فلا يستخدم العرب لتلك الصبغة أية مادة مثبتة للون. لذلك يكفي أن تأخذ الأقمشة بيدك حتى تُصبغ بالأزرق.

كان عوبش قد وجد الجمال الضرورية لنقل أمتعتي إلى السدة، وأعلمنا بذلك. فحددت وقت مغادرتي الجليلة في الأول من أكتوبر.

* * *

(1) كتب المؤلف: لمعلومات القارئ أقول إن تلك النباتات تحتوي على عصارة لا لون لها، إلا أنها تصبح زرقاء بمجرد تعرضها للهواء، إذ تتفاعل مع الأوكسجين.

الفصل السادس

الفصل السادس

التوجه إلى قَعْبَة - مشاهدة صناديقي - قَعْبَة - المساء عند القائمقام - حكومة اليمَن - من قَعْبَة إلى عزاب - وادي العود - أحد ينابيع وادي ثُبْن - مَعَبَر الحدة - وادي بَنَّا - السدّة - أمراض وأسبابها - الثروة النباتية والحيوانية - القات - نهاية شهر رمضان - ألعاب واحتفالات.

يوم الاثنين الأول من أكتوبر - في الصّباح، وبعد تحميل الجمال، غادرنا إلى قَعْبَة التي وصلناها حوالي السّاعة العاشرة صباحاً. لقد أراد عوبش الطّيب أن يرافقنا. وفي منطقة الجمارك قام القائمقام بتفحص بعض صناديقي ثم حَيّاني مصافحاً وطالباً مني زيارته مساءً في ديوانه. وأمر كتابه بإعطائي كتاباً أستطيع بواسطته العبور إلى صنعاء. وقَعْبَة هي المركز الرئيسي لمقاطعة واسعة تتكون من بلاد الشّاعري والشّعيب وجحاف ومريس والعود ونصف وادي بَنَّا.

فيها ثلاثمئة نسمة تقريباً، ومسجد وحمّام متهدم لا يصلح للاستخدام. ومنازلها لا تضاهي منازل الجليلة أو القرى الأخرى من بلاد الشّاعري جمالاً أو أناقة. وتقع على التّل، لذلك فهي تشبه القلاع. وفيها سوق يؤمّه الناس يوم الأربعاء بشكل خاص.

أمضيتُ المساء أتعشى مع القائمقام مصطفى بك الذي بالغ في كرمه لأنه أعطاني رسالتين كان قد حضرهما لي، إحداها لقائمقام يريم والأخرى لقائمقام دَمار، يوصيهما بي.

كانت أمسية سعيدة قال لي فيها مصطفى بك بأنه غير راضٍ عن مسكنه هذا كحاكم مقاطعة كبيرة. وتذمر من إقامته في قَعْبَة. ولم يقل بأن قصر الحكومة كان مزرياً في شكله، ولكن بعض العرب أكّدوا لي، وكذلك عوبش، بأن مصطفى بك لكي يتغلب على الشعور بكآبة المكان وموقعه، وضع جانباً الكثير من المال كما يفعل الأتراك للأوقات العصيبة. وقد حصل على هذا المال من مداخل الجمارك المضاعفة والضرائب على الأملاك من الأراضي والبيوت⁽¹⁾.

وعلى أيّ حال، فلقد استقبلني هذا الحاكم التركي استقبلاً حارّاً ولا أنكر له ذلك. بتنا ليلتنا مرة أخرى في بيت صديق عوبش وحشراته التي تمتص الدماء. وبالطبع لم يغمض لي جفن.



خضع اليَمَن أو قسم كبير منه عام 1870 للحكم العثماني حيث جُزّء إلى ثلاث مقاطعات هي صنعاء والحديدة ونَعز، ومعها ضواح كثيرة يترأسها قائمقام أو حاكم. والضاحية مقسّمة إلى دوائر يترأسها مدير (نائب حاكم). ويعتبر القائمقام الرئيس المدني والعسكري والديني لضاحيته عوضاً عن كونه مدير دائرته.

ولقد حدّدت حكومة صنعاء المركزية منذ زمن بعيد المقدار الذي يجب على كل ضاحية أن تدفعه تاركة جمع المال للقائمقام. وباختصار تؤجر الضاحية للقائمقام.

وماذا يفعل هؤلاء؟ تماماً كما تفعل معهم الحكومة المركزية. يؤجر القائمقام الدوائر للمدراء بثمان يفوق طبعاً ما يتوجب عليهم دفعه للحكومة في صنعاء، ولا يدفعون عادةً إلا نصف ما يتلقونه من المدراء محتفظين بالباقي. وكذلك المدراء، يحتفظون بقسم كبير مما يدفعونه إلى القائمقام. وينتهي الأمر بأن تدفع الضاحية اليَمَنية أربعة أضعاف ما تفرضه الحكومة المركزية. ويُمْتَصّ دم العربي دون علم الحكومة. ويساهم الدم الممتص في إغناء الحكّام الأتراك المُكْتَبِينَ.

(1) كتب المؤلف: لقد تم عزله بسبب عجز الصندوق المالي الذي كان مسؤولاً عنه.

وفي الجمارك تُسَجَّل وأمام المالك أثمان تضاهي وزن البضاعة للحصول على ضريبة كبيرة ولا تُدَوَّن الأرقام طبعاً إلا مُخَفَّضة على الوثائق الرّسمية. تلك هي مداخل الحكّام الأتراك الثابتة. وهناك مداخل ثانوية يعرفون كيف يحصلون عليها. فمثلاً إذا كان هناك خلاف بين عربيين، يقوم الثّري حتى لو كان هو المخطئ بإهداء الحاكم أو رشوته ليعطيه الحق. أو يحصل القائمقام والمدراء على المال بالضغط والتهديد.

ولكي يتمتع العربي الغني بمحصوله ويربح من بضاعته يتوجّب عليه الذهاب إلى القائمقام أو المدير اللذين يطلبان منه دفع مبلغ من المال. فإذا دفع المسكين، أنقذ نفسه وأصبح ماله المدفوع ملكاً للحاكم. وإذا تخلّف، يوقّف ويوضع في السّجن حتى تقوم عائلته بدفع المبلغ مضاعفاً غرامة على عصيانه أمام السّلطات المفوضة. وإذا لم تدفع العائلة أو لم تكن قادرة على ذلك والأمر حصل مرات عديدة، يرفع القائمقام دعوة ضده بتأمّره على الأتراك والحكومة المركزية ويقوم بتأميم ممتلكاته. وأذكر الأمر الآن بشكل سريع ذلك أنني وللأسف سأتكلم عن ذلك بشكل مفصّل لاحقاً.

* * *

يوم الثلاثاء الثّاني من أكتوبر، غادرنا في السّاعة السادسة صباحاً قَعْطَبَة إلى السّدة، وهي قرية تقع في وادي بَنّا وتبعد خمسة أيام بالقافلة عن صنعاء.

هناك طريقان يفضيان من قَعْطَبَة إلى مَعَبَر حُدّة: المباشرة، أي الأقصر وتخرج من شمال قَعْطَبَة وتمر ببلاد مريس وهو بلد يسكن فيه رجال من القبائل الشّجعان الذين تحدّوا الأتراك وحافظوا على استقلالهم.

ولقد خاف عوبش إن أنا أخذت تلك الطّريق الأقصر ومعني رسائل من الحاكم التّركي أن أقع في أيديهم، لذلك طلب، حرصاً على سلامتي، مرافقتي عبر الطّريق الأخرى الأطول.

توجّهنا نحو الجنوب لمدة ميل ثم نحو الغرب لمدة ستة أميال، ثم إلى الشّمال الغربي لندخل وادياً ضيقاً جافاً هو وادي الرّجيع (النهر الذي يرجع الصّدى) ولقد

سمي كذلك بسبب الصوت الذي يصدره عندما يسيل . وبعد توقف استغرق خمس ساعات في منتصف المسافة، وصلنا مساءً إلى عزاب El-Azàb (المكان المهجور في الصحراء)⁽¹⁾ الذي يقع على قمة مَعَبَر - نقيل عزاب - ولقد سجل البارومتر 618 والترمومتر 18 درجة ونصف. لذلك أظن أن ارتفاع عزاب يبلغ حوالي 1627 متراً فوق سطح البحر.

نزلنا ضيوفاً على أحد معارف عوبش ويسمى محمّد الشاوش، وأمضينا ليلة أسوأ من تلك التي أمضيناها في قَعَطَبَة وللأسباب ذاتها.



يوم الأربعاء الثالث من أكتوبر - في الصّباح، وبما أن عوبشا لم يستطع بسبب أشغاله الكثيرة اصطحابي إلى أبعد من ذلك، فقد عرض علي محمّداً، وهو شاب قوي ويقظ، كدليل حتى السّدة. لذلك لم يكن هناك ضرورة من مرافقتي إلى القافلة لأن هناك من يصطحبني إلى وجهتي الجديدة، وبما أن السّير شاق وصعب في مَعَبَر حدّة، كان علي قضاء ليلة أو ليلتين في الجبال. لأن الجمال لا تستطيع عبور تلك الجبال المرتفعة في يوم واحد.

في السّاعة الخامسة والنّصف، بعد أن حييت عوبشا مع الكثير من الأسى لفراقه، تابعتُ مسيرتي حاملاً معي رسالة توصية كتبها إلى أخيه أحمد الموجود في السّدة. درنا حول الجبال هابطين شمالاً نحو وادي الرجيع الذي وصلناه بعد مسيرة خمسة

(1) كتب المؤلف: لا غرابة في تسميته عزاب. فالحقيقة أن ضفاف وادي الرّجع عارية وقاحلة وكل المنطقة جرداء صحراوية. لا بدّ وأن القوافل قد جعلت من هذا المكان محطة لها أخذت هذا الاسم. واسم الحديدة على البحر الأحمر مشتق من اسم امرأة مُسّنة كانت قهوجية أقامت محطة لاستراحة القوافل التي تمر من اللّحّة إلى زَبِيد.

قلت: ويا له من تفسير لاشتقاق أسماء البلدان! كلاهما خطأ بالطبع، فعزاب لا دخل لها بالعذاب، واسم الحديدة بلا شك أقدم بكثير من أية امرأة تبّيع القهوة، وخاصّة أن القهوة لم تنتشر قبل القرن السادس عشر.

أميال ونصف. يتدئ وادي الرجيع من الشرق من جبل الحدة. ولقد سرنا حوالي ثلاثة أميال على ضفته، عندما لم نكن مجبرين على السير في حوضه، ووصلنا إلى نقطة التقائنا به. وفي الجهة الجنوبية الشرقية انحرف فجأة في زاوية بالاتجاه الجنوبي الغربي بسبب التيارات المعاكسة لترك جبال عزاب وينساب باتجاه بلاد الشاعري. وبعد ستة أميال أخرى وصلنا وادي الحدة الذي يصب فيه وادي العود من على يمينه. وكما في وادي الرجيع بسبب التيارات المعاكسة الموازية لتلك الجبال انحرف إلى الجهة الجنوبية الغربية.

قال لي العرب إن وادي الحدة يصب في وادي الرجيع بعد اتحاده بوادي العودة. ويغذي نهر العود الوادي الذي يعطيه اسمه وهو وادٍ أخضر بسبب خصوبة أراضيّه.

بعد وقت قصير من وصولنا قرية حريم (أي التي تحرس الحرم) بدأنا نتسلق جبل الحدة عبر ممرّ ضيق وشديد الانحدار. ولم أفهم كيف ستقوم الجمال المحملة بالصعود. والأسوأ من ذلك هو كيف ستنزل.

في الساعة التاسعة والتّصف كنا في قمة المعبّر. أيقنّت من ملاحظاتي أننا على ارتفاع 2285 متراً عن سطح البحر. وعلى التّقليل شديد الانحدار والخطر تنبثق قمة الحدة⁽¹⁾ وهي على ارتفاع 300 متر عن المعبّر، لذلك فهو الارتفاع الأقصى الموجود بين عدن وصنعاء ويبلغ 2585 متراً عن سطح البحر.

يمتدّ المنظر من قمة المعبّر إلى الجنوب نحو جبال مريس والشعيب وعلى بلاد الشاعري وجبل جحاف الضخم. وإلى الشمال على وادي الصوبة Sobe الصغير

(1) كتب المؤلف: الحدة تعني الحدود والنهاية والتّقطعة القصوى. وبالفعل ففي الطّبيعة، هو الحدّ بين مجرى الوادي أو النهر الذي يسيل جنوباً (نحو وادي العود الذي يتحد مع وادي الشاعري والماوية مشكّلين الخندق، وهو أحد أهمّ التّوافد اليسارية لوادي ثبن، بداية وادي لحج) وبين بنا الذي ينبع من جبال إتب نزولاً مسافة طويلة من الغرب إلى الشرق وجنوباً إلى حضرموت* ليصبّ في خليج عدن إلى الشرق بعيداً عن تلك المدينة. والحدة هو أعلى جبل صادفته حتى الآن.

* كذا في الأصل وهو غير صحيح، وأين حضرموت من وادي بنا. لقد وقع المؤلف في خطأ فاحش (المراجع).

(الضيقة بين الجبال) (1975 متراً). منها تنزل وتتوقف للاستراحة على بعد ميل نحو أسفل القرية قرب جدول صغير شربنا منه ماءً بارداً عذباً.

وعلى ارتفاع ألفي متر تقريباً رأيت عرباً يحرقون الأرض لزراعتها. تلبس النساء في تلك البلاد، فوق السروال الذي يغطي الأرجل النحيلة، ثوباً قصيراً واسع الأكمام. وهن دميمات جداً. أما لباس الرجال فهو نفس لباس أهل الجبليلة مع فارق وحيد هو أن البرد قارس هنا، لذلك يصنعون جبّتهم دائماً من جلد الخروف. بعد استراحتنا، غادرنا المكان ونزلنا قرب المَعْبَر. وبعد نصف ساعة دخلنا وادي بَنّا (أو النهر الذي يتوقف في مكان جاعلاً الأراضي حوله خصبة).

وبالفعل، فإنّ العربية السعيدة هي جنة على الأرض. ولينظر القارئ إلى الخارطة ليرى عدد المدن الموجودة في بقعة صغيرة من الأرض، ومنها مدن كبيرة جداً. واسم بَنّا يلائم هذا الوادي. وبَنّا يعني النهر كما رأينا⁽¹⁾، ويصبّ مياهه الغزيرة في الأرض الخصبة. ونصف وادي بَنّا يقع تحت سيطرة قائمقام يَريم. أما القسم الآخر، كما قلت، فيقع تحت سيطرة قَعطبة.

أخيراً وبعد مسيرة طويلة (ثمانية عشر ميلاً ونصف تقريباً في يوم واحد)، وصلنا سالمين في الساعة السادسة والتّصف مساءً إلى السّدة (أي التي تسدّ الوادي). وكنا في إرهاق شديد وكذلك البغل المسكين وحمار مقبل الذي لا يعادله حمار. وبالفعل فلقد ركضنا بسرعة. ولكنني أعترف بأن محمّداً هو الذي أبدى تعباً أقل وهو دليلنا. وكان قد سار طول الطريق على قدميه! ويمكننا أن نعتبره متسلّق جبال حقيقي.

أمضينا الليلة في مسكن علي عبيد. كان يقيم عنده أيضاً أحمد، أخو عوبش الذي أعطيته الرّسالة بالطبع. لقد خصّصوا لي غرفة الضيوف الكبيرة التي رأيتها أثناء النهار وكانت شديدة الظلام، وأكمل غطائي الصّوفي الملقى على الأرض مشهد السّجن هذا. وللأسف كان هذا هو مكان إقامتي الجديد. ولم أجد حتى الفراش الذي أعارني

(1) تفسير غريب من المؤلف، ومن الواضح أنّ اسم الوادي لا يعني النهر.

إياه عوبش الطّيب في الجليلة.

حالما وصلت، تكلمت مع أحمد للحصول على جمال جدد وجمّالين حتى صنعاء. ولم يكن قد بقي إلا أيام قليلة للعيد الذي يختم شهر رمضان. ولم يكن أيّ واحد من العرب يرغب في ترك دياره. لذلك اضطررت للمكوث في السّدة أياماً عديدة.

* * *

من الخميس الرّابع من أكتوبر وحتى الثلاثاء التّاسع منه كانت أيامي طويلة جداً ومملّة. في تلك الأيام السّنة أكلت أسوأ طعام ونمت أسوأ ليالٍ.

إن اختلاف درجة الحرارة بين عدّن والسّدة وخاصة التّغيّرات الطّارئة بين حرارة النّهار (متوسط الحرارة القصوى 24 ونصف درجة مئوية) والليل (متوسط الحرارة الدّنيا 11 درجة مئوية) والرّطوبة التي سببها وادي بّنا كان لها تأثير سلبيّ عليّ، فأصبّت بالحمّى والإسهال المستمرّ ووجع في الحلق وسعال لا يهدأ مع رعاف من الأنف. نغّص عليّ كل ذلك فترة إقامتي في السّدة. وانتهى الأمر إلى شعوري بالوهن. وخلال ذلك الوقت كان عليّ معالجة المرضى الذين جاؤوا من سّدة والقرى المجاورة لاستشارة الطّبيب القدير!

لم أقصد المبالغة في عرض ما أصابني لأحصل على عطف القارئ. أنا أكتب الآن وأشعر أنني بحالة جيدة ولقد نسيّت ما حلّ بي، ولكن من واجبي أن أحذّر من يريد السّفر إلى اليَمَن بأن يكون لطيفاً مع سكان المنطقة وأن يأخذ الاحتياطات لأن الطّقس اليَمَني لا يلائم الأوروبي، لذلك يتوجّب عليه إحضار الفراش معه بالإضافة إلى الأغذية الصّوفية. وهذا ما كان ينقصني ودفعت ثمنه مع أنني أتمتع بصدر قوي ومعدة وجسد يتحمّلان المصاعب.

لحسن الحظ كانت تلك الحالات المرضية تأتي في الليل فقط، لذلك كان باستطاعتي خلال النّهار الذّهاب للصّيد ورؤية حقول الوادي الخصبة.

وفي أحد الأيام، أسقطت بطلقة نارية واحدة ثمانية عصافير. وكان هذا كافياً لينتشر

التبأ في السدة بأكملها. مما جعلني لا أخرج من المنزل إلا وبصحتي ستة أو سبعة رجال من القبلي الذين يركضون عند كل طلقة ليحضرُوا الفريسة بمتهى الحبور والرضا الواضحين.

* * *

في مساء الخامس من أكتوبر من الساعة التاسعة والنصف وحتى العاشرة والنصف رأيت عدداً كبيراً من النجوم المتساقطة في جهة الشرق.

إن وادي بَنَّا هو أحد الأنهر الدائمة في اليمَن⁽¹⁾، يصل إلى السدة من الغرب من ينابيع جبال إِبّ الجنوبية. وبعد أن يروي البلاد محافظاً على اتجاهه من الغرب إلى الشرق، يمرّ في شمال بلاد الشعيب ثم ينعطف جنوباً ماراً ببلاد حرير والعلوي والأجود، وعابراً بلاد الفضلي حيث يصبّ في خليج عَدَن شرقي المدينة.

وتوجد الحقول إما في نهاية الوادي أو على جانب الجبل في مدرجات تتوضع على نفس النحو الموجود عندنا في بيانزا Bianza بنفس طريقة صفوف الحجارة والحصى ودرجات الصعود من حقل لآخر. والطرق هي عبارة عن ممّرات ماء صغيرة حُفرت بعرض متر ونصف تقريباً وأحيطت بها جدران من الحجارة المرصوفة الواحدة فوق الأخرى دون إسمنت أو كلس وعلى ارتفاع متر عن التراب، وذلك لمنع الجمال التي تمرّ من هناك من أكل ما تنتجه الحقول في الجوار.

تذهب الطرق تلك موازية للنهر عندما تكون أسفل الوادي أو على شكل متعرج في أعلى الجبال.

ويروي كلّ حقل عددٌ من الأقنية التي تنقل الماء العذب من بَنَّا. وعملية الري هي في أوجها في تلك المقاطعة. وفي مكان أسفل El-Holzi (إحدى القرى الكثيرة)، لتجنب عملية فتح الأقنية الشاق في الصخر الصلب وهو أمر غير عملي، يقوم العرب

(1) كتب المؤلف: لقد مرتت في 28 و29 مارس 1878، وفي يناير 1879 وكانت المياه شديدة الغزارة. وأكد لي أهل المنطقة أنهم لم يروا وادي بَنَّا جافاً على الإطلاق.

بالاستعانة بجذوع أشجار ضخمة يحفرونها ويجعلونها أقنية تجمع ماء الحقول في الأعلى وتسوقها إلى الأسفل. وفي المكان المرتفع من الحقول يقوم العرب بعملية الرّي بنفس الطريقة وذلك بصنع أقنية مائية مرتفعة جداً تصب في الحقل الأعلى، وعندما يرتوي، يفتح الحاجز السفلي فيجري الماء ليروي الحقول السفلية.

وتُزرع تلك الحقول بكل أنواع الحبوب والخضار كحقول لحج وبلاد الشاعري. ولقد وجدت نباتات ذرة تصل أوراقها إلى ارتفاع أربعة أمتار ونصف وحقول الحبوب والحمص والشوفان والنخالة والشعير، وهي واسعة. وشاهدت حقول الزيام⁽¹⁾ trifolio والبلاب الأبيض unifolium والتبغ (التن والتبناك) والخشخاش الأبيض والحلبة trigonella والقذب (العشبة الطيبة) medicago falcata وfinocchio (السيغامور segamur) والعنب والسّمسم sesamum indicum، الجلجلان الذي يدخل في صناعة الزيت. وفي الحقول زرعت أيضاً أنواع الخس والملوخية corchorus olitorius والجزر daucus carota واليرير la orientalis والقات la Catha eludes الذي يصنّفه فورسكال، وهي شجرة ذات أوراق تُمضغ وتُسكر ويعتبرها العرب مفيدة وتبعد الأمراض المعدية كطاعون السفلس. وهناك الأعشاب التي تؤكل كسلطة كالبرابرا la oleracea والمرداح والبروجي origia portulacifolia وخضار أخرى كالقرع والخيار والبطيخ والكاشوا citrullus والحباب.

وتنتشر التروسن belle di notte في كل مكان والطوبشو ricino والبلسم وآلاف النباتات والأعشاب.

وعلى أطراف الجبال وجدت في منتصف النهار وفي النصف الأسفل من الوادي كمية كبيرة من البسلسل la variegata، والعبلية la inermis والكُباب l'arborea

(1) في تسميات النباتات التي يوردها المؤلف أدناه بعض ارتباك، وخاصة في كتابة مقابلاتها العربية، ومن نافل القول إنّ التعبير عن المفردات العربية باللغة الإيطالية يختلف تمام الاختلاف عما هو مألوف في الإنكليزية والفرنسية، ولذا قد ترد إشكالات لا يسهل ضبطها، وقد أتعبني «الخواجة مانجوني»، أو سنيور مانزوني في ذلك.

ويكثر في الحقول وعلى طول ضفاف التهر وفي الجبال الفرسك والذراق *pesco* والبرقوق *dalbicocco* والتفاح والسفرجل *cotogne* والمسكماش والخوخ *prunus armenica* والليمون والترونجي *citrus cedro dicta* والتين *figus carica* والثاب والمداح *religiosa* والخنس *sycomorus* والسنور *il sur* والبلاس *morifolia* والتلاك *vasta* وبعض الموز النادر *musa paradisiaca* وبعض الجوز، الخ.

إلا أنني لم أشاهد ولا شجرة بُنّ ولا حتى في الطريق الواصلة بين عدن وصنعاء. ويستخلص القبيلي الأفيون من الخشخاش الذي يزرعونه ويخلطونه بالزيت أو الزيت أو الدهن لتدليك منطقة الألم. ولكنهم لا يدخنونه. ويزرعون النباتات العطرية في الحقول القريبة من منازلهم أو على سطوح البيت. كالغبرة *artemisia pontica* والزنبق *lilium album* والتردقش *origanum majorana* والحبق *ocymum basilicum*. والحبق السلب *il gratissimum* والصعتر *tymus serpyllum* والنشوق *inula odora* والسلب *geranium arabicum*. وهناك القاضي أيضاً وتوجد فقط في الحقول لندرتها *keura odorifera*.

أما القات *la Catha eludes di Fòrska* الذي يصنّفه فورسكال فهو نبتة اكتشفها عالم النبات الشهير هذا وسُميت باسمه. ولقد وجد منها نوعان: *la edulis* و *la spinosa* وهي تنمو في جبال اليمن في كل مكان يصلح للزراعة وتوجد بشكل خاص في المناطق التي يُزرع فيها البن. والقات هو شجرة صغيرة ارتفاعها نصف متر وتشبه للوهلة الأولى أغصان وأوراق الكاميليا عندنا.

يمضغها العرب ويمتصّون عصارتها لوقت طويل. وأوراق القات بالنسبة إليهم لها تأثير قوي، إذ يقولون إنه في المكان الذي تُزرع فيه لا يصل الطاعون. ويوضع عرق من أوراقه لتحمي صاحبها من الحشرات. أما عُصارتها فهي بالإضافة إلى كونها لذيدة، منبهة ومسكرة ومنشطة جنسياً، لذلك يُزرع القات بعناية شديدة وتباع أوراقه بأسعار باهظة. إلا أن فورسكال يقول:

“Gustus tamen foliarum tantam virtutem inicare non videtur”.

وخلال إقامتي الطويلة في اليَمَن مضغت تلك الأوراق مرّات عديدة وأريد أن أكتب حول فعلها الحقيقي. بالنسبة لي، تلك الأوراق مدرة للبول، ولكنها ليست منشطة جنسياً بل تسهّل عملية فرز سائل الغدّة الذي يصبح أكثر غزارة وتنشط عملية الهضم المعوي وهي لذلك تفتح الشهية. وإذا أكلت بكمية كبيرة تُذهب النوم. لذلك فهي غير مُسكرة على الإطلاق ولكنها تسبّب هدوءاً وراحة نفسية وشعوراً بالرضا.

والحصان أو الفرس ليس هو الحيوان الذي لا ينفصل عن العربي كما شاع الاعتقاد. إن الحصان في اليَمَن هو رمز الجاه وثمرته يتراوح بين ألفين وخمسة آلاف ليرة. والحيوان كبير وعالٍ ورأسه صغير بالنسبة لحجم رقبتة وعينه تقدحان شرراً وخشمه واسع مفتوح. أما قوائمه فرفيعة ومشيته قلقة وسلوكه نبيل وأبّي ومهيّب. ومن التّادر أن تلتقي بأحصنة في اليَمَن فيما عدا المدن الكبيرة. أما الحمار فليس كالذي عندنا: إنه ضعيف ويُعامل بسوء ويُطعم القليل. والحمار في اليَمَن كبير الجسم ومتناسق ونبيل ومشيته رشيقة وسريعة. يستخدمه العرب في سفرهم الطويل عبر الصحراء والجبال. وثمرته يتراوح بين مئتين إلى خمسمئة ليرة. وبشكل عام، فالحمير الكبيرة لونها أبيض إلا أنني وجدت في اليَمَن حميراً أحضرت من السّواحل الإفريقية (الصّومال، الدّناقل) وهي صغيرة وجلدها داكن وسعرها يتراوح بين خمسين ومئة ليرة.

إن العربية السعيدة، التي تملك أحصنة جميلة وحميراً، تنتج أيضاً بغالاً كبيرة الحجم وقوية وسريعة العدو. ويحرص اليَمَنّي على اقتنائها ويتراوح ثمنها بين خمسمئة وألف ليرة.

أما الجمل ذو السنامين *camelus bactrianus* فلا يعيش في اليَمَن. ولا يوجد إلا الجمل العربي *arabicus* أو الجمل ذو العنق الطويل وشفته العليا متفخخة وله سنام واحد فقط. أما قوائمه فطويلة ونحيلة وشكله بعيد عن الأناقة. إلا أن العرب ينظرون إليه على أنه هبة من الله وصدق من سمّاه «سفينة الصحراء».

يُنظّم الجمل منذ صغره على حمل الأثقال ويروّض بحيث توضع عليه وهو نائخ.

ويبدو أنه ذكي بقدر ذكاء الحصان، وأليف وهادئ ومسال� في أغلب الأحيان. إلا أنه في موسم التزو، في الربيع ولمدة شهرين، يصبح صعب المراس وخطراً ويفرز رائحة لا تطاق نتيجة تعرّقه. ويغطي سنامه وأعلى رقبة ورأسه وبر طويل أجعد، لونه بني محمر. أما باقي جسده فيغطيه وبر قصير من اللون نفسه.

ومن شعر الجمل يصنع العرب سجّادهم.

وفي اليَمَن يعتبر الجمل، مع قوة تحمّله الكبيرة، الوسيلة الوحيدة للنقل بشكل عام. ولكن البدو والقبيلي يربّون أيضاً هجن السّباق ويسمونها بحري⁽¹⁾ (bàhari)، ولا تحمل من أثقال إلا راكبها. وهي تعدو بسرعة كبيرة بحيث لا يستطيع أي حصان تجاوزها مهما زادت سرعته.

أما الثيران والأبقار التي شاهدتها في اليَمَن، فهي مستوردة من الصّومال. وللثيران والأبقار حدبة على أكتافها، وقرونها كبيرة. وتلك الأبقار قليلة الحليب، ولا يتعدّى ما تعطيه اللتر الواحد في اليوم. ولم ألتق في اليَمَن بجواميس (الثور المخصي) إلا في الحوطة. ذلك أن العرب يمتنعون عن قطع الأعضاء التناسلية للحيوانات.

والخراف هي مصدر ثراء سكان اليَمَن وطعامهم الرئيسي. ولقد صادفتُ منها الكبيرة جداً ذات الشعر الطويل المستوردة من الصّومال، وشعرها أبيض يغطي الجسد كله عدا الرّأس الأسود. ومنها قصير القامة والرّقبة التي تكاد تخلو من الشعر وعلى ظهرها القليل أيضاً من الصّوف. وهي ناعمة ولماعة حتى تبدو وكأنها حرير. ومنها كاملة السّواد أو كاملة البياض أو ذات اللون الزّهري المصفرّ. ومنها المغطى ببقع سوداء وبنيّة وحمراء.

والكباش أيضاً صغير القامة وشعره داكن وقرونها طويلة ومستقيمة. وهو شديد الحيوية وسريع. ولقد شاهدت جنساً من الماعز الصّغير (ارتفاعه حوالي أربعين

(1) كذا في الأصل الإيطالي، وأظن التسمية محرّفة عن: الدّلّول المهرية، التي تنسب إلى قبيلة المهرة من قضاة من قحطان، القاطنة بين حضرموت والربيع الخالي وعمّان.

ستتيمراً)، يبدو كالألعاب صغيرة.

والذبيكة والدجاج أيضاً صغيرة الحجم، إلا أن لحمها لذيذ.
ونادراً ما التقيت بالكلاب في القرى، ذلك أن هذا الحيوان بالنسبة للعرب يعدّ نجساً. وتكثر القطط في بيوتهم، وهي سمينة ووبرها طويل.
وتعيش الذئاب في الجبال (الذيب ed-dib). ويمكنك أن تلتقي بسهولة بالثعالب (الدريم ed-drim).

* * *

تمتع النساء في السدة أيضاً بنفس الدرجة من الحرية. ولقد علمتني زوجة علي عبيد لعبة البدر abdùr وهي شائعة جداً عند القبيلي وغير معروفة في صنعاء. ويتسلّى الأولاد بالكرة واللولب وهي ألعاب أحضرها الأتراك معهم وقد أخذوها عن الأوروبيين. والبدر abdùr (المفاجأة)⁽¹⁾ لعبة ممتعة ومفيدة للأولاد لأنها تعلمهم الحساب. لذلك، سأشرح الطريقة:

يقوم الصبية بتحضير صفين من الثقوب (سته لكل صف) تُحفر في الأرض. ويوضع في كل ثقب أربع من الحصى أو الطلقات الفارغة. ويجلسون على الأرض مقابل كل صف. ويمتلك اللاعب الأول صفّاً من ستة ثقوب مع أربع وعشرين حصاة. واللاعب الثاني، الصف الآخر.

واللاعب الذي يبدأ اللعب يأخذ من أحد الثقوب الستة الحصى الأربع، ويضع الواحدة تلو الأخرى في الثقوب المتوالية على يمينه أو يساره بما في ذلك ثقوب خصمه. إلا أنه إذا بدأ بوضع الحصاة الأولى في الثقب الواقع على اليمين، يجب أن يُكمل في هذا الاتجاه إلى أن ينتهي اللعب. والأمر ينطبق على الجهة اليسرى أيضاً. توضع الحصاة الأخيرة إما في الثقب التابع له أو لخصمه. فيأخذ عندئذ الحصى الخمس ويستمر كما في البداية بنفس الاتجاه واضعاً حصاة تلو الأخرى في الثقوب

(1) كتب المؤلف: يسمى العبدور البقار أيضاً والكلمة مصدرها فعل بَقَرَ أي ثَقَبَ.

التالية. ويستمر اللعب هكذا حتى: 1- إذا دخلت الحصاة في ثقب فارغ، يحق للاعب أخذ جميع الحصوات الموجودة في الثقب المقابل من الصف الآخر. ويكون الحصى هو الذي كسبه ويتنازل عن دوره للآخر. 2- إذا وقعت الحصاة الأخيرة في ثقب فيه حصى وكان الثقب المقابل فارغاً، لا يستطيع اللاعب أن يستأنف اللعب، بل يتنازل عن دوره لخصمه دون أن يربح شيئاً. ويقوم اللاعب الآخر باللعب بنفس الطريقة. وينتهي اللعب عندما لا تبقى أية حصاة في الثقوب. ومن أخذ عدداً أكبر هو الذي يربح.

ولإمتاع القارئ، أضع طريقة اللعب مفسرة بشكل واضح:

يلعب محمّد وعليّ. محمّد يملك الصف الواقع على اليسار وعليّ الذي على اليمين. في الرّسم الأول يوجد اثنا عشر ثقباً، وفي كل ثقب أربع حصوات. يبدأ عليّ اللعب أولاً بأخذ الحصوات الأربع من الثقب C ويضعها بدءاً من اليمين في الثقوب B, A, a, b. ويكون شكل اللعب هكذا (الشكل 2). ويبقى الثقب C فارغاً. أما الثقوب B, A, a, b ففيها خمس حصوات عوضاً عن أربع. وأما الثقوب c, d, e, f, F, E, D فتحفظ بالحصوات الأربع الأولى.

يكمل عليّ اللعبة، وهو مجبر على أخذ الحصوات الخمس من الثقب b لأنها الأخيرة التي أخذها من C ويضعها في c, d, e, f, F وهو الاتجاه الذي أخذه في بداية اللعب. وتستمر تلك العملية ثم يتغير اتجاه اللعب. ومن يأخذ هذا الشكل (الشكل 3): الثقوب C و b فارغة. أما الثقوب B, A, a, c, d, e, f, F ففيها خمس حصوات. وتبقى الثقبان E, D يحتويان على أربع حصوات.

ويستمرّ عليّ أخذ الحصوات الخمس من F ويضعها في E, D, C, B, A ويأخذ اللعب هذا الشكل (الشكل 4) والثقبان b, F فارغان. أما C ففيها حصاة واحدة والثقب a, c, d, e, f, E, D فيها خمس وأما B, A ففيها ست. ويستمرّ عليّ أخذ الحصوات الست من A ويضعها في a, b, c, d, e, f. وتأخذ اللعبة هذا الشكل (الشكل 5). والثقبان F, A فارغان والثقبان b, c فيهما حصاة واحدة والثقب فيها خمس، والثقب B, a, c, d, e, f فيها ست.

إلا أن الحصاة الأخيرة التي أخذها عليّ من الثقب A (الشكل 4) قد وقعت في الثقب f (الشكل 5) ونظيرتها F فارغة. لذلك يتوقف عليّ عن اللعب ويتنازل عن دوره لمحمد دون أن يكون قد ربح شيئاً.

من المتابعة يفهم القارئ بأنه لا يصلح أخذ الحصى في البدء من الثقب C ونقلها يميناً نحو b لأنه بذلك يصاب بما أصاب علياً وهو التنازل عن اللعب للخصم دون كسب شيء. وفي الوقت نفسه يكون قد هتأ فرصة ممتازة لخصمه كما سنرى. وبعملية حسابية يخطئ أيضاً من يأخذ الحصوات الأربع في d ناقلاً إياها يميناً ليضع الأخيرة في E. أو من يأخذها من D أو e متجهاً يساراً واضعاً الأخيرة في e أو في B. ذلك أنه سيجد نفسه في النقطة الرابعة في وضع مماثل لعلّي في (الشكل 5).

ولمحمد الآن أربع نقلات جميلة، واللعب له:

1 - إذا أخذ الحصوات الست من f واضعاً إياها في B, C, D, E, F, يضع الأخيرة في A وهي فارغة فيكسب الست الموجودة في a. إذن يكسب ست حصوات.

2 - إذا أخذ الحصوات الست من a واضعاً إياها في E, D, C, B, A, يضع الأخيرة في F وهي فارغة فيربح الست الموجودة في f ويكسب ستاً إضافية.

3 - إذا أخذ الست في f ليضعها في a, b, c, d, e, يضع الأخيرة في A وهي فارغة. أخذاً السبع الموجودة في a.

4 - إذا أخذ الست من a ليضعها في f, e, d, c, b, ينقل الأخيرة إلى F وهي فارغة كاسباً السبع الموجودة في f.

لا أريد أن أنقل إلى القارئ بداية لعب جدّي، لأن عشرين جولة لا تكفي، ولا حتى ثلاثين. لذلك اخترت تلك البداية الخاطئة لأعطيه فكرة عن طريقة اللعب وأجّبه الخطأ الذي يمكن أن يرتكبه.

يلعب محمد إذن رقم أربعة، أي يأخذ الحصوات الست الموجودة في a وينقلها إلى b, c, d, e, f, F. وبما أن F فارغة، يأخذ السبع الموجودة في f: أقول سبع لأن

الست كانت موجودة (الشكل 5) ويضيف واحدة من تلك التي أخذها من a. فيظهر اللعب على هذا الشكل (الشكل 6). والثقوب A, a, f فارغة والثقبان F, c فيهما حصاة واحدة والثقب b فيه حصاتان و E, D فيها خمس. و B فيها ست و c, d, e فيها سبع. ولم يعد عدد الحصى ثمانى وأربعين بل واحدة وأربعين لأن السبع التي كانت في f كسبها محمّد الذي يتنازل عن دوره لعلّي الموجود في موقف صعب فلا يربح إلا حصاة واحدة موجودة في F ويلعب على هذا الشكل:

يأخذ الحصاة الوحيدة الموجودة في C وينقلها إلى B ثم يأخذ السبع من B وينقلها إلى A, a, b, c, d, e, f والأخير لذلك يأخذ الحصاة الوحيدة الموجودة في F. وتصبح اللعبة بهذا الشكل (الشكل 7) والثقوب F, C, B فارغة وحصاة واحدة في A, a, f وفي b ثلاثة أحجار وفي E, D خمسة و c, d فيها ثمانية. وعدد الحصى الآن أربعون وليس واحدة وأربعين لأن علياً قد ربح واحدة.

يلعب محمّد الآن ولا يستطيع إلا أن يأخذ الحصاة الوحيدة الموجودة في a وينقلها إلى A التي تحوي حصاة واحدة (الشكل 7). فيأخذ عندئذ الثانية الموجودة في A وينقلها إلى B, C وبما أن C فارغة، يربح محمّد الثمانى الموجودة في نظيرتها c. وتصبح اللعبة على هذا الشكل (الشكل 8) والثقوب F, A, a, c فارغة وحصاة واحدة في C, B, f وثلاث في b وخمس في D, E وثمانى في d, e. والعدد الآن اثنان وثلاثون وليس أربعين لأن ثمانى حصوات قد ربحها محمّد.

تستمر اللعبة مع عليّ وهنا أتوقف لأنى أعتقد بأننى شرحت طريقة اللعب بشكل مطول. وأضيف فقط بأن الجولة ليست من صالح عليّ لأنه ابتداء بشكل خاطئ.

* * *

لم ألتق بيهود من عدن إلى الجليلية، لا في طريق السفر ولا في محطات التوقف ما عدا في مدينة الحوطة التي تحتوي على حيّهم أو قاع اليهود. إلا أنه من قعطة ولاحقاً، كل القرى تحتوي على حيّ لهم.

ويعيش اليهود بانسجام تام مع العرب ويعاملون معاملة حسنة، إلا أنهم لا يستطيعون ركوب الدواب بل يسرون على الأقدام. ولا يشبهون يهود المغرب على الإطلاق في قذارتهم بل إن بيوتهم نظيفة ولباسهم أيضاً، يلبسون فوق قميصهم الصوفي ثوباً من الصوف أيضاً يشبه الثوب الذي يلبسه رجال الدين عندنا لإقامة القداس. ولقد وجدته دائماً نظيفاً ومرتباً. وأما اليهوديات في ذلك الوادي وبشكل عام فديمات حقاً وزيتن كزي نساء القبلي ولكنهن لا يضعن أية زينة خارجية كالقرط أو العقد أو الخاتم. ويترك الرجال شعورهم تتدلى أمام آذانهم على شكل خصلة مفتولة طويلة وهو رمز اليهود ويجعلهم في منتهى البشاعة. ويعملون في حياكة التسيج في ظل النباتات ويصنعون من التمر مشروباً قليل الكحول ولكن طعمه لا بأس به.

لا يتنف القبلي ريش الدجاج والعصافير بل يزرعون حتى جلدها كما يفعلون بالخراف والماعز والجواميس. أما مقبل فكان يخالف عادات أهله فيتزع لي ريش الدجاج والعصافير.

في الصباح يجلس القبلي القرفصاء على طول جدران المنازل لتدفئة جسمه بحرارة الشمس.

* * *

في مساء الخامس من أكتوبر، من الساعة التاسعة والنصف وحتى العاشرة والنصف شاهدتُ عدداً كبيراً من النجوم المتساقطة في جهة الشرق.

* * *

جاء أخيراً اليوم الأخير من رمضان (السابع من أكتوبر) ليبدأ الاحتفال بالعيد أو البيرم⁽¹⁾ الذي يدوم ثلاثة أيام وفيها يترك تقشف رمضان المكان للحبور والسعادة للذين يعمّان المكان. يقوم المسلمون في تلك الأيام بتبادل الأمانى ويتصالحون فيما بينهم ويلبسون ثياباً جديدة ويضعون الورود والأعشاب العطرية في عماماتهم. ولقد

(1) هذه العبارة لا تستخدم بالعربية، فهي كلمة تركية Bayram وتعني: عيد الفطر.

هتتوني أنا أيضاً بقدوم العيد وقبلوا يديّ وثيابي.

من ملاحظاتي وحساباتي وجدت أن السدّة ترتفع 2038 متراً وتقع بحوالي 120 متراً فوق الدّور (1918 Dover متراً)، وهي قرية صغيرة تقع إلى الشرق حيث يبدأ مَعْبَر (1953 متراً) ووادي بَنّا.

ينحرف نهر بَنّا إلى 2025 متراً تحت السدّة و1911 متراً تحت El-Holzi حيث يترك النّهر هذا الوادي ليجري شمال سلسلة جبل الحدّة الكبيرة.

* * *

الفصل السّابع

الفصل السابع

مغادرة السدة - سوق الثلوث - محاولة صيد الرباح - وادي خبان - مسيرة قصيرة -
أودية فاحلة حجرية - الطرق الأربع - شيخ طيب - يريم - نساء محجبات - سمسرة في
الجبل - مغادرة يريم - أفنية توزيع الماء في اليمن - معجزة سيدنا علي - زينة العجوز -
ذمار - عاصفة ومطر - ذمار - مثذنة تسقط - طريقة قطع الأخشاب - المغادرة - معالجة
رشح - معبر - نقييل - الري من ماء الآبار - وعلان - ضيف محتال - وادي المحارقة -
حزيز - الوصول إلى صنعاء.

يوم الأربعاء العاشر من أكتوبر - بعد التّحضيرات، غادرتُ السدة في منتصف
النهار متوجّهاً إلى صنعاء التي تبعد خمسة أيام فقط على ظهر الجمل.

وصلنا في الساعة السادسة والرّبع إلى قمة مرتفع. وفي قرية سوق الثلوث (سوق
الثلاثاء) نزلنا في بيت ناجي صالح حيث أمضينا الليلة. وكنا على ارتفاع 2215 متراً
عن سطح البحر، أي 177 متراً فوق السدة و190 متراً فوق وادي بّنا.

هنا قال لي القبيلي بأن جبل رأس السدة تسكنه الرّباح أو القردة، لذلك أخذت
البندقية ومعني اثنان من أبناء صاحب البيت وسرت نحو الجبل، إلا أن حالتي الصّحية
منعتني من تنفيذ برنامجي في الحصول على أحد أولئك (البشر الذين يدبّون على
الأرض). فقد أصبت بخفقان في القلب وانقطاع في النّفس ودوار في الرّأس وإعياء
شديد. لذلك استلقيت على الأرض أمام تعجّب الجميع. وبعد أن استرحت، رجعت
إلى منزل ناجي صالح وأنا شبه ميت.

لو أنني عزمت على البقاء عدة أيام أخرى في السدة لكنت بلا أدنى شك وقعت
طريح الفراش. إذ أن الحركة ساعدتني على التحسن كثيراً من خلال سفري نحو
صنعاء التي ما إن وصلت إليها حتى شفيت تماماً.

* * *

يوم الخميس الحادي من أكتوبر - في الصباح الباكر بدأنا المسير، وكانت الطريق
تتجه نحو الأعلى على حافة الجبال وكان وادي بئنا يبدو في الأسفل باتجاه الغرب.
وبعد أن مشينا غرباً، انعطفنا إلى الجهة الشمالية الغربية ثم إلى الشمال حيث وادي
خبان⁽¹⁾ (النهر الذي يختبئ) وهو رافد على يسار وادي بئنا. في الساعة التاسعة وثلاثة
أرباع الساعة، مررنا بجبل الطاش el-Gibèl et-Tasc (جبل الحجارة)⁽²⁾ وهو معبر
صغير (2337 متراً). وبعده يمتد وادٍ خصب جميل يرويه وادي خبان الذي يحتوي
على شلال بالقرب من جبل طاش ويبلغ ارتفاعه أربعين متراً.

في الساعة العاشرة والنصف، مررنا بالتقيل (2359 متراً) ومنه ينبع النهر. وبعد
التقيل دخلنا سهلاً (2325 متراً) مليئاً بالحجارة (حصى وصخور) ولا يسكنه سوى
السحالي (الحردون) وهي ضخمة ولونها جميل جداً، أزرق معدني.

والمزروعات في هذا الوادي قزمة بسبب شح المياه، حتى أن ساق الشوفان والقمح
لم يكن يتعدى الشبر والنصف ارتفاعاً.

وصلنا في منتصف النهار قرب قرية رباط القلعة (الطرق الأربع)، ذلك أن الطرق
تتقاطع: الجنوبية الشرقية تؤدي إلى السدة (هي التي سلكنها) والجنوبية تؤدي إلى
ماوية، والغربية إلى إب، والشمالية إلى يريم. وفي رباط القلعة قرب منزل الشيخ
مُحسن علي حسين، ترجلنا ننتظر الجمال التي تخلفت عنا بسبب سيرها البطيء.

(1) يسمى أيضاً الخبي، حسب المقولة الشعبية بأن أبناء المنطقة كانوا يخبؤون فيه جمالهم.
(2) هذا التفسير من المؤلف لا يستقيم، فهو يستند إلى الكلمة التركية Taş التي تعني: الحجر،
ولكن كيف يحمل جبل في اليمَن تسميته بالتركية؟ لا ريب أن جميع أسماء الأماكن في اليمَن
ذات أصول يمنية جنوبية قديمة أو عربية وحسب.

وحالما توقفنا، قام الشيخ بإحضار لحم الخروف المطهو بشكل جيد، والحليب والزبد والخبز. ولم يمانع في شرب الجين الذي كان معي في قربة الماء المعلقة، إلا أنه تذر من عدم وجود البراندي الذي يفضله أكثر. لقد أقام الشيخ محسن علي حسين سنوات طويلة في عدن تعرف خلالها على أوروبين وعقد صداقة حميمة مع الحاج حسين الرحبي. لذلك، وجد من واجبه استضافتي عندما علم بقدومي. ولقد قبلت المبيت عنده إلا أنني لم أستطع أن أحل عليه ضيفاً لفترة طويلة ذلك أنني أريد الوصول إلى صنعاء في أقرب وقت.

جلس هو الآخر على سجادتي (الفردة) بالقرب مني محدثاً إياي طويلاً حول تعاطفه مع المسيحيين وإعجابه بالإنكليز وازدراؤه للأتراك وألمه من وجوده تحت سيطرتهم. وقال لي⁽¹⁾: «إنسالله الفرنجي يقتلوا كلّه هذا التركي». خلال هذا الوقت، مرّت الجمال أمامنا، فلذلك بعد وقت قليل وقفت وحييت الشيخ اللطيف مصافحاً إيّاه بحرارة. وفي الساعة الثانية واصلت المسير نحو يريم (وتقع في وسط اليمَن) حيث وصلنا في الساعة الرابعة والتّصف بعد الظهر.

* * *

تقع يريم على تلة ارتفاعها 2398 متراً. وهي مدينة جميلة تحيط بها الأسوار المنيعة التي تحتوي على أربعة أبواب فقط، اثنين من جهة الجنوب وواحد من جهة الشرق وآخر من الغرب. وفيها حوالي ثلاثة آلاف نسمة.

وكانت المدينة الأولى الحقيقية التي أصادفها في اليمَن. تحتوي يريم على سوق ودكاكين كتلك التي رأيتهما في لحج. إلا أن منازلها مصنوعة كلها من الحجارة والأجر المشوي في التّور مع زخارف تحيط بنافذها الصّغيرة. وبعض واجهات تلك المنازل مصنوع على شكل شطرنج من الحجارة الرّمادية التي تتعاقب مع البنية المحمّرة.

(1) يكتب المؤلف العبارة بالعربية بحروف لاتينية:

Inscia Allah u el-Frengi i kätelu kullo hadha et-Turki.

وأما الجبال التي تشكّل الوادي فكلها جذباء ولا ترى فيها شجرة واحدة. ولذلك فلا يوجد في يريم حطب للتدفئة.

ولإضرار التّار، يلجأ سكان يريم إلى أكوام مستديرة من زبل الجاموس والبقر والماعز والخراف والجمال والحمير والبغال، يخلطونها مع القش أو أي مادة أخرى قابلة للاشتعال.

شاهدت خارج المدينة، في حقل مفتوح، طريقة تحضير تلك التربة الحيوانية. والنساء هنّ من يعملن.

للمرّة الأولى أنزل في سَمَسرة جبليّة. وكانت عبارة عن غرفة كبيرة جداً، مظلمة، تستند إلى أعمدة ذات أقواس واسعة. وفي الدّاخل تبيت الجمال والحمير والبغال والأحصنة مع حمولتها وأصحابها والمسافرين. وبما أن هناك قرب الباب غرفة تخصّص للمسافرين المهمين، فقد قام مقبل بعرض المال على صاحب السّمَسرة. إلا أن هذا الأخير رفض إعطائي إياها أمام توسلاته، ظناً منه بأنني مسافر فقير. لذلك أمضيتُ ليلتي وسط الجمال والحمير وصناديقي وأكياس التّبغ. وفوق تلك الغرفة الصّغيرة يوجد مطبخ ويسكن صاحب النّزل الذي كان طبّاخاً أيضاً.

في المساء بعثت مقبل إلى القائمقام لإعطائه الرّسالة التي حصلتُ عليها من قعطبة، إلا أن أحمد توفيق بك كان قد غادر في الصّباح نفسه مع جنوده لإعطاء درس (كما يفعل الأتراك عادة) لشيخ عربي تخلف عن دفع الضريبة للحكومة التركيّة (مهما كانت غير عادلة ومبالغاً فيها).

طلبت من مقبل الحصول على معلومات عن أحمد توفيق بك، فقال بأن قائمقام يريم هذا كان يعمل في خدمة مصطفى عاصم باشا، أو حاكم اليمّن العام. وكان في السّنوات الماضية قد خان سيّده، فوضعه في السّجن. وبعد أن لجأ إلى المكيدة والاحتيال للخروج من سجن صنعاء، رجع بعد تحرّره إلى سيّده ولكن ليس كخادم وإنما كحاكم ضاحية (مقاطعة). وهكذا أصبح قائمقام يريم. وهو لا يعرف القراءة أو

في عام 1879 كما سنرى لاحقاً، عُزل أحمد توفيق بك مرة أخرى عن منصبه ليودع في السّجن. ثم أُرسِل إلى القسطنطينية ليرفع أمام المحكمة المدنية والدينية جرّاء ما اقترفه في اليَمَن.

في يَريم، وبما أنها مدينة، تلتقي بالنساء المحجّبات. إلاّ أنهن يرفعن الخمار حالما يدخلن البيت أو السّمسرة، حتى لو كان هناك رجال. يبيّن هذا الرّزي مدى الحرّية التي تتمتع بها النّساء من القبيلي ومظهر القسر الذي تخضع له نساء المدن أو النّساء العربيات في صنعاء. ولا يتوقف الأمر على هذا، فلقد بدأت في يَريم بالتّعرف إلى عادات وتقاليدها عاصمة اليَمَن، وهي تتناقض مع سهولة وبساطة العيش عند القبيلي والبدو. ولقد جاءت نساء بدويات لبيع الخبز ونزعن الخمار عن وجوههن أمامي وأمام مقبلٍ وتحدثن معي بشكل طبيعي ومع رجال القافلة.



يوم الجمعة الثّاني عشر من أكتوبر - في السّاعة الخامسة صباحاً كنا نعاود سيرنا. مررنا بالقرب من بثرين قد جفّ معظمهما. ثم دخلنا حوض وادي القاع el-Khàa (نهر يصعب خوضه بسبب الحجارة). وهنا أيضاً لا يوجد زرع. وفي بعض المناطق التي لا تبدو عارية تماماً يوجد بعض الطّحالب الخفيفة.

أخذ طريقنا نحو الشّمال بالانحدار الطّفيف، لذلك فبين يَريم وإبّ وتعرّ كانت الأنهر تلتقي لتصبّ في خليج عَدَن وغرباً في البحر الأحمر⁽¹⁾. وتوجد الجبال أيضاً التي كانت شرقاً جزءاً من السّلسلة الرّئيسية التي تفصل الأنهر التي تصبّ في البحر الأحمر عن تلك التي تضيع في الرّبع الخالي. وهي ترفد من جهة الشّمال الأنهر البعيدة التي تنبثق عن شرقي عَدَن كنهر بَنّا مثلاً.

(1) كتب المؤلّف: لقد تحققت من ذلك من سفري بين تعرّ وإبّ، ومن يَريم إلى صنعاء (من 27 يناير إلى 7 فبراير 1880).

في السّاعة العاشرة والنّصف، مررنا بنقيل فار التّبع Neqil el-far en-nebà (نبيع المياه الحارّة) على ارتفاع 2357 متراً. ولقد سدّت المعبر صخرة انفصلت عن الجبل. ويسمّي العرب هذا الحجر: ضربة علي Dhàrbet' Ali. وتجلب نظر المسافر لما يكتنّ العرب لها من تبجيل، حيث يقبلونها، ويبجلون بقعة الزيت الموجودة في جانبها الأعلى. ويعتبر العرب تلك الصّخرة مقدّسة لأن وراءها أعجوبة حدثت. إذ يقال بأنه في زمن النّبي محمّد (ص)، أرسل صهره علياً إلى اليَمَن لينشر الإسلام بين النّاس. وفي اليَمَن حيث يوجد أتباع لعلي ويسمّون العلويين، يقولون بأن علياً قام بالعديد من المعجزات ويدلّون عليها.

وتلك هي قصة المعجزة: عندما خرج عليّ من يريم، بعد أن خضع سكانها للإسلام، متجهاً نحو دَمار، ماراً بنقيل مكان التّبع، قام الشّيطان برمي تلك الصّخرة من أعلى الجبل محاولاً قتله. فقال عليّ: «توقف أيها الحجر. يا مَنْ تبغي أن تقتل أول تابع للنّبي العظيم، وامكث هنا كشاهد على قدرة الله الواحد». فتوقفت الصّخرة وهُزم الشّيطان.

لذلك فعندما يمرّ العرب بتلك الصّخرة يقبلونها ذاكرين اسم الله ويقوم القبيلي كل يوم جمعة، وهو ذكرى مقتل عليّ، بزيارة الحجر ويسكبون الزيت أو الزّبد بعد تلاوة الصّلوات.

أسفل ذلك المكان بقليل توقفنا في منتصف النّهار في منزل زينة Zèina العجوز (واسم زينة يعني جميلة) وهي قهوجيّة، أي تقدّم القهوة. وكان بحوزتها عدد كبير من الفناجين والأباريق تضعها حول موقد صغير وقوده التّربة الحيوانية. وفي نزل زينة أكلت اللحم البارد الذي أحضرته معي من يريم وشربت عدداً كبيراً من فناجين القهوة السّاحنة التي دقّأت معدتي. بعد ذلك، غادرنا المكان وفي السّاعة الثّانية والنّصف عبرنا دَمار الغار Dhamàr el-Gar* (قلعة دَمار)، وهي حصن يقع على قمة تلة مهجورة هي نقطة حراسة دَمار. وهنا داهمتنا عاصفة، فبدأنا بحث الدّواب على الرّكض. لم نستطع تفاديها، وبدأت الأمطار والسيول تهطل حتى أننا كدنا نسقط على الأرض. ولحسن

* كذا في الاصل ولعل المؤلف أراد دمار القرن وتقع على بعد 4 كم جنوبي دمار ولعلها اليوم متصلة عمرانياً بدمار (المراجع)

الحظ أنني كنت ألبس لباساً عازلاً للماء، لذلك لم أبتل. أما مقبل المسكين الذي لم يكن لديه ما يحميه، فقد وضع غطائي الصّوفي الذي سرعان ما امتص الماء.

دخلنا دّمار في السّاعة الثالثة والنّصف ترافقنا الأمطار الغزيرة، ولجأنا إلى سَمْسرة أكبر وأكثر إضاءةً من تلك الموجودة في يَريم. ولكن لم يكن هناك غرفة خاصة للمسافرين.

وكما في يَريم، أرسلتُ مقبلاً إلى القائمقام ومعه رسالة من مثيله في قَعطبة. فقام حاكم دّمار بإعطائه رسالة أخرى إلى رئيس جمارك صنعاء، كما بعث بأحد أبنائه لتحتيتي وطلب استضافتي وتمضية المساء عنده. رفضت الدّعوة بلطف بسبب تعب السّفر.

* * *

يبلغ ارتفاع دّمار (مدينة العلم والفن) 2328 متراً. وهي مدينة جميلة تحتوي على خمسة آلاف نسمة تقريباً. تحيط بها الأسوار والأبراج، وفيها ستة مساجد وحمّامات للعموم ومنازل جميلة ترى على واجهاتها الزّخارف البيضاء كما هو الحال في منازل صنعاء. وفيها قاع اليهود أو حيّهم في مكان ناءٍ وبعيد عن مساكن العرب.

خلال إقامتي الأولى تلك، شاهدت في السّاحة الكبرى لدّمار مئذنة أو صومعة تميل إلى درجة بدت وكأنها ستقع. ولقد قيل لي بأنها الصّومعة الأقدم في المدينة. وبعد أشهر قليلة، وعقب زلزال وقع ثلثاها. وعندما رجعت إلى دّمار لم أر إلا القسم السّفلي منها وهو ما يزال موجوداً حتى اليوم.

تحوّلت فترة قصيرة في أحياء دّمار النّظيفة، ثم عدت إلى السّمسرة حيث وجدت مقبلاً وقد جهّز لي العشاء.

لقد شاهدت صاحب التّزل وهو يقطع الخشب للوقود. كان يضع قمة قطعة خشب كبيرة على حجر ضخّم ويأخذ صخرة ثقيلة يتركها تقع في مركز الخشبة، وبضربة أو اثنتين يحصل على مراده. ففي كل ضربة تنقسم القطعة إلى نصفين.

زارنا في الليل منشدون وعازفون من القبيلي، وكنت قد استلقيت على الأرض للاستراحة. لذلك طلبت من مقبل إعطاءهم بعض التّقود لينصرفوا. وهذا ما فعلوه

أمام خيبة أمل مرافقي من العرب.

* * *

السبت الثالث عشر من أكتوبر - لم أستطع النوم تلك الليلة بسبب البرد والرطوبة. وفي الساعة السادسة صباحاً، ركبْتُ بغلي وخرجت من المدينة. سرنا إلى أدفق* Adfeq (المياه الزاكدة) وتبعد كيلومترين عن ذمار ووصلناها في الساعة السابعة.

توقفنا لنقرر فيما إذا كان من الأفضل أخذ الطريق الأقصر إلى زراجة، أو الأطول إلى مَعْبَر ووَعلان، فقرّرنا أخذ الطريق الثانية. لأن الأقصر تعني المرور في أراضي القبيلي المستقلين وهم في حالة حرب مع الأتراك. وكان من الخطر التجول بين أناس يعتقدون بأننا أعداء.

وهكذا، وعلى مقربة من صنعاء وبسبب الهيمنة العثمانية على اليَمَن، لم أتمكن للمرة الثانية من المرور بالمدن العربية.

توجهنا نحو مَعْبَر، وبعد ستة أميال تقريباً توقفنا في منزل محمّد أحمد وهو قهوجي تناولنا عنده طعام الإفطار حيث قامت امرأتان هما زوجته وابنته الجميلة وهي في الرابعة عشرة بتقديم القهوة.

وكانت الاثنتان (والأم أكثر من ابنتها) تضعان الحلبي من عقود حلب التي تدلّت منها نقود فضية وخواتم فضية ضخمة وزينت المعصم والذراع والأرجل والأقدام بأنواع المجوهرات والزينة. وكانت الأم قد أصيبت بالرّشح، ولمعالجتها طلبت من أحمد قاسم (رئيس جماليّ الجديد من السّدة إلى صنعاء) الزّيدة السائلة التي سكبها في اليد اليسرى، وبالسّتابة الثّمني وضعت الدّهن عبر فتحات الأنف واستنشقتها بقوة.

غادرنا المكان في منتصف الثّهار، وبعد مرورنا ببلاد جيرة** (التي ينمو فيها العشب الطّويل على ارتفاع 2250 متراً) وحيث يقف جبل جيرة منتصباً على ارتفاع 2800 متر

* كذا في الأصل وصوابه (أفق) وتقع شمال غرب ذبار (المراجع).

** لعلها مايعرف اليوم بمحلة الجيرة بمغرب عنس بمحافظة ذمار (المراجع).

تقريباً، دخلنا بلاد ظهرة* Belàd Darà (والبلد مسوّر على ارتفاع 2205 أمتار). وكان لهذين البلدين واديان يُزرعان بشكل جيد. وعلى يميننا، من جهة يريم، كانت ما تزال جبال اليمّن المرتفعة التي تنفصل عن شمال معبر باتجاه الغرب وتوزّع المياه بين وادي نَعز والعُدّين، وإب وضوران، وبين وادي صنعاء ومناخة وكلها تصبّ في البحر الأحمر: الأولى، إلى جنوب بيت الفقيه، والثانية شمال تلك المدينة.

وبلاد ظهرة مأهولة بالسكان أكثر من جيرة. وهذا يعود إلى أنها خلف جبل حدّا Gibèl Khaddà الموجود على الجهة الغربية، تحدّد بلاد ظهرة أودية بلاد المنشية الخصبة وضوران وآنس، وهي شديدة الخصوبة كوادي بَنّا. ومن بلاد ظهرة يأتي أغلب المزارعين الذين ينزلون للعمل في أراضي تلك الأودية.

في السّاعة الرّابعة والنّصف وصلنا مَعْبَر (الذي يتم عبوره على ارتفاع 2210 أمتار). وهو عبارة عن بلدة صغيرة تتكون من عشرين بيتاً، وبتنا ليلتنا الأولى كالمعتاد في سَمْسرة. ولقد حدّثني العرب الذين كانوا بصحبتني عن الكثير من الطّباع الوعرة بتلك البلاد، وعن شراسة النّسوة، حتى ابنة صاحب السّمْسرة التي نزلتُ فيها كانت معروفة لدى الجميع بأنها سُجنت في صنعاء بسبب مشاكل عديدة.

في المساء تطوّع بعض عرب معبر بحراستي في الليل، ذلك أن البلد بأكمله كان يمتلئ، كما قيل لي، بالقبيلي من زراجة. ولقد أحببتهم بمنتهى الهدوء بأنني لو تركتهم يحرسون داخل غرفتي، أكون ربما، أو دون كلمة ربما، قد أدخلت العيّارين إلى عقر داري. أمّا إن أرادوا حراستي خارج غرفتي، كنت سأشكرهم وأعفيهم من الانزعاج. فبحوزتي بندقيتان ومسدس ذو ست طلقات. فهموني جيداً وغادروا المكان، وأمضينا ليلتنا بهدوء.

لقد ظنّ عرب معبر أولئك بأنني ربما أعطيهم ريالين أو ثلاثة talleri لقاء حراستهم. وأنهم بعد نومي سيذهبون وقد حصلوا على مالي.

* * *

* لعلها ما يُعرف اليوم بمحلة (الظهرة) بمغرب عنس بمحافظة ذمار (المراجع).

الأحد الرابع عشر من أكتوبر - في الساعة السادسة صباحاً كانت القافلة تنهياً لمغادرة المكان. صعدنا نحو ضفاف وهو مكان استراحة الجمال. ثم تابعنا مسيرتنا في ممرّ يكار الجبلي الضيق (واديّ ذو مياه مالحة ونباتات رديئة) حيث تبدو قرية التّقليل (البلدة المرحودة في الممر على قمة جبل صغير وكأنها محمية). في حوالي الساعة التاسعة والنصف، وصلنا أسفل الجبل (2327 متراً) وبدأنا نرتقي نقيلاً الحسل * Neqil el-Hèssel (شديد الميل) على طريق عرضه ثلاثة أمتار ومعبد ذي حجارة زرقاء داكنة وقد تهشم جزء منه من جرّاء مرور المياه⁽¹⁾. وبدأت التّعرجات مريحة للتسير بسبب تخفيفها لحدة الميل.

في الساعة العاشرة والرّبع، وصلنا قمة الممر (2620 متراً) ولم يكن هناك منظر كبير بسبب الجبال المحيطة به التي ارتفعت حوالي 200 متر عن المَعْبَر، أي يبلغ ارتفاعها الإجمالي حوالي (2820 متراً) تقريباً.

نزلنا بعد ذلك بِصَيْد (2395 Bisèdd متراً) وهي بلدة صغيرة. وفي منتصف المسافة وصلنا بيت الثّوم الأخضر (منزل المزارع، 2330 متراً) وبلدة أخرى توقفنا فيها كالمعتاد في منزل لنستريح وننتظر الجمال البطيئة التي كانت تعبر جبل يسلمح.

ووادي بيت الثّوم الأخضر Bet eth-Thtùm el-khodàr مزروع بأكمله بالقَضْب⁽²⁾ (el-gadhb) trifoglio الذي ينمو جيداً بسبب ريّه بماء الآبار. يُجمع القَضْب بعد ذلك ويباع في صنعاء.

تدعى البلدة هنا بلاد جهران، وتمتدّ من جبال يسلمح حتى قسم من شمال وعلان (الضيافة الحسنة). وهنا تبدأ منطقة سِنحان المتاخمة لصنعاء.

(1) كتب المؤلف: كل طرق الجبال من صنعاء إلى يريم وإب وتعرّضت حتى ماوية معبدة. ولقد قيل لي بأن الأتراك هم الذين فتحوها بعد حملتهم الأولى واستقروا بهم في اليمن. أي منذ حوالي مئتي عام.
(2) هكذا يُعرف هذا النبات في اليَمَن، وهو من الأعلاف الغضة المهمة، ويسمّى في بعض البلدان: البرسيم الحجازي.

* كذا وصوابه نقيلاً يسلمح، وهو نقيلاً مشهور يطل على جهران من جهة الشمال (المراجع).

وطريقة العرب في استخراج المياه من الآبار لري مزارعهم في غاية الذكاء. سواء في ذلك لحج أو صنعاء أو أي مكان من اليمن، فحيث لا تجري المياه، هناك طريقة واحدة للري وهي عن طريق حفر الآبار الواحد تلو الآخر. وأمام كل بئر يُحفر حوض واسع وعميق. ويبلغ عمق الآبار في بيت الثوم خمسة عشر متراً. وأمام الحوض طريق منحدره تنزل قليلاً عن مستوى الأرض سبعة عشر أو ثمانية عشر متراً، أي مترين أو ثلاثة عن عمق البئر. وتسير البغال والحمير والجواميس نزولاً جارةً الجبل الذي يجلب قرب الماء للري، وصعوداً لإدخال القرب في الماء.

والقربة هي عبارة عن كيس من الجلد أسطواناني الشكل ينتهي أسفله على شكل جذع فتحت فوهته. ويُربط حبل من الجهة العليا للكيس الذي يترك مفتوحاً بقطعة من الخشب (عبارة عن عجلة ذات أربعة أوتار فقط). يمرر الحبل بعد ذلك فوق دعامة رُبِطت إلى عارضة تستند إلى جدران البئر وحبل آخر يربط من الجهة السفلى للمخروط وبطول محسوب يُترك مقلوباً إلى الأعلى على نفس مستوى الفتحة العليا المستديرة للكيس. يمرر هذا الحبل الثاني فوق دعامة موجودة أسفل الأولى. وبذلك الطريقة تنزل أكياس البئر وترتفع.

عندما يرتطم الجزء الأعلى لأحد الأكياس بالدعامة العليا، أي عندما توجد الحيوانات التي تجر المياه أسفل المسار، تقوم الفوهة السفلى للأسطوانة بإلقاء الماء فوق الحوض بواسطة الحبل المعلق بها. وبعد إملاء الحوض، يُفتح لري الكمية المطلوبة من الماء في أقنية خاصة تؤدي إلى الحقول.



غادرنا المكان حوالي الساعة الثانية، وبعد نصف ساعة بدأ مطر خفيف بالهطول ورافقنا حتى وعلان (2270 متراً). وهي بلدة تتألف من عشرة بيوت، وصلناها الساعة الرابعة وبتنا فيها الليلة.

إن سكان تلك البلاد (من ذمار إلى صنعاء) يُعرفون عند القبيلي والعرب بسمعة

عجفاء وبكونهم عيّارين. ولقد تعرضت لإحدى مكائدهم. كان رجال آخرون قد جاؤوا للميت في السَّمْسرة نفسها التي كنت فيها، ولقد قيل لنا إنه يتعذّر الحصول على الدّجاج والبيض في ذاك الصّباح، لذلك قرّرنا مجتمعين شراء خروف سمين يُخصّص نصفه لي ولجماعتي والنّصف الآخر لمن تبقى من الرّجال. أخذت القطع المخصّصة لي، وهي ست بما فيها القلب والكبد والكلّى للعشاء ولإفطار الصّباح، وأعطيت مقبلاً ما تبقى له وللآخرين. وأعطيت صاحب النّزل صالح عباه Abbàh قطعي الشّت.

عندما أنهى طهي القطع، لم يحضر لي صالح إلا أربعاً فقط. كان ينقص منها القلب والكلّى وقطعة من العضل، فطلبت منه تفسيراً لتلك السرقة. تعجّب في البدء وبدأ يقول بأنّي أنهمم بالسرقة وبعد ذلك بدأ يثور ويقول بأنّي أشوّه سمعته. وباختصار وبعد أن بدأ الشّجار يحتدم بينه وبين مقبل قلت له (بالعربية): «اسكت أبرك قلت لك.. ما تردّ حتى كلمة.. الله يحاسبك الرّب لجهنم!..» تعجّب من كلماتي باللغة العربية وسكت، فقلت له بأنني عندما أصل صنعاء سأكلّم الحاكم لأخذ حقّي. فاعتذر لي قائلاً بأنّه بالخطأ وبسبب الفوضى في ذلك المساء قد تصرّف عن غير قصد. ولكن عندما علمتُ فيما بعد بأن تلك القطع قد باعها لأشخاص من السَّمْسرة، لم أدفع له في الصّباح حقّ الإنارة ولا الكراء، فاستسلم للأمر.

في المساء ظهر شعاع شمس ملقياً ضوءه على الغيوم ملوناً إياها بالأصفر الشديد بحيث تحول كل شيء إلى أصفر: الأرض والجبال والبيوت وحتى الرّجال. كان أثره جميلاً جداً، دام ربع ساعة على الأقل. قلت بأنّ إعلان تعني (الاستقبال الحار) وأن سكانها أو على الأقل الفهوجي صالح أتاح لم يشرفوا اسم بلدتهم.

* * *

يوم الاثنين الخامس عشر من أكتوبر - في الصّباح الباكر ركبنا دوابنا راكضين بعيداً عن إعلان، وكانت تفصلنا عن صنعاء خمسة وعشرين ميلاً. لم يبقَ لدينا إلا اليوم الأخير من السّير.

تركنا قرية الماوره Mâur على يميننا (حافة جدول) وعلى يسارنا رأس وعلان.
مررنا بعد ذلك قرب عدد من القرى ووصلنا الساعة العاشرة إلى المحاقرة (مكان
محصن بالحجارة) زرع كل واديه بالقصب. وهنا توقفنا بعض الشيء.

ثم تابعنا السير، وبعد نصف ساعة دخلنا حزيز*، ومكثنا فيها حتى الساعة الواحدة ظهراً
وذلك في بيت الحاج علي، منتظرين الجمال. وتناولنا طعاماً خفيفاً.

يبدأ الغيل (النهر) الأسود⁽¹⁾ من حزيز مزوداً صنعاء بالماء وذلك بعد أن ينحدر
قرب المدينة بالنهر الآتي من جبل حدة⁽²⁾ غرباً.

في الساعة الثالثة بعد الظهر، وبعد أن انطلقنا على ظهور الدواب نعدو بشكل
سريع، دخلنا باب اليمن في مدينة صنعاء الشهيرة والكبيرة التي كانت بالنسبة لي
كأرض الميعاد، أو على الأقل المكان الذي كان باستطاعتي الاستراحة فيه والشفاء من
جميع الأمراض التي ألمت بي في طريق سفري الأول هذا.

* * *

(1) الغيل الأسود: أصل مخرجه من قاع أرتل تحت غيل آلاف، وكان نهراً يشق صنعاء من جانبها
الغربي ومنابعه من سفح الجبل المعروف بحدّين جنوبي صنعاء على مسافة ساعة، وأكثر سقيه
في شعوب شمالي صنعاء.

(2) تقع حدة حالياً في عزلة حزة صنعاء، وتبعد عنها حوالي 5 كم إلى الجنوب الغربي، وهي
إحدى أشهر منتزهات صنعاء.

* حزيز: موضع في منطقة سنحان جنوب صنعاء (المراجع).

الفصل الثامن

الفصل الثامن

صنعاء - الانطباعات الأولى - منازل - قنوات رديئة الصنع - وجدت منزلي - ليلة
مقبة - الحشرات - سقطت من على التبرير المعلق (الأرجوحة) - دهانون وعمال الطلاء
- زيارتي للسلطات.

من 15 أكتوبر 1877 وحتى مارس 1878 - حالما وصلت صنعاء الرحبة، ذهبت
إلى مخازن الربالي وفيها العربي حسين بن أحمد الرحبي، ابن أخي الحاج حسين
الرحبي في عدن، الذي وضع عدداً من الغرف تحت تصرفي. وبعد وقت قصير ذهبنا
إلى الجمارك حيث طلب مني حافظ⁽¹⁾ أفندي l'Hàfuth Effendi رئيسها وبلطف نقل
جميع صناديقي إلى مخازن حسين لأنه لا يستطيع رؤيتها إلا في اليوم التالي. ولقد
أعطيته مفاتيحها، إلا أنه امتنع احتراماً.

في اليوم التالي جاءني حافظ أفندي إلى مخازن الربالي وتفحص عدداً من الصناديق
ويبدو أن رسالة قائم مقام قعطبة قد أعطت مفعولها.

وبما أنني قلت لحافظ أفندي بأن القسم الأعظم من متاعي هو معدات التصوير،
فقد طلب مني بالحاح أن أصوره. وبالطبع وافقت وحافظت على عهدي. وبعد أن

(1) هكذا يبدو بحسب ما يكتب مانزوني الاسم بالإيطالية: Hafuz على اعتبار أن الرجل تركي،
واسمه يلفظ في التركية: Hâfiz والحركة بين الفاء والطاء ليست بكسرة، بل تشبه ضمة خفيفة.

أنهيت أعمالي في الجمارك المركزية اليمينية، انصرف تفكيري الوحيد إلى البحث عن منزل أستطيع من خلاله الإقامة والبدء بدراساتي وأعمالي باطمئنان. لذلك أمضيت أياماً عدة أبحث عنه وكان حسين بن أحمد الرحبي يصاحبني في تجوالي باستمرار. وكوّنت فكرة عامة أولى عن مدينة صنعاء وجمعت معلومات وأخباراً هامة.

وتلك هي أولى انطباعاتي أنقلها كما وجدتها في دفتر مذكراتي:

تبدو لي المدينة جميلة جداً: بيوتها رائعة وكبيرة - كلها مبنية بالحجارة المصقولة والآجر المشوي بشكل جيد. وهي متينة لونها محمرّ وحجمها أكبر من تلك التي نجدها في الخرائب الرومانية.

الشوارع الواسعة الجميلة نظيفة، والمنازل العالية ذات الخلفية الرمادية للحجارة والبنيّة المحمّرة للآجر مع التوافد المزخرفة بما يشبه التطريز الأبيض تعطيها سحراً خلاباً في ضوء القمر - وعندما أجد نفسي في حيّ صالة القهوة التركية والدكاكين الإغريقية، يخيّل إليّ بأنني في حيّ أوروبي.

يشبه البازار العربي سوق المغرب: ترتفع الدكاكين الصغيرة متراً ونصف المتر عن الأرض، والعربي بداخلها محاط ببضائعه الكثيرة مما يجعلك تتحرّك فيها بصعوبة.

ألتقي في كل مكان بجنود أتراك. وما يدهشني هو تعاطفي المتزايد معهم. فهم فلاحون ابتعدوا عن منازلهم ووطنهم وعائلاتهم. وأما طريقة معاملتهم للعرب الذين يخضعون لسيطرتهم فهي حسنة ولم ينشب معهم أيّ شجار أو خلاف. بل كانوا يتبادلون التحيّة دائماً.

العرب الذين أصادفهم أنيقون وقورون ولا يكثر ثون لوجود أجنبي بينهم. وكانوا بعض معارف حسين يلقون التحيّة ويسألونه عن هويتي ثم يحيونني مصافحين.

لا ألتقي إلا بنساء محجّبات، وهذا لا يروق لي.

هناك الكثير من الكلاب في الأحياء وخاصة في الساحات، تجلس تحت الشمس.

التقي بالكثير من الضباط الأتراك الذين يتركون بعد مرورهم رائحة زكية من السجائر التي يدخنونها باحتراف فنان.

يعجبني كبر المساجد.

التقيت مرة بطبيب يوناني، أتاناساكي أفندي Attanasàki Effendi، قدّم لي فنجاناً من القهوة وأصبح فيما بعد من أعزّ أصدقائي.

وعلى ذكر اليونان، لديهم دكاكين ممتلئة بأنواع البضائع، وهي موجودة في البازار الذي يقع شرقي السوق العربية. وفي تلك الدكاكين وجدت أعواد ثقاب وورقاً يُعد للتبغ وعلب سردين وشموعاً وملّماً للأحذية وجبناً وأرزاً وبطاطا وزيتوناً وصابوناً وجوزاً وبنديقاً ولوزاً وزجاجات مخلّل (كبيس الخل) ومشروباً من كل الأصناف: الخمر والبيرة (الجمعة)، وبسكويتاً وحلويات وآلاف المواد الغذائية الأخرى. وفي بعض تلك الدكاكين الإغريقية في صنعاء تباع الألبسة الجاهزة والقمصان والسرّاويل والجوارب وكافة أنواع الملابس الدّاخلية. وفي دكاكين أخرى تباع العصي والمظلات ومصابيح البترول والشّمعدانات والكؤوس والزجاجات والأدوات المنزلية والصّحون الفخّارية والمرايا. وباختصار، ففي صنعاء كل ما يلزم الأتراك وعائلاتهم.

كل تلك المواد المستوردة تعود لليونان الذين كانوا يعملون في البدء في قناة السويس. وبعد انتهائهم منها انتشروا في سواكن في السودان ومصوّع في إثيوبيا والحديدة في اليمن. وهنا جاؤوا ومعهم كمية كبيرة من المواد التجاريّة. وهي تفي بحاجات الأتراك حصراً، لذلك كان إدخالها سهلاً. وبذلك الطّريقة، كما قيل لي، يجني اليونان الكثير من المال. ولقد تأكّدت من تلك الحقيقة لاحقاً.

في البازار قهوتان تركية وقهوة يونانيّة فيها البلياردو، ودكانان للحلاقة وثلاثة دكاكين للحياكة وساعاتي واحد⁽¹⁾.

(1) كتب المؤلف: لقد لاحظت في يناير 1880 أن عدد صالات القهوة قد ازداد، فهي الآن ست. ودكاكين الحلاقة أصبحت أربعة. والخيّاطون والسّاعاتية أصبحوا خمسة.

يترأس البلد حاكم عام لليمن، هو سيادة المشير مصطفى عاصم باشا. وهو مسلم من كانديا Candia، ابن مسيحي اعتنق الإسلام وأصبح باشا يانينا Yannina وطرابلس الغرب.

ومصطفى عاصم هذا، شخص مثقف ومتعلم. يتقن الفرنسية ويتكلم بها بطلاقة. وعاداته وتصرفاته نبيلة.

وبعده يأتي حاكم صنعاء، رئيس المجلس وهو باشا؛ سيادة إسماعيل حقي Ismàll Hàqqi حاكم المونته نيغرو Montenegro الذي أمضى شبابه في المؤسسات العسكرية الفرنسية في باريس. وهو رجل في منتهى التبل.

أما رئيس الحملة العسكرية فهو قائد الكتيبة حامد موصلي باشا. وهو سوري. ويوجد رئيس الوحدات المسلحة ورئيس الأركان.

وهناك رئيس المراسلات، أو مكتوبجي أفندي⁽¹⁾ Mektupci Effendi، إسماعيل بك من سكوتاري في ألبانيا. وهو يتقن اليونانية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية. وهو لطيف بالإضافة إلى كونه مثقفاً.

وهناك مركز البرق (التلغراف) الذي يصل خط صنعاء بالحديدة. وكان سيتصل بعدن، إلا أنه تعذر بناؤه بسبب الحرب. ولنفس السبب تعذر إنشاء طريق معبّدة تصل إلى الحديدة.

وهناك مشفى عسكري رائع وثكنات للجنود⁽²⁾.

(1) ترد العبارة في الأصل الإيطالي بالغلط: Meftupci Effendi ويبدو أنه خطأ سماعي لم يستطع مانزوني تمييزه. أما كيفية لفظ حرف c بآخر الكلمة فهكذا: مكتوبجي، على اعتبار أن هذا الحرف في الإيطالية إن جاء متبوعاً بحرفي العلة i أو e لُفّظ: ج (تش).

(2) من المهم الإشارة إلى أنّ الفترة التي زار بها مانزوني اليَمَن كانت توطّر أزهى مراحل الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، وهي ما يُعرف بعهد التنظيمات الخيرية الذي امتدّ بين 1839-1908 وانهجت فيه الدولة مبدأ الإصلاح وإعادة بناء الإدارة المدنية والجيش وفق الأساليب الأوروبية الحديثة. ولذا فليس من الغريب أن يلحظ المؤلف أنّ الحكام الأتراك كانوا يومها من

والبريد بين صنعاء والحديدة منتظم. ويتم أسبوعياً.

يوجد مركبة واحدة في المدينة تابعة للمشير، يجزّها حصانان رائعان أبيض اللون.

وهناك جياد عربية رائعة وحمير تركض وتطارد كالخيول.

لقد كتب كُرتندين Cruttenden يصف صنعاء في طبعة Des Vergers⁽¹⁾. ولو أن هذا الرجل قد شاهد المدينة بالفعل، فلا بدّ أنه رآها مضاعفة: فأين هم الأربعون ألف نسمة في صنعاء؟ وأين هي المساجد التي تتنافس فيما بينها أناقة وثراء؟ والقبب المذهبة والتوافير العديدة التي ترطب جوّ المدينة وتجلب الماء من الوادي؟ أين هي هذه المدينة الحديثة؟

لا يوجد في صنعاء إلا موزّع واحد للمياه أنشأتها الحكومة التركية مؤخراً، وهو ليس نوافير بل آبار توزع المياه بالطريقة التي وصفتها سابقاً. وكيف تكون صنعاء الواقعة على ارتفاع 2130 متراً بحاجة إلى الرطوبة أو البرودة؟ هنا يتركون التوافذ مغلقة لأنه الجو يكون دافئاً في الشمس، أما في الظل فهو بارد. وفي بيوت الأتراك تغلق التوافذ الزجاجية، حتى تلك التي تتجه جنوباً.

الجو في الحديدة وعَدَن والساحل كله حار، ولكنه ليس كذلك في صنعاء بالتأكيد. وماذا يمكن للوادي الحجري الجاف أن يخزن من ماء؟ ناهيك عن المساجد الأنيقة ذات القبب المذهبة! أحلام... انظروا إلى صوري التي عرضتها.

يبدو أن كُرتندين لم يذهب أبداً إلى صنعاء. وتدل على ذلك الصّفحة الحادية والثلاثون من كتابه: «إن جفاف الجوّ في مكّة لا يضاهيه إلا جوّ صنعاء. فليس هناك حتى الندى في الليل. وتضرب الرّيح الوجه واليدين عندما تكون عارية وتعطيك شعوراً بالحمّى. وليس

خيرة رجال الدولة، وتتسم إدارتهم بالنظام والرفق.

(1) انظر:

L'Univers, ou Histoire et Description de tous les Peuples, de leurs religions, moeurs, coutumes, etc. – Arabie, par M. Noel de Vergers. Paris, Firmin Didot Freres.

من التآدر في الأودية أن تصل حرارة الترمومتر إلى الأربعين. ولا تهبط الحرارة إلا في الليل. من شأن تلك الحرارة العالية في كل ساعات النهار أن تمتص كل طاقتك وحيويتك وتشعر أعضائك بالخمول والارتخاء، وتهدم صحة حتى الأقوياء من الناس».

لربما انطبق هذا الوصف على الأودية المجاورة للبحر وليس على تلك البعيدة. إن مسافة خمسين ميلاً عن البحر كافية لأن تجعل أودية اليمَن باردة نسبياً، ذلك أنها مرتفعات حقيقية.

لكن هناك ما يصدم المسافر عند دخوله صنعاء مباشرة، ولم يقدّم أي شخص زار المكان بذكره. وهو أن أقنية تصريف المياه القدرة من المنازل (مياه المطابخ والمغاسل القدرة، الخ) خارجية ومحفورة في الجدار. ولكنها مفتوحة دائماً.

وباستثناء بعض المنازل التركية الفخمة، فكل بيوت صنعاء تحتوي على خطوط بيضاء هي ممّر تلك الأقنية الخارجية على الجدران، ويُشاهد وسطها انسياب الماء الوسخ من الأعلى الذي يتجه شاقولياً نحو الأسفل ليتجمع في حوض يجمعه ليسوقه عبر قناة صغيرة للتخلص منه في جوف الأرض.

لم أر في حياتي ما يدعو إلى القرف والشّعور بالإعياء أكثر من هذا المشهد. فبالإضافة إلى تلويث الهواء بالرائحة وتناقضه مع الزخرفة الأنيقة للمنازل، فهي تخذش شعور المسافر الأوروبي الذي يصل لتوّه من الخارج. ويبدو لي من المستحيل عدم ذكر هذا الأمر البديهي لمن زار المكان.



أخيراً، وفي ساحة صغيرة بين مسجد ومدرسة الطواشي المواجهة لبيت إسماعيل حقي باشا عثرت على منزل مريح مؤلف من ثلاثة طوابق واثنتي عشرة غرفة ودرجين وإصطبلين وحديقة صغيرة. كانت أجرة هذا كلّه أربعة Talleri في الشهر.

إلا أن مسكني الجديد هذا كان مهجوراً منذ فترة طويلة، لذلك كانت الفوضى تعم أرجاءه. وكان وسخاً ومليئاً بالغبار. فانصرف اهتمامي الأول إلى تنظيفه وترميمه

وطلائه. وأرسلت حسيناً يطلب الدّهانين، بينما كان الحمالون يكنسون الدّرج والغرف. إلا أن الدّهانين كانوا منشغلين، وبسبب تغيّهم أمضيتُ ليلة رهيبة.

فبعد حلول الظلام، استلقيتُ على بعض السّجاد لأنني لم أتمكن من تحضير سرير بعد. ولم أكد أطفئ الأنوار لأنام حتى داهمتني الحشرات من كل حذب وصوب. فنهضت على قدمي ورأيتُ صفوف الحشرات اللعينة تمتد كالتمل على طول الجدران والسّقف والأرض. ولم تنتهِ الصّفوف لأنها تخرج من فجوات الجدران.

بدأت أطاردها وأدوسها بالحذاء. وذهب كل ذلك هباءً، ذلك أن الضرب بالحذاء كان ينبّه الحشرات الكسالى ويحثها على الخروج بسرعة من الفجوات. تركتها إلى مصيرها وثبتتُ مسمارين على جدران الغرفة واضعاً السرير الأرجوحة. ومن صناديقي التي لم تدخلها الحشرات بعد، أخرجت ملابس داخلية لبستها بعد أن أحطت نفسي والحبال بفلفل ناعم ثم استلقيتُ لأنام.

لم تزعجني الحشرات في سريري المعلق ونمت. وبعد وقت، شعرت بألم في أسفل ظهري فاستيقظت. كان هناك مسمار قد خرج من مكانه، فأوقع الأرجوحة. ولم تنتظر الحشرات كثيراً، إذ سرعان ما داهمتني. فأقلعت عن النّوم في تلك الليلة واكتفيت بالمشي على السّطح.

أخيراً جاء الصّباح ومعه المعمارليون والدّهانون. وقام المعماريون، بطلب مني، بفتح باب بين غرفتين. كما بنوا تنوراً لإنبيقي. ولم يكن لديهم من المعدّات سوى المطرقة، وشكلها بدائي، لكسر الجدار المصنوع من الآجر. كان الصّبية يأخذون الجصّ بأيديهم، ذلك أن الكلس لا يُستخدم في صنعاء، وكانوا يخلطونه بالماء. وكان المعماريون يأخذونه هم أيضاً بأيديهم ويضعونه في المكان المناسب. وكان الدّهانون يحضرون الجصّ الأبيض بأيديهم أيضاً في جرّة من الفخار. وعند انتهائهم من واحدة كانوا يأخذون الثانية وهكذا. ولقد أردت أن أضيف إلى ماء الخليط كمية كبيرة من حمض الفيناكين لأنني لم أقنع بأن الجص البسيط سيخلصني من الحشرات نهائياً. وحصلت على النتيجة المرجوة.

لا يمتلك الدهانون في صنعاء الفراشي، بل يدهنون بقطعة نسيج بالطريقة التالية: في نصف قرعة فارغة على شكل المندولين، يضعون الماء والجص الذي حضّره الصّبية. يمسكون القرع باليد اليسرى ويغمسون النسيج باليد اليمنى ثم يدهنون الحائط على أنها قطعة الإسفنج. إلا أن لديهم سلماً كسّلّمنا يسندونه إلى الحائط. ولدهن السقف يلجؤون إلى طريقة أغرب. فبعد ملء القرع باللون الأبيض، يأخذونه بأيديهم، وبحركة نصف دائرية يلقون الدهان على السقف من الأسفل إلى الأعلى فتساقط آلاف القطرات. لذلك تتلطح أذرع وثياب ووجوه ورؤوس الدهّانين حتى يبدوا وكأنهم وضعوا أقنعة من الدقيق.

أما في المغرب، فمن يقوم بعملية الطلاء هم اليهود، إلا أنهم مزودون بالفراشي المثبتة إلى عصي طويلة كتلك الموجودة عندنا. كما أن هناك الدلو الذي يضعون فيه الكلس الأبيض.

وبعد طلاء السقف، تُدهن الأرض أيضاً. وعندما يجفّ يُحك بشدة بأغصان القصب el-gadhb الأخضر، ذلك أن عصارته طاردة للحشرات، هكذا يقولون!

خلال نهار واحد، تُنظف منزلي وأصبح مستعداً لاستقبال باقي أمتعتي التي تركتها في المخازن. وفي اليوم التالي ساعدني خدمني على ترتيبها وجّهزت شقتي.

انتقيت مكان لإقامتي بالطّبع الطابق العلوي، وذلك كما جرت العادة عند العرب، على اعتبار المكان الأعلى من المنزل أفضلها. فغرفته أكبر ونوافذه أوسع.

كان طابقي الثالث أو الأعلى يحتوي على أربع غرف كبيرة تفضي إلى سطحية جميلة حولتها فيما بعد إلى صالة تصوير. حوّلت واحدة من تلك الغرف الأربع إلى غرفة استقبال، والثانية إلى غرفة نوم، والثالثة إلى مخبر الصّور الإيجابية، والرابعة إلى مخبر الصّور السلبية.

وفي غرفة الاستقبال التي استخدمتها كمكتب أيضاً، وضعتُ طاولة وكرسيين طلبت صنعها خصيصاً في صنعاء. أما غرف التصوير، فقد جعلتها، بفضل دعومات وعوارض، على الطراز الأوروبي.

أما باقي المنزل فكان مخزناً لأمتعتي وغرفاً لخدمتي.

ولقد كوَّنتُ مجلساً من صندوقين وضعت فوقهما فراشاً ألقيت عليه قماشاً قطنياً متعدد الألوان، كنت قد أحضرته من عدن.

وفي غرفة النوم، وضعت صندوقين فارغين وركزت باب مخزن المنزل عليهما وفراشاً ووسائد وأغطية كوَّنت سريرى. وعلَّقت على جدران الغرفتين نسيجاً قطنياً ملوَّناً أحضرته من عدن أيضاً وثبَّته بالمسامير. وألقيت على صناديقي كلها نسيجاً قطنياً أوحى بالفخامة والثراء. وكذلك الطاولات والكراسي كلها غطيتها بالأقمشة القطنية.

* * *

مكثتُ في صنعاء في المرة الأولى مئة وستين يوماً: من 15 أكتوبر 1877 وحتى 22 مارس 1878.

ولكى لا أرهق القارئ برتابة الحياة اليومية المتكرِّرة، سأتكلم باختصار عن الطريقة التي استُقبلت بها في صنعاء، ثم أنتقل مباشرة إلى الفصول الأخرى المتعلقة بوصف المدينة وعاداتها وتقاليدها.

وبما أنني أردت تصوير المدينة صورة بانورامية، فكان من واجبي تقديم نفسي وأخذ موافقة الرؤساء. وقد شجعتني المقابلة اللطيفة التي قوبلت بها من قائمقام قَعطبة وذمار ورئيس الجمارك والضباط العديدين الذين تعاملت معهم. لذلك ففي الثامن والعشرين من أكتوبر قدَّمتُ نفسي للباشا الرئيس Rèis Pascià سعادة إسماعيل حقِّي باشا S. E. Ismàil Haqqi، وحسناً فعلت. لقد استقبلني بمتهى اللطف والمودة موحياً لي بالثقة. وعندما علم سبب زيارتي وعدني بالمساعدة والحماية. ولقد تكلمنا لأكثر من ساعة.

لم يُسمح لي فقط بالتصوير، وإنما طلب مني تصوير منزله أيضاً مع حديقته. وبمتهى اللطف طلب من ابن أخيه⁽¹⁾ إسلام أفندي Islâm Effendi أن يكون تحت

(1) العبارة بالإيطالية: nipote وهي لا تدلّ بدقة إن كان ابن أخيه أو ابن أخته.

تصرّفي. ولم يتوانَ هذا الأخير عن عرض خدماته. كان يعاملني بالكثير من الودّ وأصبحنا أصدقاء. يتكلم إسلام أفندي الفرنسية ويكتبها بطلاقة ويعرف التاريخ المدني والطبيعي والفيزياء والكيمياء والحساب. وهو شاب ذكي جداً. كما أنه أصبح تلميذي في التصوير وعلمني بدوره اللغة التركية.

ولحسن الحظ فإن منزلي كان كما قلت قريباً من منزل الباشا، لذلك أستطيع القول بأنني شاركته هو وإسلام إقامتي في صنعاء.

* * *

كانت الجولة الأولى التي قمت بها مع إسلام أفندي هي بالطبع مشاهدة منزل عمّه ومكتبته الغنية.

في اليوم التالي، وكان الحادي عشر من نوفمبر 1877، ذهبنا معاً لمشاهدة قصر سلطان قديم تحوّل إلى ثكنة للجيش. وكان أحد أجمل صروح اليَمَن.

وفي الثاني والعشرين، زرنا جبل نقم، وكان بصحبتنا السيد جوفائي ستيرياديس signor Giovanni Steriades ويانكو أفندي Yanko Effendi ورائد في السلك الطّبي، وكانت رحلة استجمام حقيقية جمعتُ خلالها بعض الحجارّة والأغصان. ومن قمة 540 متراً عن صنعاء أي حوالي 2670 متراً عن سطح البحر تمتعنا بمنظر بانورامي خلّاب على وادي صنعاء والجبال التي تحيط به كالتّاج. وفي الساعة الثانية بعد الظهر سجل التّرمومتر 16 درجة مئوية وكان الطّقس بارداً.

وهكذا رأيت كل وادي صنعاء، وبدت أيضاً مدينة الرّوضة.

وبعد أيام عديدة جاء معنا حافظ أفندي وعمر أفندي، وهو تاجر ثري، وذهبنا لعدة ساعات باتجاه هضاب حدّة في وادٍ غني بأشجار المشمش والجوز. وشاهدنا شلالاً يسير طاحوناً جميلاً صنعه الأتراك وكان عدد قليل من الجنود بقيادة شاويش يطحنون. ولقد أمر إسلام أفندي موسيقيي الجوقة التركية بالعزف حال رجوعنا، لذلك استمعتُ إلى مقطوعتين.

وكاملة على السلوك اللطيف الذي حظيت به وأحب أن أذكره ما يلي:

إبراهيم بك، كابتن القوات العليا وتلميذي في التصوير، في مناسبة استضافني فيها على الغداء عرض قالباً من الحلوى التركية عليها عبارة: *Evviva l'Italia* «تعيش إيطاليا» كتبت بالإيطالية وبدون أخطاء. فصافحته بحرارة قلبية.

في مساء الأحد الثالث والعشرين من ديسمبر 1877، تلقت دعوة إلى غداء رسمي عند البابا الرئيس Rêis Pascià وكان عنده عدد من الكولونيلات ورئيس القسيسين. وبما أن ذلك اليوم كان عيداً هاماً عند الأتراك وهو ذكرى توليهم السلطة، فقد فكرت في إنارة حديقة البابا بالمغنيزيوم.

في منتصف السهرة، رفع البابا الرئيس كأس البوردو مع سيادة إسماعيل حقي وقال متوجهاً إليّ⁽¹⁾: «أشرب نخب ازدهار وتقدم إيطاليا، ونخب صحة وسعادة ملكها فيتوريو عمانوئيل الثاني».

وهكذا وقبل يومين من أعياد الميلاد من عام 1877 وفي قلب اليمن شرب نخب ملك إيطاليا النبيل الذي يحيي اسمه شعبه البعيد عنه. فما كان مني إلا أن أجبت بأنني أشرب نخب تركية ومليكه ونخب نصرهم.

ولقد وضعت بعد ذلك مكاتب القوات العليا اليمنية تحت تصرفي وكذلك الخرائط التي استعملتها بيسر.

وظهرت في صوري حدائق الأوردي⁽²⁾ Hordi* (أي الثكنات caserne) وطواحين

(1) والعبارة قالها إسماعيل حقي بالفرنسية:

Je bois à la santé, au bonheur, au progrès de l'Italie, ainsi qu'à la santé et au bonheur de son roi Victor Emanuel II.

(2) العبارة تركية Ordu وتعني: المعسكر. وكانت تكتب هكذا بالتركية العثمانية القديمة: اوردي، غير أن لفظها: أورددو. وإضافة حرف H بالإيطالية إليها لا يعني شيئاً لأنه حرف مبهم يكتب ولا يُلفظ في جميع اللغات اللاتينية.

* تعرف حتى اليوم بالعرضي (المراجع).

المتوكل⁽¹⁾.

ومن ميلانو، طلبتُ كمية كبيرة من بذور الخضار والزهور وأهديتها إلى ملاك الحدائق الحقول الزراعية. وللمرة الأولى أنتجت صنعاء عام 1877 كل أنواع الخضار والسلطات والزهور المعروفة جداً في إيطاليا. ولم ينقصني الوقت للصيد في الحقول والغابات الواقعة بين صنعاء والروضة. وكانت حصيلة الصيد حجلاً وأرانب بالإضافة إلى الغزلان من جبال نقم.

* * *

(1) هو الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم الذي تولّى الحكم عام 1635 عند خروج الأتراك من اليمن.

الفصل التاسع

الفصل التاسع

مدينة صنعاء

مدينة صنعاء هي المدينة الرئيسيّة في اليَمَن وعاصمة الإمامة التي تحمل الاسم نفسه. وهي حاضرة الحكومة التركيّة في جزيرة العرب الجنوبيّة الغربيّة: اليَمَن وعسير. وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام متميزة وكل قسم مُسَوَّر بسور. والأقسام هي:

مدينة صنعاء (صنعاء المدينة) كما تسمّى، وتقع شرقاً ويتاخم طرفها الجنوبي الشرقي قلعة قصر المتوكل⁽¹⁾. وبير العزب أو قاع اليهود غرباً، وهما حيّان كبيران: الأول عبارة عن حدائق، والثاني مكان إقامة اليهود. وتلك الأحياء مسوّرة بجدران (الدائر) وتعتليها أفاريز محصّنة أو أبراج (النوّاب). وكل تلك الأبراج والجدران مبنية بالطّمي والحجارة، ما عدا بعضها المصنوع من الحجر المصقول.

إنّ تربة صنعاء الكلسية الممزوجة بالماء تتصلّب مع مرور الوقت حتّى تبدو كالحجارة، ويضاف إليها الحصى عند إنشاء الجدران. ويدلّ بقاء الأسوار التي شيّدت منذ زمن على صلابتها وقوتها. وإذا كان بعضها قد تهدّم، خاصّةً في قاع اليهود، فذلك يعود إلى الحروب المتكرّرة بين القبيلي والصّنعانيين.

إنّ أسسها ليست عميقة، ولكنها سميقة تبلغ مترين ونصف المتر. ويرتفع السور، وكلما

(1) الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم.

ارتفع ضاق. ولذلك يبدو وكأنه موشور متطاوّل، ويتراوح ارتفاعه بين الثمانية والعشرة أمتار حسب موضعه. أما ارتفاع الأبراج، فيبلغ مترين إلى ثلاثة أمتار فوق السور.

تأخذ أقسام صنعاء الثلاثة شكل متوازي أضلاع يضيق من الجنوب إلى الشمال ويستطيل بين الشرق والغرب. أما طول السور الخارجي لمدينة صنعاء فيبلغ ثلاثة عشر كيلومتراً وأربعمئة متر تقريباً.

ومن مختلف الارتفاعات الشمسية التي قستها بجهاز الانعكاس، وعلى مسافات متفاوتة مستخدماً الكرونومتر لحساب الطول، وبعد التصحيحات ومقابلة الملاحظات التي أجريتها في صنعاء ثم في عدن والمُخا والحديدة، وجدت في صنعاء:

h-H

النقطة الشمالية الأبعد (A) على 15 د، 15'، 52"، 8 عرضاً شمالاً
النقطة الشرقية الأبعد (B) على 44 د، 34'، 33" طولاً شرقي غرينتش
النقطة الجنوبية الأبعد (C) على 15 د، 15'، 2"، 5 عرضاً شمالاً
النقطة الغربية الأبعد (D) على 44 د، 32'، 15" طولاً شرقي غرينتش
مركز صنعاء، حسب تقديري، يوجد على:

15 د، 15'، 27"، 6 عرضاً شمالاً

44 د، 33'، 24" طولاً شرقي غرينتش

أما نيبور Niebuhr فأعطى الأرقام التالية:

15 د، 21'، عرضاً شمالاً. و 44 د، 29'، 39" طولاً شرقي غرينتش.

وأما كرتندن Cruttenden فأعطى: 15 د، 22' عرضاً، شمالاً. و 44 د، 31'، 40" طولاً، شرقي غرينتش.

والفرق شاسع. ولا أعتقد بأنني على خطأ، ليس مفاجرة، ذلك أنني استغرقت وقتاً

كبيراً في إجراء الملاحظات. وعندما عدت إلى صنعاء مرة أخرى عام 1878 ثم عام 1880، أعدت الحسابات وحصلت على النتائج ذاتها.

وجدت من حساب متوسط الدرجات، مستخدماً البارومتر والترمومتر في عدن وصنعاء، وبفضل معادلة الكونت سان روبرت أن ارتفاع صنعاء يبلغ حوالي 2130 متراً عن سطح البحر. وكان البارومتر يتوقف عند 582. والاختلافات كانت طفيفة ومنظمة. وفي الساعة الرابعة ليلاً كان البارومتر يرتفع بانتظام حتى 585. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر ينزل إلى 579.

ولقد أعطاني الترمومتر في الظل والهواء الطلق:

متوسط الدنيا	متوسط القصوى	
11 د مئوية	22 د مئوية	في النصف الأول من نوفمبر 1877
10 1/2 د مئوية	20 د مئوية	في النصف الثاني من نوفمبر 1877
9 د مئوية	19 د مئوية	في النصف الأول من ديسمبر 1877
8 1/2 د مئوية	18 د مئوية	في النصف الثاني من ديسمبر 1877
5 د مئوية	17 د مئوية	في النصف الأول من يناير 1878
3 1/2 د مئوية	16 د مئوية	في النصف الثاني من يناير 1878
6 د مئوية	18 د مئوية	في النصف الأول من فبراير 1878
9 د مئوية	21 د مئوية	في النصف الثاني من فبراير 1878
11 د مئوية	22 د مئوية	في النصف الأول من مارس 1878
11 د مئوية	22-22 1/2 د مئوية	في النصف الثاني من مارس 1878

في ليلة السادس والعشرين من يناير 1878، نزل الترمومتر حتى 3- وتشكل الجليد. والماء الذي كان في الأحواض على السطوح غطته طبقة من الجليد بسماكة 12 ميليمتر تقريباً. ولم يكن الترمومتر قد نزل تحت الصفر في كل ليالي القسم الثاني من يناير، مع

أنه كان يسجل انخفاضاً كبيراً. (كان الترمومتر يسجل الدرجات الدنيا والقصوى).

إن الاختلاف الكبير في درجة الحرارة بين الليل والنهار هو سبب الأمراض (حمى قوية، التهابات رئوية، التهاب المرارة، الروماتيزم، التهاب المفاصل، النفس المتقطع وخفقان في القلب). وهي تتكرر في صنعاء وتصيب الغرباء بشكل كبير.

والطقس كثير الجفاف. والأحوال الصيفية التي تحملت الطقس في المغرب وعُدن، قد تكثر في صنعاء بعد وصولي بقليل. وقطعة القماش التي تضعها في الماء ثم تعرضها للهواء، تجف بسرعة. وعند ملء آنية بالماء، تشاهد تصاعد البخار الخفيف من فوهتها. وكذلك عندما تغسل يديك صباحاً بالماء البارد.

وأما الرياح فمنتظمة. تهب في الصباح، من التاسعة وحتى الحادية عشرة ريح خفيفة (الهوا العذبة el-hùà, edh-dhèia) من الشمال، الشمال الشرقي، وهي باردة. وفي منتصف النهار من الساعة الثانية عشرة والنصف وحتى الرابعة، تهب ريح جنوبية شرقية شديدة في معظم الأحيان (الريح المقوية). وفي بعض الأحيان ريح جنوبية شرقية عاتية (الريح العاصفة أو الريح الشديدة). وهي كذلك، حتى أنها ترفع غبار الطرقات والريف (التراب) بشكل دوامة (الجُراف el-giuràf، الطوفان et-tufàn، التفة en-nèffa). أما الليل، فهو بمجمله هادئ وهناك بعض الاستثناءات.

ولقد وجدت مفكرتي وقد كتبت فيها: صحو، شديد الصحو. ونادراً ما كانت بعض الغيوم تغطي السماء. ولقد سمعت الرعد مرتين أو ثلاثاً.

في الحادي والعشرين من يناير والسابع عشر من فبراير مساءً، هطلت بعض الأمطار ولم تكن كافية حتى لتبلل غبار الطرقات.

صنعاء المدينة، والقصر

يبلغ طول سور صنعاء الخارجي 6843 متراً. ويحتوي على أربعة أبواب خارجية وباب داخلي يربط المدينة بالحصن، ويسمى باب القصر Bab el-Qàsser.

أما الأبواب الخارجية فهي: باب سُعوب، ويفضي شمالاً إلى قرية سُعوب ثم إلى الجراف، وهي قرية كبيرة تؤدي إلى مدينة الرّوضة التي تبعد خمسة أميال وفيها أجمل الحدائق التابعة لأثرياء صنعاء. باب السّتران (الباب المخفي) جنوباً وهو الباب الخارجي للقصر. باب اليَمَن جنوباً ويفضي إلى دَمَار، يَريم، نَعز، قَعطبة وعَدَن. باب السّباح⁽¹⁾ (باب الخندق) غرباً وهو يصل صنعاء مع المتوكل وقاع اليهود.

والشوارع عريضة ومنظمة. والخط المستقيم شهير عند المهندسين في صنعاء. والشوارع الواسعة المشجرة والأكثر أناقة يسمونها المحجة، والأقل اتساعاً، الشّارع. والأصغر، الرّزقي ez-zugzughi والأصغر المسدودة تسمى الرّزاق.

والسّاحات غير منتظمة لكنها الأوسع وتسمى الميدان. والأصغر تسمى الشّوارع. وفي صنعاء 48 مسجداً⁽²⁾ بما فيها المسجد الموجود في القصر ويسمى المراديّة (48). وفيها الجامع⁽³⁾ أي المسجد الكبير. ومسجد صنعاء الكبير كان في يوم من الأيام في الجاهليّة منافساً للكعبة في مكّة⁽⁴⁾.

ولقد روى لي العرب تلك الحكاية التي تتعلق ببناء هذا الجامع: حوالي 381 ق.م، أسس حمير أبو الحِميريين، وهم أجداد اليَمَنيين، مملكة سبأ التي كانت تضم اليَمَن وحضرموت وعمّان. وألف قبيلة كبيرة في مركز جزيرة العرب. وعند موته، قامت عائلة أخيه كهّلان بالتنازع على العرش مع أبناء حمير. فانقسمت الإمبراطورية إلى قسمين، وحكم الحميريون سبأ واليَمَن، وأسّس أبناء كهّلان مملكة ظُفار في حضرموت. واستمر هذا الأمر حتى 150 ق.م حيث قام الحارث، وهو ملك حميري، بتوحيد المملكتين تحت سيطرته. وأصبح اسمه تُبّع (وهو الذي يُتبع) من جميع من

(1) ويسمى أيضاً في صنعاء اليوم: باب السّبح أو السّبحَة.

(2) كتب المؤلف: مسجد: من سَجَدَ (النزول حتى الأرض والسجود).

(3) كتب المؤلف: الجامع: من جَمَعَ أي وُحِدَ والجمعة أي مكان الاجتماع وأيام الأسبوع السبعة.

(4) كتب المؤلف: كان الجاهليون يذهبون إلى الكعبة أيضاً ولكن لعبادة الأوثان. فهي من العادات القديمة.

تبعه من سكان اليَمَن وحضر موت ورضخوا لقوانينه. ولقد حمل هذا اللقب، أي تُبَع، جميع من تعاقب من ملوك اليَمَن.

استمرّ حكم تُبَع في اليَمَن حتى 480 بعد الميلاد. وأثناء حكم الحِميري ذي نواس، قام أرياط، وهو قائد حبشي، بأمر من إمبراطور الحبشة، التي كانت مسيحية حينذاك، بإرسال جيش من ثلاثة آلاف رجل للسيطرة على إمبراطورية سبأ آنذاك، أي اليَمَن.

وانتصر أرياط المسيحي وخضع اليَمَن بأكمله وتغيرت السلالة.

ثبت إمبراطور الحبشة الحاكم المنتصر الجديد الذي لم يلقَ معارضة، إلى أن قام أحد قوّاده ويدعى أبرهة، وكان عبداً لتاجر روماني في أدوليس، بالثورة عليه. فانحاز قسم من جيش الحبشة إلى أبرهة، وتجنّباً لإراقة الدماء، طلب هذا الأخير تحدّي ومقاتلة القائد الحبشي وجهاً لوجه. فقبل أرياط، إلا أنه تعرّض للخيانة وطعن في الوقت نفسه الذي كان يجدد فيه أنف خصمه، الذي سمي فيما بعد بالأشرم، أي ذي الأنف المقطوع.

وأصبح أبرهة الأشرم ملك اليَمَن وبذل أقصى جهده لجعل الديانة المسيحية تعمّ في اليَمَن. وكان يرى، وبكثير من الأسى، أن معظم أتباعه يذهبون إلى مكّة وقت الحج لإقامة شعائرهم الوثنية، لذلك أمر ببناء كنيسة في صنعاء⁽¹⁾، مركز حكمه.

ولقد ساند أبرهة في محاولته لنشر المسيحية الأسقف الذي بعث به بطريرك الإسكندرية إلى اليَمَن. وأصبح هذا الأسقف فيما بعد في مرتبة القديسين ويسمى غريشينسو Gregentius وهو من مواليد ميلانو. وأعطى غريشينسو سكان اليَمَن بعض التعاليم والقوانين التي شرّعت باسم الملك الجديد. وعندما تم بناء الكنيسة، أمر أبرهة بتعميم نبأ في الجزيرة العربية مفاده قيام صنعاء بالشعائر والطقوس الدينية.

إلا أن ذلك حرّك ضغينة أهل الحجاز حيث مكّة، مما دعا بعضهم إلى دخول

(1) وسُمّيت كما يذكر المؤرخون: القليس، ومن الواضح أن التسمية يونانية بيزنطية: إقليسيا *εκκλησία* وتعني: الكنيسة.

الصّرح عمداً في إحدى المناسبات الدّينية وتلوّث المكان بأشع الطّرق. فبلغ غضب أبرهة مبلغاً جعله يقسم ألا يترك حجراً على حجر في الكعبة.

دعا إثر ذلك أربعين ألف رجل قادمين بأنفسه على فيله الأبيض الضخم، ففرّ كل أهل تهامة (الأراضي المنخفضة التي تمتد من المُخا إلى جدّة). وعند وصوله الطائف، استولى على كل قطعان البلاد ومن بينها جمال عبد المطلب التي تبلغ مئتين، وكان أحد أبرز رؤساء مكّة.

وصل نبأ الحملة الضخمة هذه إلى سكان المدينة المقدّسة، فاستبدّ بهم الخوف لأنهم لا يستطيعون مقاومة جيش اليَمَن بسبب ضعفهم.

وكان أن ذهب عبد المطلب إلى بلاط أبرهة الذي استقبله باحترام ظناً منه بأنه يريد الاستسلام. قال القرشي: «إنّ حاجتي أن يردّ عليّ الملك مئتي بعير التي أصابها، وهي لي».

«أتكلّمني في مئتي بعير أصبّتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلّمني فيه؟».

أجاب عبد المطلب: «أنا ربّ الإبل، وإنّ للبيت ربّاً سيمنعه». ويّين له أنّ ملوكاً آخرين قبله حاولوا هدمها، ولكن محاولاتهم مُنيت بالفشل.

أرجع أبرهة الجمال ورجع عبد المطلب مع أهله إلى الجبال تاركاً المعبد لحماية السّماء طالباً الثّأر من أولئك اليَمَنيين.

وبالفعل أُجيبَت دعوته، فلقد أراد أبرهة دخول المدينة على فيله الأبيض الذي سماه محموداً (المبجّل) إلا أنه لم يفلح في حثّه على المضي ولو خطوة واحدة باتجاه الكعبة لا باللطف ولا بالعنف. وركع الفيل في مكانه وكأنّه يتعبّد. وفي الوقت نفسه امتلأت السّماء بالغيوم وجاءت العصافير المسماة أبابيل، وهي كبيرة كالسنونو، وتجمعت فوق الجيش اليَمَني أو الحبشي وكان في فم كل طائر حجر (لم يتعدّ حجم حبة البازلاء، أو الجلبانة) أسقطه على رأس المحاصرين بقوة، حتى أن كل حجر كان

يكسر رأس أحد الجنود في رديه قتيلاً. وكان على كل حجر اسم صاحبه. أما الذين فرّوا في الصحراء، فكان مصيرهم الفناء. وحده أبرهة وحسب عاد إلى صنعاء ليموت من جرّاء مرض عضال ألّم به ردحاً طويلاً وبرّح به بالآلام موجعة.

سُمّيت تلك المعركة معركة الفيل، وهي تسجل تاريخاً مهماً عند العرب، ففي العام نفسه ولد النّبي محمّد (ومعنى اسمه: الجدير بالمديح والحمد) نبي المسلمين، وكان ذلك عام 571 للميلاد.

بعد موت أبرهة، تولّى العرش أبناؤه المسيحيون إلى أن أصبحوا مسلمين على يد عليّ. وفي عام 601 للميلاد استولى كسرى (خسرو پرويز) على اليَمَن فرجعوا إلى عبادة الأوثان. وهكذا، تحول هذا المعبد الشّهير من كنيسة للمسيحيين إلى جامع للمسلمين إلى معبد للوثنيين، ثم عاد إلى المسلمين. ويتبع جامع صنعاء الكبير اليوم مذهب الزّيديين.



والجامع مستطيل. طوله مئة متر وعرضه ثمانون متراً، وواجهاته عبارة عن سور مكوّن من الحجارة والآجر وعليه كتابات عربية إسلامية.

وهناك أبواب ثلاثة، اثنان مفتوحان بشكل دائم ويفضيان إلى الدّاخل. والأبواب متناسقة وتنتهي بقوس بيضوي كتبت عليه آيات من القرآن الكريم أو الله أكبر أو أشهد ألا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله، أو بسم الله الرحمن الرحيم.

عندما يدخل الزّائر يجد صحن الجامع وهو على شكل متوازي الأضلاع. طوله ثمانون متراً وعرضه ستون متراً. تزيّنه ثلاثة صفوف من الأقواس التي تستند إلى عدد كبير من الأعمدة، اتّخذ بعضها من الغرانيت وبعضها من الحجر البركاني من الجبال القريبة وبعضها من الآجر البسيط المطلي بالجبص. ويتدلّى من كل قوس مصباح يضاء في المساء. وتنتهي الأقواس بالقبة.

وتحت الأبواب الشّمالية وفي الجهة الشّمالية الغربية توجد القبلة التي تتجه إلى

الكعبة في مكة. وعلى أطراف الأبواب الجنوبية ترتفع المآذن الأسطوانية العالية. وتظهر اثنتان على يمين الپانوراما باللون الأبيض.

وأما الأرضية فمصنوعة من قطع كبيرة من الغرانيت. وفي وسط البهو يوجد مكعب يشبه الكعبة مكوّن من الحجارة الكلسية مختلفة الألوان المصفرقة على شكل شطرنج. أما طول وعرض تلك الكعبة الصّنعانية فهو تسعة أمتار من كل جهة. وارتفاعها حوالي عشرة أمتار.

وعلى مستوى الأرض من الجهة الجنوبية هناك باب لهذا المكعب يفضي إلى حجرة خالية التوافذ، تُحفظ فيها نسخ قديمة من القرآن.

والمساجد الأخرى أصغر بكثير من الجامع. ولبعضها مآذن عالية جداً وللبعض الآخر مآذن أقصر. وبعضها لا يحتوي على مآذن على الإطلاق. وهناك مساجد صغيرة تشبه الكنائس الصّغرى.

وفي المساجد العربية، حيث توجد القبة والمئذنة، يرتفع نوء أو يمامة. أما المساجد القديمة التي يعود تاريخها إلى مئتي سنة أو أكثر وشيّدتها الأتراك أثناء سيطرتهم على اليمَن، أو رَمّموها، فتحتوي على هلال. وتُذكرنا اليمامة بحادثة وقعت في حياة النبي المسلم: فعندما اضطر محمّد (ص) إلى الهروب من مكة (الهجرة) يتبعه القرشيون الذين أرادوا قتله، تراجع مع بعض المخلصين له إلى غار حُفَر في الجبل ويسمى غار ثور على بُعد مسيرة ساعة ونصف جنوب مكة. مكث الفارّان ثلاثة أيام مخبئين يسمعان من وقت لآخر صوت أعدائهما الذين تعقبوهما. وهم أحدهم بالدخول إلى الغار بعد أن بحث في الجبل كله، ثم توقف لأن عنكبوتاً كانت قد نسجت خيوط شبكتها أمام الكهف وقامت يمامة باتخاذ عَشّها على مدخله وكانت تحتضن بيضها باطمئنان. فاعتقد الرّجل بأن اليمامة والعنكبوت قد صنعتا بيتهما منذ وقت طويل، ولو أن أحداً دخل منذ فترة قريبة كان لا بدّ أن يخرب عش الأولى ونسيج الثانية. وهكذا استطاع النبي أن ينجو هو وصاحبه. وأصبحت اليمامة رمز السّلام. كما ذُكرت العنكبوت في القرآن في سورة العنكبوت.

ولإعطاء فكرة عن كيفية تشييد المساجد في صنعاء، نبسّطها إلى قسمين. ويختلف مسجد عن آخر بنسب كبره وشكله حسب المكان الذي يُشيد فيه. فإن الأرض والبيوت المجاورة تحدّد مدى ارتفاع الجدران مثلاً. إلا أن جميعها تتبع الأسلوب نفسه. وشكلها البدائي البسيط مرسوم في الصّفحات التالية.

(الرسم 1) يظهر مخطط مسجد المدرسة (مسجّلة في خارطة صنعاء بالرّقم 1). والمدرسة لا تحتوي قبة بل سقفاً أفقياً. A هو باب الدّخول، a درج صغير، وb الجدار، وفي البعض: الأعمدة التي تسند سقفاً صغيراً مقبباً بشكل عام. B السّاحة ذات الأرضية من الحجر المصقول وتقام عليها الصّلوات. C البهو حيث يوجد حوض الوضوء D: يأتي الماء عبر بئر d قريب من المسجد، حسب المكان. والمربع الصّغير هو مسقط الصّومعة. ويستخدم المكان الأرضي للحارس أو المؤذن وهو الشّخص الذي يقف أعلى المئذنة ليدعو النّاس للصّلاة. أما المئذنة، إن وجدت، فشكلها أسطواني أو على شكل موشور قاعدته مضلّعة. وهو بيت الله وتُحفظ في خزائنه الكتب المقدّسة التي تُستخدم في المدرسة حيث يتمّ تعليم وتفسير القرآن. يبنى الجامع بنفس تلك الطّريقة ولكن بنسب أكبر.

(الشكل 2) هو مخطط مسجد الطّواشي (يبدو في خارطة صنعاء برقم 4). وهو نموذج للمساجد ذات القبة. A هو المدخل. B باب المسجد. C الدّاخل، حيث تتم الصّلاة (b, c القبتان). D الحوض. E المئذنة مع بيت المؤذن. وهناك مسجد في صنعاء لا يتبع هذا الشّكل وهو مسجد قبة البكريّة El-Bekilie (في الخارطة رقم 2) فهو على الطراز التركي.

وجميع المساجد مبنية بالحجارة المصقولة متعدّدة الألوان والمصفوفة على شكل شطرنج. فقط القباب تصنع من الآجرّ وهي مطلية دائماً بالأبيض وفي بعض الأحيان مزينة بالأرابيسك النّافر.

تُشيد المئذنة الأسطوانية أو الموشورية بالآجر العادي دائماً (عدا تلك الموجودة

في الجامع) مع تنوءات وتزيينات مطلية بالأبيض. وبعضها يحمل كتابات دينية بالعربية واسم مؤسسها وبانيها.

وسأذكر جميع مساجد صنعاء المدينة مع الرّقم المطابق لها في الخارطة:

- 1- المدرسة. 2- قبة البكيرية وكانت تدعى قديماً بكير آغا. 3- صلاح الدين. 4- الطواشي. 5- موسى. 6- عقيل. 7- المذهب. 8- الجامع. 9- علي. 10- الشهيدين. 11- الأبهـر. 12- قبة طلحة. 13- غزل الباش. 14- قبة المهدي. 15- داوود. 16- الزّمر⁽¹⁾. 17- الفليحي. 18- العلمي. 19- خضير. 20- جمال الدين. 21- الوشلي⁽²⁾. 22- الجديد. 23- حجر. 24- محسن. 25- التّهارين. 26- الجلاء. 27- ابن الحسين. 28- الخراز. 29- الحرقان. 30- الفايح. 31- باب اليمَن. 32- المُفتون. 33- الأبرز. 34- الباشة (الباشا). 35- الطّاووس. 36- النّور. 37- معاذ. 38- القاسمي. 39- نُصير. 40- المجمع. 41- الحبس. 42- عدل في بير العزب. 43- توفيق. 44- محمود. 45- التّقوى. 46- بروم. 47- العابدين. 48- المرادية في القصر.

والحمّامات، وهي مكان الطّهارة، تأتي بعد المساجد أهمية وتسمى التّغسيل (من الغسل) أو الحمّام (من التدفئة).

وهناك عشرة حمّامات في صنعاء، وواحد في المتوكل⁽³⁾، وواحد في بير العزب.

وحمّامات صنعاء هي:

- 1- حمّام الميدان. 2- حمّام الطواشي. 3- حمّام الحميدي. 4- حمّام الأبهـر.

(1) هكذا يسمّى المسجد في صنعاء، وبه تعرف الحارة التي يوجد بها (حارة الزّمر)، والصّواب فيه: أزدمير، نسبة إلى بانيه أزدمير باشا Özdemir Paşa في عهد الحكم التركي الأول لليمن.

(2) هكذا ترد التسمية في الأصل الإيطالي، والعشالي عائلة معروفة في آبين من آل دثينة الحميرية.

(3) المقصود محلة قصر الإمام المتوكل على الله المُبائع إسماعيل بن القاسم الذي تولّى الحكم عام 1635 عند خروج الأتراك من اليمَن. ويعتبر حمام المتوكل من الحمّامات المشهورة في صنعاء، وموقعه في «باب السّباح» شمالي قبة المتوكل، وقد تم ترميمه عام 1835 م على يد المهدي عبد الله بن المتوكل أحمد، ولازال قائماً على تلك الحالة حتى اليوم.

5- حَمَام القوعة. 6- حَمَام السّوق. 7- حَمَام الجلاء. 8- حَمَام شكر. 9- حَمَام السلطان. 10- حَمَام ياسر.

الأول، وهو حَمَام الميدان (حَمَام السّاحة أو الحَمَام الكبير)، هو تركي. أو أحد الحمامات الصّنعانية العربية الكثيرة التي جعلها الأتراك أكثر أناقة وراحة.

لم أتمكن في المغرب من دخول حَمَام عربي، رغم أنني تمّنت ذلك كثيراً. يُعد المسيحي في المغرب كافراً نجساً لا يمكنه أن يدخل مكان الطّهارة والتّطهر. وهم متعصّبون. أما في صنعاء وفي اليَمَن كله (ذلك أنني دخلت حَمَام دَمَار ويَريم وإبّ وتَعز وزَيْد ومناخة) فلم أجد أيّة صعوبة في دخول الحمامات العربية، ذلك أن اليَمَنيين أكثر لطفاً وإيناساً مع المسيحيين.

أما واجهات الحمامات فتشبه المساجد والمبنى الخارجي يشبه المسجد ذا القبة. لندخل.

ندخل غرفة هي الغرفة الخارجية عبر رواق بارد لأنه منخفض ومظلم. وعلى يميننا وبواسطة سلّم مكون من درجتين ندخل مكان خلع الملابس أو (المخلع el-màkhla). وبما أن أرض المخلع مغطاة بالحصر والسّجاد، ففي قمة الدّرج نضطر لخلع أحذيتنا (القنْدرة) أو الصّندل أو القبقاب الذي يعطى إلى صاحب الحَمَام ويسمّى (رَجَال حق الحَمَام) أو ببساطة المعلّم الذي يبقى مستلقياً أو جالساً على الصّندوق الذي يحتوي على المناشف والمال. ومن الأفضل تسليمه السّاعة وكل الأغراض القيّمة. وكنت أضع عنده حتى النظارات. ولشخص ذي شأن يُدفع الكثير من البقشيش، فيفرش له الخدم مباشرة سجادة من الصّوف الأسود (الزّربيّة ez-zerbia). وبعد خلع الثياب، يحضر الخادم فوطة بيضاء تُلف حول الخصر وتغطي الأرجل حتى الرّكبة. وتستخدم الفوطة كسروال السباحة عندنا.

يأخذ المعلّم من كل من ينزل السلّم القبقاب، وهو يشبه قبقاب الفلاّحات في لومبارديّا (إيطاليا) إلا أنه عوضاً عن جراب الجلد الذي توضع فيه القدم، توجد قطعة

من الخشب عمودية (النَّخورة، الإصبع) الذي يفصل الإبهام عن سبابة القدم.

بعد عبور الغرفة الخارجية، تدخل الخزانة khosàni أي مكان الحرارة المتوسطة، وهي تحضر الجسم للانتقال من البرودة إلى الحرارة العالية. وعند الانتهاء من الحمام، تمرّ بها أيضاً قبل أن تخرج.

من الخوساني تدخل الأنساط⁽¹⁾ ansàt (ويعني مكان الطهارة الجسدية، وهو مكان مريح) وهي الغرفة الأولى من الحمام ودرجة حرارتها 25 - 30 د مئوية. وإلى من يرغب بحرارة مرتفعة يذهب إلى الصدر (وهو المكان الأكثر إغلاقاً في الحمام) وترتفع فيه الحرارة إلى 35 وحتى 48 د.

وبين غرفة وأخرى بابان من الخشب يُغلقان بشكل دائم كي لا تتساوى فيهما درجات الحرارة. وتحتوي كل غرف الحمام العربي على قبة مستديرة فيها نوافذ صغيرة مستديرة أيضاً أو مستطيلة مغلقة تحت الضغط بإحكام بزجاج سميك أو بقطع من الجبس، لذلك يمر الضوء ضعيفاً.

أما الأرضية فهي عبارة عن ألواح كبيرة من حجر Cos friabilis ولونه رمادي يصبح أسود بسبب الرطوبة.

وفي غرف الحمام، حسب حجمها، حوضان أو أكثر من الحجر وشكلها كأحواض الحائط المخصصة للماء المقدّس في كنائسنا. وبواسطة صنوبر معدني، مستورد من عدن ومن إنتاج أوروبي، تنزل المياه الساخنة.

يعلو الأحواض البخار الذي يمتزج مع الروائح العطرية (خشب البخور والصندل) التي تُحرق من فترة لأخرى في تلك الغرف.

يستلقي المستحمّ على الأرض على الحجارة الحارة في الوضعية التي تعجبه، وتحيط به تلك الأبخرة العطرية التي تتماوج على جسده، ويسبب حرارتها تفتح مسامات الجلد. وبعد عدّة دقائق وعقب تعرّق شديد، يأتي خادم الحمام (المزارم

(1) كذا ترد العبارة في الأصل الإيطالي، ولعلّها محرّفة عن: الأوسط؟

(el-mizàrem) ويبدأ بالدلك والمَسَاج.

يترك المستحمّ مستلقياً على البلاط ويبدأ بيديه ذلك الجسد بنعومة، فيثنيه ويشدّ ويدلك المفاصل ويترك الشخص يستند إلى كتف، وبحركة واحدة سريعة تسمع طقطقة العظام. ويكرّر العملية نفسها للكتف الآخر. وبعد ذلك يدع الشخص يستلقي على بطنه فيجلس المزارم على ظهره ويضغط بيديه على أرجل الرجل وكتفيه.

بعد أن تصبح المفاصل مرنة، يُفرك الجسم بكفّ أو بالأخرى بكيس من الصوف الخشن (الكيس)، وبالدلك تخرج الأوساخ كلها من الجسم ويصبح جلد المستحمّ ناعماً كالحرير.

بعد تلك العملية يحضر المزارم، أو يطلب إحضار دلو من الحديد (الطاسة)، التي تحتوي الماء المعطر والصابون. وبعد الدلك بالليف (ألياف النخلة) وبعد خبط الصابون في الماء والحصول على الرغوة، يغطي الجسم ويغسله بالليف ملقياً بكمية كبيرة من الماء الحارّ على الرأس.

بعد تلك العملية، ويستغرق ذلك ساعة تقريباً، تخرج من الصدر وتمرّ عبر الغرفة الأقل حرارة حيث تتوقف قليلاً ثم تدخل إلى المخلع.

في اللحظة التي يُنزع فيها القبقاب للمرور على البساط، يلقي الخادم ماءً بارداً جداً على القدمين. ثم يخرج المستحم إلى مكانه ويأتي مزارم آخر يقوم بتجفيفه محضراً غطاءين، يضع الأول حول الخصر، مكان الفوطة، والآخر حول الجسم والرأس. ويجفف المزارم الشخص الذي يستريح وحوله الغطاء الجديد الجاف مستلقياً على السجاد. ويمضي نصف ساعة تقريباً في تلك الحالة من التراخي مدخناً السجائر أو المداع وشارباً القهوة. وإذا شاء المستحمّ، يطلب من المزارم مساجاً آخر قبل ارتدائه الملابس.

وأخيراً وعندما يقرّر الشخص، يلبس ملابسه وينتهي الحمام. ويستغرق كل ذلك من ساعة إلى ساعة ونصف.

يعطي الحَمَام الشرقي الإنسان، بالإضافة إلى النظافة، شعوراً بالنشاط العام ويدلك الجلد ويجعله نضراً زهري اللون، ويسرّع الدورة الدموية والتعرق الجلدي الذي يحفظك من أمراض عدّة. وأخيراً يجعلك تشعر باستجمام لا يمكنك وصفه. حتى أنك تشعر بالليونة والخفة المتناهية، وكأنك رفعت عن كاهلك حملاً ثقيلاً. وتشعر وكأنك ولدت من جديد وأن الروح والقلب قد طُهرَا كما تطهر الجسد.

ويذهب العرب إلى الحَمَام على الأقل مرتين في الأسبوع.

أما ثمن الحَمَام فبخس جداً. والفقراء الذين يغتسلون بأنفسهم يدفعون قرشاً (عشرين سنتيماً) أو ثلاث زلاطات (ثلاثين سنتيماً). أما الميسورون فيدفعون لقاء حَمَام كامل فرنكاً أو فرنكاً ونصف للرئيس وبعض البقشيش للمزارم.

أما أنا فكنت أذهب خمس أو ست مرات في الشهر. وكنت أشعر بالرضا دائماً. توجد تحت كلّ غرفة من غرف الحَمَام أفران تُضرم فيها النار بواسطة الخشب أو الفحم النباتي أو الزّبل الحيواني، للاقتصاد. وهكذا تحصل الغرفة العليا على درجة الحرارة المطلوبة.

وفي صنعاء تقع الحَمَامات جميعاً قرب المساجد.

* * *

أما الجهة الخارجية للبيوت فقد تكلمت عنها قليلاً وسأعيد باختصار لكي يتّضح للقارئ مفهوم الرّسوم في صوري. المنازل كبيرة ومبنية بالحجر المصقول والآجر الكبير. منظرها أنيق بنوافذها الغنية ذوات الزّجاج الملون. أما طراز الهندسة المعمارية الصّنعانية فهو بسيط وأنيق. وقياساته صحيحة والزّخارف ليست متضاربة أو صارخة، بل تذكر بالذوق العربي.

أما لون الحجر الرمادي ولون الآجر المحمّر الذي يزين الواجهات، فيتمايز عن لون الجصّ الأبيض الذي يغطي الجهة السفلية والأفاريز الصّغيرة والكبيرة.

سأتكلم الآن عن القسم الداخلي للبيوت الصّنعانية. ولكي أكون أكثر دقة ووضوحاً،

سأصف مخطط المنزل الذي سكتته (الشكل 1، 2، 3، 4). ذلك أنه قد سنحت لي الفرصة مرات كثيرة لمشاهدة المنازل الأخرى وكلها تتشابه. لذلك فإن وصف منزلي يعني أنني وصفتها كلها. يمكن لأي إنسان أن يتخيل بعض المنشآت في صنعاء التي تسمى البرج أو القصور وتلك التي تحتوي على أربعة طوابق عوضاً عن ثلاثة أو خمسة. وكما يتضح من مخططي، فكل طابق يقلّ فيه عدد الغرف لأنه يترك مجالاً للسّطوحات. لذلك فالمنازل العالية ذات الطّوابق العديدة تنتهي بغرفة واحدة في الطّابق العلوي.

الأبواب (البيبان) عالية وعريضة وتنتهي بقوس بيضوي (انظر الشكل 1). وبعد فتح الباب تدخل في غرفة خارجية تسمى القاعة حيث يوجد البئر ولوازم الإصطبل.

أما الأرضيّة فهي عبارة عن ألواح من الغرانيت، والجدران مطلية بالأبيض. وللبئر بكرة وحبل طوله 25-30 متراً، وهو عمق الآبار في صنعاء. وهناك القربة، وهي دلو من الجلد الذي يُصبّ فيه الماء.

والإصطبلات كبيرة لكنها مظلمة. وهناك جدار ارتفاعه 75 سنتيمتراً عن الأرض وعرضه متر تقريباً، يوضع فيه الحشيش. وهناك حلقات ضخمة من الحديد مثبتة إلى الجدران تُشدّ إليها الحبال المربوطة بالحيوان. وليس هناك مكان يفصل حيواناً عن آخر، وهذا يعود إلى دماثة الحيوان العربي. أما الحشيش، فهو عبارة عن شعير (العلف، العشب)، الدّرة الحمراء (الطعم) والقضب⁽¹⁾. ويتغذى الحيوان أيضاً بأوراق الملفوف والقرنييط. ويُعطى الجزر للخيول ولكن كمكافأة فقط كما هو الحال عندنا.

بعد الغرفة الخارجية تدخل أخرى فيها عدد من غرف المؤونة والدّرج (الدّرجان) الذي يفضي إلى رواق داخلي أو إلى حديقة. وتلك الغرف الخارجية تسمى أيضاً الدّهليز.

أما الدّرج فهو عريض ومصنوع من الحجر ولكنه سيء الإضاءة ومظلم في بعض الأحيان.

(1) ذكرنا مسبقاً أن القضب هو البرسيم الحجازي.

والطابق الأول (انظر الشكل 2) يحتوي على غرف منخفضة (كنصف حجم غرفنا). وفيه الطّاحون وغرفة معدّات الإصطبل ولوازم الحيوانات.

(غرفة الطّحن) وتحتوي على سلال (الزّنبيل) وفيها الدّقيق والقمح وأدوات تحضير العجين الذي يُصنع منه الخبز الذي يُخبز في المخبز كما سنرى. والمطحّن عبارة عن حجرين (حجر الطّاحون) من الغرانيت الصّلب. وهي مستديرة وتوضع الواحدة فوق الأخرى، تثبت السّفلى وتُحرّك العليا. ويستند الطّاحون إلى جدار ارتفاعه 50-60 سنتيمتراً. أما الحجارة فقطرها 48 سنتيمتراً تقريباً وسماكتها 20-25 سنتيمتراً. والعليا تحتوي على ثقب واسع في مركزه يمرّ عبره المحور أو (المسمار) الذي يلتحم في مركز الحجر السّفلي. وحول محيط الحجر المتحرك تُثبت قطعة من الخشب (اليد) التي تستخدم للتّحريك. وفي الأسفل وحول الحجرين يوجد حجر آخر محفور على شكل طبق واسع فيه يُجمع الدّقيق.

وبشكل عام تقوم المرأة بطحن الحبوب وتحضير الخبز وطبخ أي طعام آخر. هذه العادة منتشرة حتى في اليَمَن. ولا يقوم الرّجال بصنع الخبز أو بطهي الطّعام إلا في السّفَر لعدم توفر النّساء.

تأخذ النّساء الحبوب باليد اليسرى من الكيس الموضوع على الجدار حيث يوجد الطّاحون ويتركنها تتساقط في الثّقب المركزي محرّكات في الوقت نفسه الطّاحون يساراً باليد اليمنى. يسقط الدّقيق في الطّبق وعندما تصيح الكمية كافية، تقوم المرأة بكنس الدّقيق لوضعه في الغربال.

والغربال العربي (المنخل) يشبه الغربال عندنا، ومصنوع أيضاً من شعر الحصان. وتُعطى النّخالة للدّجاج أو لحيوانات الجرّ.

وعندما تتحرّك المطحنة تصدر صوتاً عالياً رتيباً ومملاً للسمع.

أما غرفة المؤن وهي إحدى أوسع الغرف في الطابق، فهي مقسّمة إلى اليمين وإلى اليسار (يوجد في المركز نوع من الرّواق) إلى حجرات متوازية ارتفاعها متر عن

الأرض. ويوزّع فيها القمح والشّعير والذرة والفاصولياء وكل الحبوب (الزرع) التي يستهلكها البيت والإصطبل.

وعلى الجدران تُعلّق السروج (السّرج el-hutàf) والركاب والصّريمة es-serima واللجام.

يخصّص الطّابق الثّاني (انظر الشّكل 3) بشكل عام للنّساء، وهناك غرفهن ومطبخهن. وستكلم عن ذلك فيما بعد عند ذكر الحريم. لنلقِ الآن نظرة على المطبخ (الخيامة el-khiàma).

المطبخ صغير وقليل التّهوئة ولا يحتوي على مدخنة. وبما أن الدّخان يتصاعد نحو السّقف والجدران والأروقة أو الطّرقات والحدائق حيث يجد منفذاً، فالجدران دائماً سوداء. وهناك جدار ارتفاعه متر عن الأرض وعرضه متر أيضاً يسند التّنور الذي يتشكل من قطع آجر متوضعة الواحدة فوق الأخرى يوضع عليها القدر وكل أدوات الطّبخ. ويحتوي الجدار أيضاً على الفرن (الكوشة el-kùscia) وهو أسطواناني مع فتحة صغيرة في أسفله وكبيرة في أعلاه.

عند إضرام النّار في الفرن لخبز الخُبز تحضّر المرأة قطعاً صغيرة من العجين، وبحركة خفيفة منها تمدها وتضعها على جدار الفرن فتلتصق. وبضع ثوانٍ كافية لكي يصبح الخبز الشّفاف جاهزاً. وبعد نزعهِ عن الفرن يُدهن بالزّبدة السّائلة ويوضع في زنبيل خاص (القدر).

وأدوات المطبخ هي: أوّانٍ من الفخّار تسمى (الجفنة، الجصّة، القدر، الماعون، الثّبرمة، المّعجن) وذلك حسب كبرها. وأوّانٍ حجرية منها (المِقْلَاة el-megàla والطّنجرة). والحديدية (الطست والطّاجن) وهناك ملاعق كبيرة من الخشب.

* * *

والطابق الثّالث (انظر الشّكل 4) هو مكان الرّجال، وهو الطّابق العلوي وأفضلها في المنزل. ولقد وصفته سابقاً.

تحتوي كل غرف المنزل على عارضتين من الخشب وعدد من التوافذ (التكوة et-taqua) أو الشباك. وهي تحاذي الأرض تقريباً. وفوق كل نافذة (وهي لا تغطي بالزجاج باستثناء منازل الأتراك) فهناك القمرية المزينة بالزجاج الملون وإطارها مصنوع من الجص.

من التكوة والقمرية وعلى ارتفاع متر ونصف عن الأرض ينبثق من الجدار السليف es-selif (رف) يضع عليه العرب أغراضهم المختلفة لأنهم لا يستعملون الطاولات. وتسمى الغرف حسب ترتيبها ومكانتها ومقدار ثرائها: هناك الديوان أو المنظار⁽¹⁾ el-mendhâr ويخصص للاستقبال اليومي والزيارات. وهناك المفرج mefregg لاستقبال الشخصيات الهامة. والقنمة el-kunma، وترتب بشكل مترف وتعتبر متحف العائلة. والقاعة أو البلاط وتصنع من الجص والتراب. وحول الجدران فوق الحصر والسجاد توضع الفرش الضيقة (المرتبة أو الفراش) وعدد كبير من الوسائد (المخدّة، الوسادة) للاستناد عليها. وفي مركز الغرفة وعاء معدني مستدير (الماشير el-mâscier) يستند إلى قوائم صغيرة (الساق، القدم) ويستخدم لرفع الشمعدان (المصباح، المغرس، المنارة) والترجيلة والأدوات الأخرى ذات الاستعمالات اليومية أو حتى لمجرد الزينة.

ويختلف ترف البيوت بثناء أصحابها، لذلك ترى في صنعاء سجاداً فارسياً رائعاً ورجيلة عربية من الذهب والفضة عليها نقوش الأرابيسك، وصحوناً كبيرة مطعمة بالذهب والفضة عليها كتابات حميرية وكوفية وعربية. وأنية من جميع الأشكال ومختلف المعادن. ورأيت القديم منها، الصيني والياباني.

أما البيوت المهمة في صنعاء، بسبب قدمها ولأن الأئمة كانوا يسكنونها، فقد دُمّر أغلبها. وحولها الدمار إلى كومة من التراب والحجارة والآجر. ودخلت حجارتها وتزييناتها في صناعة وتزيين البيوت الحديثة.

(1) ويسمى أيضاً في دور صنعاء: المنطرة.

وكمثال على ذلك أذكر دار الطواشي (A) Dar et-Tauàsci التي كانت تتميز بحجراتها الثلاثمئة والستين. وكلها زخارف وكتابات وأدراج عريضة وباحات فسيحة وحدائق واسعة وبرك كبيرة. لقد تم تدمير هذا المنزل على يد الصنعانيين أنفسهم قبل خمسين سنة بعد أن ثاروا ضد الإمام الهادي بن المهدي العباس. وكان هناك أيضاً دار المحدادة ودار نعمان في صنعاء، وهم أئمة أيضاً (C).

الثكنة الكبيرة - دار صبري⁽¹⁾ Dar Sàbro. وفي المخطط يُشار إليها بـ B. وقد بُنيت على الطراز العربي الغني من قبل محمّد باشا وهو من أواخر حكام اليمَن خلال فترة الغزو التركي الأول. وكانت ما تزال قائمة خلال إقامتي الأولى في صنعاء. وأمر بهدمها، في السنة اللاحقة لعام 1878، الحاكم العام الحالي مصطفى عاصم باشا. وكانت عبارة عن تسعة طوابق وسطوحات كثيرة إحداها ذات بوابة كبيرة عليها كتابات عربية في الطابق الرابع. وأما الطابق التاسع، فكان عبارة عن غرفة واحدة ملونة كآنية زهور على طراز پومبي⁽²⁾ Pompei. وكانت الأدراج عريضة ومنتظمة. وعندما زرت المبنى كان هناك في الطابق السادس إصطبل فيه حمار أبيض وحيد هو مطية رئيس الثكنة، وكان يأكل. لقد قيل لي بأن الزخارف قد تمّت على يد البانيان، والعجم الذين كانوا يقيمون في صنعاء آنذاك، وقد دعاهم محمّد باشا خصيصاً لهذا الغرض.

والمنازل المهمة التي كانت ما تزال موجودة حتى مارس 1880 هي:

دار الذهب (D) Dar ed-Dahàb وهي كبيرة جداً ومرتفعة. وفيها بئر اصطناعي صُنع بشكل عالٍ جداً، حتى أن فوهته تصل إلى الطابق الأعلى. ومن هناك، وبواسطة قناة ينزل الماء نحو الحديقة والأرض التي تسير عليها الجمال والأبقار فترتوي. وفي عام 1877 كانت تسكنها امرأتان مستتان ماتت إحداهما عام 1878 والأخرى في يناير

(1) يكتبها مانزوني بالواو: Sàbro على اعتبار أن حرف العلة الأخير في التركية باسم صبري Sabri لا يُلفظ ياء، بل هو أشبه بضمة مخففة.

(2) مدينة قرب نابولي في إيطاليا ردمها بركان فيزوف Vesuvio وتشتهر بطراز معين من الرسومات الجدارية.

1879. ولم تتركاً وريثاً، فأصبح المنزل من ممتلكات الحكومة العثمانية.

دار الجديد ، ويسكنها الآن سيدي غالب، إمام من الأئمة.

بيت الخضير، يسكنها سمو إسماعيل حقي پاشا.

بيت الحكومة (كانت تدعى بيت الميدان، أو بيت السّاحة) أو بيت الحكومة.
وبجانبها مركز البرق والبريد (بيت البوسطة أو بيت السّلك، أي الخط).

بيت الحاج فتح، وبالتركية مجلس العسكرية.

إملانة البكريّة، المدرسة التركية. وتنقسم إلى ابتدائية وتقنية، ويؤمها أولاد من
صنعاء قد عرف آباؤهم فائدة العلم.

سَمْسرة الميزان Samsaret' el-Misani، سمسرة الجمرك.

* * *

أما السّوق، وهو الحيّ المركزي في المدينة. فيمتلئ بالحارات التي تتقاطع فيما
بينها. ويتوزع العرب بحسب حرفهم. وعلى رأس كل مجموعة رئيس حرفه أو شيخ.
لذلك يجتمع في الحيّ نفسه أصحاب الحرفة نفسها أو تجّار البضاعة ذاتها: نجارون
وحدّادون وصنّاع سيوف وخنّاجر وبائعو التّرجيلة والشّمعدانات والآنية المعدنية
وبائعو البهارات (بائعو البنّ والبخور والعود والأعشاب) وبائعو الفحم وتجار
التّسيج وصنّاع الحبال ومنظفو أنابيب التّرجيلة، الخ. ويقتنون المخازن والدّكاكين،
الواحد بالقرب من الآخر في الأحياء نفسها. وفي السّاحة الرّئيسية يوجد سوق
الحبوب وبتجاه باب اليَمَن، سوق أواني الفخّار وبالقرب منه سوق الخضار (في
ساحة مخازن الرّوبالي Makhazèm er-Robali). وبتجاه ساحة الطّواشي يوجد
سوق الخبز والشّعير للإصطبلات.

وتوجد الملحمة الوحيدة في صنعاء المدينة على يمين باب اليَمَن.

والبسّاتين والحقول الرّاعية كثيرة، وأفضلها بستان الطّاوس. وهو كبير وفسيح.

فيه أشجار الفاكهة وكل أنواع الخضار والزهور. وزراعته متقنة التنسيق. وهو ملتقى السادة الأتراك، يأخذون معهم زجاجات العرق أو الكحول المُقَطَّر مع الفناجين ويجلسون في ظل النباتات يشربون ويأكلون الفاكهة والخضار. والعرق هو الـ Vermouth أو فاتح الشهية على الطريقة التركية.

وكنْتُ أنا أيضاً أرتاد بستان الطاووس، لأن العرق كما قلت يفتح الشهية ويهيئ المعدة للأكل ويستهل الهضم. كما أنَّ ثمة متعة في مجالسة أولئك السادة والتحدُّث حول المسائل السياسية والدينية.

إن منتجات الحقل الزراعي أو البستان في صنعاء هي: جميع أنواع الخضار من فول ولوبية وجلبانة (بازلأء) و(شق الحمير) والخرشوف والملفوف (اللهانة) والقرنبيط (الفلور، القنبيط) والفلفل الأخضر والأحمر والطماطم والبطاطا الحلوة والبطاطا العادية والجزر (الجرودية) والبصل والثوم والبامية والبادنجان والسلق والفجل والسلطة (الخس) والشمندر والبقدونس والكرفس والرَّشاد والسبانخ والقرع والبطيخ والشَّمام (الإقدين) والخيار والحباب والشَّداب والسيغامور والملوخية والققنجر.

ومن الزهور الزنبق الأبيض وشقائق النعمان والمردقوش والحبق (المدان، الوالي) والترجس والبنفسج والشَّداخ (الهندي، عشب الفرس، شجرة الرَّف) والورد والمسك الرُّومي والقرنفل الخيلي والبابونج والخزامى والتَّعناع والفلفل والصَّعتر.

وفي الأماكن غير المزروعة وعلى طول قنوات الرِّيّ يكثُر التَّمر والأوباب والحشيش المرّ واللاصون والبقل والرَّجان والغراف والقشدة والحُميد والجدمال والهندباء والسيس والقده والذَّخير، الخ.

ومن الفاكهة: الرِّمان والتَّفاح والسَّفرجل والأجاص والفرسيخ (الدَّرّاق) والبرقوق (المشمش) والخوخ (القراصية) والكرز (حبوب الملوك) واللوز والجوز والتَّين (البلاس) والدَّالية التي تنتج العنب الطَّيِّب والموجود بكثرة وخاصة العنب المسكي الذي يؤكل حالما ينضج أو يُجفَّف (الزبيب).

تنضج الفاكهة في مايو ويونيو: وتنتج الخضار مرتين في السنة لأن البذار يتم مرتين، في الربيع والخريف.

والى جانب بستان الطاؤوس والمتوكل، وهي حكومية، هناك بساتين ذات مالك واحد وكل ما تبقى في صنعاء يمتلكه أشخاص عدّة. وفي كل بستان قطعة زراعية ومن حقهم ريّها عدّة مرات في الشّهر من ماء البئر العام. ومالك البئر ليس بالضرورة مالك البستان. وعلى العكس، فهناك آبار تخدم عدداً من البساتين.

لا تختلف طريقة الزّرع عن طريقتنا، إلا أنه يجري الاعتناء بها عندنا بشكل أكبر. ولا تُبذر الأرض على هذا الشكل، أي بين حقل وآخر.

أما الأدوات التي يستخدمها العرب فهي قطعة حديد ضخمة مدبّبة لحرث الأرض والمفرش والمقاف والمنشار. وعندهم أداة أخرى تسمى مصب الحديد يستخدمونها لتسوية الأرض بعد الحراثة. ويوجد البستان بشكل مائل والبئر في أعلاه.

والآبار عميقة وترتفع فوق سطح الأرض بخمسة أمتار على الأقل. وهي واسعة يبلغ قطرها 3-4 أمتار. وبنفس الطريقة التي وصفتها يتم حفظ الماء في حوض جداري يقع أسفل فوهة البئر بعمق أربعة أمتار وعرض 5-10 أمتار من كل جهة، حسب كبر البستان المعدّ للرّي.

وفي بعض الأحيان يكون البستان كبيراً جداً أو يُستخدم البئر لبساتين عديدة بحيث لا تكفي مياه الأحواض. لذلك ترى الجمال والبغال والحمير وهي تجرّ الماء طوال النهار. وجرت العادة على ري البستان كل أربعة أيام لكل قسم منه. لذلك فإن العقد يُلزم حق استخدام الماء ست عشرة مرّة في الشّهر.

وكنت أملك أنا أيضاً قطعة أرض في بستان الطّواشي. وكنت أدفع ريالاً Talleri واحداً في الشّهر كأجار للماء واثنين لأجار الأرض وواحداً ونصف كمرتبّ لامرأة وابنتها (تقوى بنت العراسي) التي كانت تعمل في الأرض، وكنت أتزوّد بما يلزمي من الخضار الضرورية وأبيع ما تبقى. كان ذلك يدرّ عليّ ربحاً صافياً مقداره ريالان

ونصف إلى ثلاثة في الشهر. لذلك، كان حقلي يسدّ مصاريف المنزل كله تقريباً، والذي كان يبلغ أربعة ريالات.

* * *

المتوكل (10)

كان قصر المتوكل⁽¹⁾ قصراً للأئمة السالفين، وهو متين الصنع ومحاط بسور ما زال قائماً. وله بابان: باب الانتباه إلى الجنوب (ويصله بمدينة صنعاء عن طريق باب السبح، وبير العزب عن طريق باب الشرارة)، وباب الشقاديف شمالاً. وتوجد القلعة الرئيسية أو الحصن في مركز مدينة صنعاء.

قبل عدة سنوات كانت مدينة صنعاء مقسّمة إلى أحياء عديدة تتنافس وتتقاتل فيما بينها. وفي إحدى المرات دخل رجال القبيلي في تحالف مع حزب وغزوا المتوكل الذي كان قصر الإمام التابع للفرقة المعادية وهدم القصر بأكمله. وبعد دخول الأتراك اليَمَن عام 1870، شيّدوا مكانه المشفى العسكري (الحَسَنَخانة⁽²⁾ el-khàsta khàne) والبستان بشكل جيد. وزرعوا أشجار الفاكهة وبنوا ثلاثة

(1) ذكرنا أعلاه أنّ المقصود به الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم الذي تولّى الحكم عام 1635 عند خروج الأتراك من اليَمَن.

(2) العبارة باللغة التركية: Hastahane وتعني المستشفى.

أحواض واسعة، غيل الأسود⁽¹⁾ يغذيها جدول ينبع من جبل حدّين⁽²⁾ قرب حزيز. وبعد الأوردي أو المخيم العسكري يتغذى من الغيل البرمكي الذي ينبع من جبل حدة من بيت الحضرمي. ولقد بنيت تلك الأحواض على مستويات مختلفة. وعند سقوط المياه وُضعت آلات تتحرّك فتدير الطواحين.

ولم يبقَ من قصر المتوكل القديم إلا حمامه (L) والمسجد (49) الذي يحمل الاسم نفسه.

* * *

سأتكلّم باختصار عن المشفى التركي. هو بناء كبير ورائع على الطراز الأوروبي. ويحتوي على طابقين مع أروقة عريضة وعشرين غرفة واسعة لمرضى السفليس والجراحة والحمّى والأمراض المعدية، الخ. وهناك درجان كبيران على جانب المبنى الرئيسي. أما التوافذ فهي عالية وعريضة وعليها زجاج على الطريقة الأوروبية وستائر ملوّنة للتخفيف من حدّة الضوء. وفيها صيدلية غنيّة ومختبر كيميائي مجهّز بالمعدّات. وهناك غرفة الجثث. يحتوي المشفى على ثلاثمئة وسبعين سريراً من الحديد لكل واحد منه فراشان ووسادتان وغطاءان من الصّوف وملاءتان. وقرب كل سرير طاولة صغيرة مع كأس وصحن من المعدن الأبيض. وعلى الحائط سبّورة سوداء صغيرة كُتب عليها بالجص باللغة الفرنسية اسم المريض ومرضه.

هناك ستة عشر طبيباً. كلهم مسيحيون، مع رئيس الأطباء وهو كولونيل (11) تركي، يقومون برعاية المشفى. وهناك ثمانية جراحين وعشر صيادلة وممرّضين وعدد كبير من الخدم العرب والأتراك. وهناك أيضاً قاضٍ تركي ذو عمامة خضراء.

وفي المشفى مطبخ كبير فيه ثمانية طبّاخين يحضّرون الطّعام للمرضى، وينقّذون

(1) الغيل الأسود: أصل مخرجه من قاع أرتل تحت غيل آلاف، وكان نهراً يشقّ صنعاء من جانبها الغربي، ومنابعه من سفح الجبل المعروف بحدّين جنوبي صنعاء على مسافة ساعة، وأكثر سقيه في شعوب شمالي صنعاء.

(2) يكتب مانزوني التسمية: جبل الحدّين. لكنها تشيع في صنعاء بغير ال التعريف.

وصفات الطّيب. لذلك فالحركة في المطبخ دؤوبة.

والسجلات والحسابات كلها باللغة الفرنسية، ويقوم بالإشراف عليها الأتراك أو اليونان الذين يتقنون هذه اللغة.

والخدمة ممتازة. تتم زيارة المرضى في الصّباح، ثم اجتماع الأطباء في صالتهم. ويقوم أحدهم بالمناوبة في المشفى أربعاً وعشرين ساعة حسب دوره. ولا يمكنه تركه لحظة واحدة. وللمرضى لباس موحد يتألف من قميص وينطال عريض من الخام الأبيض. وثوب للغرفة لونه وردي، وقبعة بيضاء. وللمشفى مصبغة خاصة.

وهناك رئيس القسم الذي يقوم بالحراسة على باب العنبر. ومع أن المشفى عسكري، فإن المدنيين يدخلونه أيضاً من الأتراك والمسيحيين والعرب بعد تقديم طلب إلى الباشا الرئيس. والأثرياء يدفعون، أما الفقراء فيقبلون مجاناً.

بئر العزب وقاع اليهود

يتألف القسم الغربي من صنعاء المحاط بالسور والذي يبدو وكأنه مدينة أخرى من بئر العزب وقاع اليهود. وهناك جدار داخلي يفصل بينهما لكنه تهدم.

أما السور الخارجي فما زال بحالة جيدة وطوله 6496 متراً وفيه ثمانية أبواب:

(9) باب شرارة شرقاً يربطهما مع صنعاء والمتوكل.

(8) باب خزيمة و(10) باب التزيلي و(11) باب البلقة: تلك الأبواب الثلاثة تفضي إلى وادي النُميس * el-Nomèis الخصب وجبال حدة التي تحتوي على طاحونتين تركيتين وغابات كبيرة من الجوز والمشمش.

* كذا ولعله تصحيف إذ يوجد بالمنطقة غيل مشهور يسمى غيل حُميس (بالحاء المهملة)، وينحدر من جبل غيان، نحو موقع الطواحين التركية (المراجع).

(12) باب قاع اليهود غرباً. ويفضي إلى سوق الخميس ومفتح Mefâq ومناخة والحديدة.

(13) باب عيلة.

(14) باب الرّوم شمالاً ويؤدي إلى حقول الوادي وقرية جميلة تبعد خمسة كيلومترات عن صنعاء مليئة بالبساتين وأشجار الفاكهة. وتمتلئ بالعنب والليمون والبرتقال والسكر.

(15) باب الشهاري. شمالاً أيضاً ويؤدي إلى ناحية عسير (المنطقة الواقعة بين اليَمَن والحجاز) وإلى مكة.

بئر العزب: وفيه عدد لا يحصى من البساتين. وهو مكان إقامة أثرياء الأتراك الذين بنوا منازل مريحة منذ بضع سنوات عوضاً عن دار الصافي، ودار البهمة، وكانا قصرين لأئمة قدامى. لذلك فيبئر العزب هو المنطقة الأكثر أناقة وجاهاً في صنعاء كلها. وهناك مسجد حنظل الكبير ومئذنته عالية جداً. وهناك مسجد الصفرة الصّغير (51) ومثله بالاسم حمّام الصفرة أيضاً (m) وهو للنساء فقط.

الصُّلبي، قاع اليهود: هو طريق طويل يقطع باب القاع عمودياً ويؤدي إلى باب الشرارة، وتحيط به منازل أغلب سكانها من القبيلي. وقاع اليهود (أرض اليهود) هو مكان إقامة اليهود، ويقابله الملاح⁽¹⁾ Melhah الشهير في المغرب. وهو حيّهم وفيه

(1) تسمية الملاح تطلق في المغرب بصورة مطلقة على كل حيّ يهودي في المدن المغربية العتيقة مثل: فاس ومكناس ومراكش والدار البيضاء والصّويرة. وهو يقابل ما يُسمّى في الشام ومصر والعراق: حارة اليهود. وتشير بعض الدّراسات إلى أن حي الملاح سُمّي بهذا الاسم نظراً لأن أول حي يهودي تم بناؤه في المغرب كان في مدينة فاس التي كانت عاصمة للمغرب عدة قرون، وقد أقيم في منطقة كان يتم فيها تجميع وتخزين الملح تمهيداً لتصديره عبر القوافل إلى أوروبا، وأصل التسمية يعود إلى عهد المرينيين في الثلاثينيات من القرن الخامس عشر الميلادي حيث كان ثمة موقع عند مدخل مدينة فاس يجمع فيه الملح قبل توزيعه وكان الموقع أول تجمع خاص باليهود، ومنذ ذلك الحين تم تعميم مصطلح الملاح ليتم تداوله بين الأوساط المسلمة واليهودية كحيّ محاط بأسوار عالية له بابان في غالب الأحيان ويقطنه اليهود.

سوقهم ومعبدهم ومنازلهم ومكاتبهم.

والمنازل من الخارج بائسة جداً، فهي مصنوعة من الطمي والرّوث وليست عالية، بل تحتوي على طابق فقط مع نوافذ صغيرة غير مزينة. تبدو وكأنها أكواخ أكثر منها منازل، وتشبه منازل الحطّابين. وهذا لأن اليهودي يُعدّ أقل شأنًا من المسلم ولا يستطيع أن يركب الخيل أمام العامّة. كما أن عليه أن يُظهر التواضع علناً في مسكنه وكذلك ملبسه، فهو زريّ الحال لكي يبدو في منزلة دنيا بالنسبة للعربي المسلم.

أما داخل تلك البيوت فجميل، ويذكر بباحة دار المنزل الإسباني أو المغربي، أرضيته مكونة من قطع كبيرة من الحجارة. والغرف واسعة ومضيئة بفضل أبواب كبيرة ونوافذ داخلية، وكلها مطلية بالدهان، والنّظافة تعم المكان. وفي الواقع فإن يهود اليَمَن محترمون من وجهات نظر عديدة تتعلق بالشكل والمضمون.

والفرق بين أولئك اليهود ويهود المغرب شاسع، وسأذكر مثلاً يبيّن مدى قذارة أولئك التّاس. هناك امرأة تدعى زليخة في مزغان Mazagan وهي ابنة ثري يهودي من أصل إيطالي، زُقت إلى ثري آخر يهودي، هو أيضاً من أصل إيطالي. استعملت تلك المرأة وعاءً من التّحاس لطهي السمك واللحم. وفي الليل، استُخدم الوعاء نفسه للحاجة الليلية. من هذا المثل يمكنك أن تتخيّل في أيّة حالة كان المنزل. إنهم يعيشون بين الأقدار، وهذا لا يعني بأن خيوط الدّهب لا تزين ملابسهم الخضراء والزّرقاء الدّاكنة، مع قذارة منقطعة التّظير.

لقد تناولتُ طعام الغداء مرة عند ثري يهودي في صنعاء يسمى يحيى بن داود، صديق الخواجة موسى، وهو تاجر يهودي ثري من عَدَن. وزرت المطبخ والبيت بأكمله، وكان نظيفاً.

والعربي في صنعاء طيّب وليس متعصباً، لذلك لا يضطهد اليهودي كما يفعل المغاربة. ففي صنعاء إذا تصرّف اليهود بتواضع أمام العرب ولم يركبوا الخيول، فإنهم

يعاملون معاملته حسنة. حتى أن أرسطراطية العربي تجعله لا يتعاطى على الإطلاق مع اليهودي. فالتشاجر معه يعني أنه يعطيه قيمة. واليهودي في المغرب كجميع الضعفاء، يدافع عن نفسه باللسان. وكلما أهين، يدافع عن نفسه بالشتم. أما الصنعاني الأكثر كرامة، فلا يتحمل شتيمة واحدة من يهودي. وهو أكثر حكمة من المغربي، لأنه لا يعطيه سبباً لشمته.

ويهود صنعاء بشكل عام دميون جداً لأنهم نحيلو الجسم وكأنهم عصي. ولونهم مصفر. وكذلك نساؤهم قبيحات. لقد شاهدت بعض الجميلات، إلا أنهن لا يشبهن اليهوديات المغربيات بعيونهن الواسعة ونظراتهن الناعسة.

وأظن أن قبحهن يعود إلى التزاوج المستمر بين عائلاتهم. وهم ينقسمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة، فمن الأغنياء نصل إلى طبقة الباريا paria أو المنبوذين. وفي تلك الطبقات يوجد الأرسطراطيون الذين لا يزوجون أبناءهم من أفراد ملّة أو طبقة اجتماعية أخرى.

ويهود صنعاء حرفيون دؤوبون. منهم الصّيّاغ وبائعو المجوهرات. وهم ماهرون في تقطير ماء الحياة. كما يزاولون حرفاً فنية كصناعة الجصّ للتوافذ الملونة. يعملون أيضاً في المصارف.

وماذا أقول عن عدد سكان صنعاء؟ من الصعب أن تتكلم عن بلد لا سجلات فيه فيما يتعلق بعدد السكان. وأعتقد أنه إذا أخذنا بعين الاعتبار عدد المنازل والدكاكين، فالعدد يصل إلى 18-20 ألف عربي و3000 تركي و1700 يهودي.

وتوجد خارج المدينة حقول زراعية وغابات إلى الشمال والجهة الشمالية الغربية حتى وادي الروضة. وتكثر فيها الأرناب وطيور الحجل والدّيك الرّومي (الفرخة).

وفي الجنوب، الأوردي، أو معسكر الأتراك مع ثكنات المشاة والخيالة. وخارج

باب الخزيمة هناك المقبرة (الجبانة) العربية.

وأما رحلات الاستجمام فتتم إلى الرّوضة وجبل حدّة⁽¹⁾ وجبل نقم.

* * *

(1) تقع حدّة حالياً في عزلة حزة صنعاء، وكانت سابقاً هجرة علمية في مخلاف بني شهاب الأعلى، وتبعد عن صنعاء حوالي 5 كم إلى الجنوب الغربي، وهي إحدى منتزهات صنعاء الأكثر شهرة من غيرها، وتقع على أكمة واسعة تتصاعد على جوانبها المدرجات المزروعة بأشجار اللوز والبرقوق، وكان بها غيل يسمى (حُميس)، كان غزير المياه.

الفصل العاشر

الفصل العاشر

القرآن - ما هو وما الانطباع الذي يعطيه للقارئ - أحكام الإسلام - الدين التوحيدي - صفات الله - رفض التثليث - أسباب قيام دين النبي محمد التوحيدي - القيامة - أحداث تسبق الدين وتليه - الدين - جهنم - الجنة - البرزخ.

بعثة محمد (ص) - رسول الله وخاتم الأنبياء واستمرار لإبراهيم وموسى وعيسى - النبي الأمي - تصريح الكتب المقدسة عن قدومه - هو الفارقليط Paraclete - القدر ليس عقيدة إسلامية - إلام يدعو القرآن ؟ - رأي بعض علماء المسلمين الأوائل - الإيمان بالقدر وتبعاته.

أتباع الدين الإسلامي - الملائكة والشياطين - خلق الكون والسموات - آدم وحواء، خطيئتهما، خروجهما من الجنة، انفصالهما، نفيهما في الأرض ثم قبولهما - قابيل وهابيل - شيث Seth.

العهد القديم - الإنجيل - يسوع وأمه مريم عليهما السلام.

العبادة الظاهرية: الصلاة - الزكاة - الصيام، الخ.

سأتكلم الآن عن العادات والتقاليد والأعراف والتجارة في اليمن، المستفاعة من تعاليم القرآن، فهو قانونهم المدني والجنائي والمؤثر الأقوى في طريقة حياتهم وسلوكياتهم. لذلك سأحدث عن ذلك طويلاً مكرّساً هذا الفصل لمن لا يعرف إلا الشيء القليل عنه. أو لمن يظن به باطلاً أو غير ذلك، أو أنّ به أحكاماً جائرة.

لن أدافع عن هذا الدين، فهو ليس ديني، ولكنني سأعرض القوانين والأخلاق والعبادة، لأنه من المستحيل الحكم على شعب متدين كالشعب العربي إذا لم يكن لدينا إلا معلومات خاطئة عن حياته العامة والخاصة.

القرآن⁽¹⁾: من القراءة أو المقروء، هو عند المسلمين ككتاب العهد القديم عند اليهود والإنجيل عند المسيحيين. فيه تعاليم النبي، ولكن من الضروري التمييز بين عقيدة القرآن والسنة أو الأحاديث التي جمعها الرواة حول كلام الرسول. وهناك أيضاً أساطير وعجائب نُسجت حول الأنبياء والقرآن نفسه وحول عالم الغيب.

يقول المسلمون بأن القرآن مقسم إلى مئة وأربع عشرة سورة أنزلها الملك جبريل على محمد (الجدير بالحمد) ابن عبد الله خلال اثنتين وعشرين سنة، وهو بدوره بلغ رسالته كنبى.

ثمة قليل من كتب اختلف الناس في تحليلها كما اختلفوا في شرح القرآن. يقول بالغريث Palgrave خلال رحلته إلى جزيرة العرب (1: 273): «إن قراءة هذا النصّ الفريد الرائع تتعذر على الإنكليزي أو الفرنسي».

والقرآن هو مجموعة تعاليم نزلت بسبب أحداث وقعت يومها. وهناك أحداث تطابقت مع ما جاء في العهد القديم أو الإنجيل، وتفاصيل دقيقة وردت في قوانين موسى. وإن التّكلم عن العبودية وسوء فهم تفضيل الرجل على المرأة قد أوقع الشرق تحت نير الاستبداد الديني المتعصب.

وتوجد في القرآن العبرة الطاهرة والمثل الصّالح والأسلوب العظيم وأحكام تخصّ الشعوب التي نزل من أجلها. وأردت قراءة ودراسة القرآن كله. ولقد قام بتفسيره في صنعاء عدد من الأئمة والقضاة وخاصة أستاذ اللغة العربية القاضي حسين القلاصي الذي وجدت أهمية في بحثه.

(1) كتب المؤلف: القرآن: من قرأ. ويسمى الهادي والفرقان (التمييز بين الحق والباطل)، والكتاب وكتاب الله وكلمة الله والتّزليل (من السماء) والذكر والمُصحف.

في القرآن وصفٌ للجنة (كما سنرى) ويمكن تأويل ما ذكر واعتباره كنايةً أو تشبيهاً. فلقد وعد النبي المؤمنين بالمتع. وأما الحور العين فقد ذكرت في القرآن في سور عديدة ولكنها لم توصف بشكل مبتذل. فهن في القرآن: ﴿قَصِرَتْ لَطْرُفُ أَنْزَابٍ﴾ (سورة ص، 52). هن نساء لا يلطخ نقاءهن شيءٌ ونظراتهن حيّة.

والسُّور غير مرتبة بشكل منتظم في القرآن، فهناك سور أولى جعلت في آخره.

وهناك أمران رئيسيان يدعو إليهما القرآن هما: التوحيد والإيمان باليوم الآخر.

الله واحد وأبدي، حيّ وعظيم. يعرف كل شيء ويفهم ويرى كل شيء. إرادته عظيمة، وكذلك حكمه. لا شكل له ولا حدود ولا عدد ولا أجزاء. ذلك أنه لا جسد له ولا مادة. لا بداية له ولا نهاية، ويقوم وحده دون ذرية ولا مسكن. ولا يمكن المقارنة بين طبيعته وصفاته فهي تتوحد فيه ولا تحل محله. يملك الكلمة الأزلية في معناها دون أحرف وأرقام ودون صوت، مع أن طبيعتها تخالف السكون.

انظر كتاب «القانون الديني» لدوسون⁽¹⁾:

Muraggia di Ahassòn, *Codice religioso*.

أراد محمد (ص) أن يبين أن الطبيعة الثلاثية تتضمن شركاً يدعي باطلاً بوجود ثلاثة آلهة. ويبين أن الله هو المعبود الحق، وأن ما عبده الناس من دون الله باطل. وفي القرآن: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ. هل لله أولاد؟ لا، وإلا انشقت السماء وغارت الأرض وسقطت الجبال. ومن يتخذ من دون الله شريكاً له عقاب شديد. وفي القرآن: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَارْفُاعَكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

(1) يكتب المؤلف اسم هذا الكاتب بطريقة مغلوطة، والصواب فيه: إنياس مُرادجا دوسون كما يلفظ بالفرنسية: Ignace Mouradja d'Ohsson وهو صاحب العمل الموسوعي الكبير حول الدولة العثمانية: «المسرد العام للسلطنة العثمانية» *Tableau général de l'empire othoman* الذي نُشر بأربعة أجزاء كبيرة مع رسوم بديعة في باريس 1787-1791، ثم أكمل في 3 أجزاء أخرى عام 1824.

ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾. (سورة آل عمران، 55).
وفي آية أخرى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. (سورة آل عمران، 59). ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. (سورة التوبة، 31).

ومعنى التوحيد موجود في كلمة: لا إله إلا الله.

لماذا رفض محمّد (ص) ألوهية المسيح؟ لأنه ما فوق الطبيعة؟ كما يقول رينان Renan. لا، فالقرآن حافل بما هو خارق للطبيعة وبما وراء الغيب. بل بسبب عظمة الله وسيادته يرفض الإسلام مبدأ الثنائية أو الثالث. إنّ دحض محمّد للثنائية ليس له حدود، ولذلك فرسوخه في روح التوحيد جعله يرفض هذا المفهوم.

في القرآن يتكلم المسيح بنفس أسلوب إبراهيم وموسى. وهو ليس إلا رسول الله وليس ابنه. وبالنسبة لمحمّد (ص)، فإنّ المسيحيين يسيئون إلى نبي بيت لحم إذ يعتبرونه إلهاً. ولذلك فمن يكنّ احتراماً للمسيح (ترد في القرآن تبرئته من الأغلاط التي تُنسب إليه من عبده) حرّ به أن يعبد الله الواحد. ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّن سُلٰطٰتِن سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّن سُلٰطٰتِن يَهْدٰٓءُ أَنۡقُولُوۡكَ عَلٰٓى ٱللّٰهِ مَا لَا تَعۡلَمُوۡنَ﴾. (سورة يونس، 68). ﴿وَقَالَ ٱللّٰهُ لَا تَتَّخِذُوا ٱلۡهِنَ ٱتِّخٰنَ ۖ إِنَّمَا هُوَ ٱللّٰهُ وَحِدٌ فَاِتَنٰى فَٱرۡهَبُوۡنَ﴾. (سورة النحل، 51) ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللّٰهِ ءَاتٰنِى ٱلۡكِتٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصٰنِى بِٱلصَّلٰوةِ وَٱلزَّكٰوةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ﴾. (سورة مريم، 30 - 31). وينكر محمّد (ص) أن يقول عيسى لأتباعه: اعبدوني كما تعبدون الله.

لله صفات الإله الكامل، وهو القوي والعظيم والعليم. ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسَنٰى﴾. وهذا يحتاج إلى بحث مطوّل. وعندما يتكلّم النبي عن الله يستخدم أنبل المعاني فيصف عظمته ورحمته وفي نفس الوقت يذكر عقابه. ﴿ٱللّٰهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمٰتِ إِلَى ٱلنُّوۡرِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ أُولَٔٓىٰٓاُوۡهُمُ ٱلظُّلُمٰتُ يَخْرِجُوۡهُم مِّنَ ٱلنُّوۡرِ إِلَىٰ

الظُّلُمَتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ (سورة البقرة، 257).

الله الملك المطلق الذي يحكم بملء إرادته.

الله يملك الحياة والموت والله يعاقب ولقدرته أمثلة عديدة.

يوم القيامة لا يعلمه إلا الله ويؤكد النبي على يوم البعث.

هذا والنبي المسلم هو مشرّع ديني وليس فيلسوفاً، وكنبي كالأنبياء جميعاً لا يناقش وإنما يؤكد. ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ (سورة آل عمران، 7)

ويعت الله الإنسان ليحاسبه على أعماله. ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ (سورة آل عمران، 25).

والإيمان باليوم الآخر هو اعتقاد راسخ عند المسلمين. وأما الحياة الدنيا فهي كما في ديننا تحضير للحياة الأخرى التي تأتي على شكلين: الجنة أو الفردوس، أي البستان، وجهنم أي سقر والنار.

يحث النبي محمد الناس باستمرار على تحضير أنفسهم لهذا اليوم الذي لا يمكن لأحد أن يتجنبه. ويحث على العقيدة الصادقة والعمل الصالح: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ (سورة المنافقون، 10-11). وهناك علامات لليوم الآخر. سيعم الأرض دخان أسود كثيف، ويظهر المسيح الدجال، وتخرج دابة من جبل الصفا وتتكلم: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿١﴾ سَيَنْهَضُ مِنَ الْأَرْضِ مَعَهُ عَصَا مُوسَى وَصَوْلَجَانُ سُلَيْمَانَ. وسيكتب بالعصا على وجوه الذين آمنوا «مؤمن» وبالصولجان يكتب على وجوه من كفروا «كافر».

وستخرج الشمس من الغرب ويعود عيسى ابن مريم. وستأتي سلالة يأجوج ومأجوج. وسينهار الشرق وبعده الغرب ثم جزيرة العرب. وستخرج النار من اليمين لتعم الأرض ويحشر الناس. وتنفخ الملائكة في البوق ويخرج الأموات. فالله الذي خلق الإنسان من تراب، يعيده إليه ثم يبعثه من جديد. ويدوم كل ذلك بضع ثوان: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (سورة النحل، 77).

وبعد أن يُنفخ في الصور، يتحول كل شيء إلى تراب وتصبح الجبال كالقطن المتطاير والناس كالفراس وستُفتح أبواب السماء وفي ذلك الوقت تتخلى المرضعة عن رضيعها وتطرح الحبلى وليدها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى. ويُبعث الناس أمام الخالق ليحاسبهم على أعمالهم، وهو يوم الحق وليس سراباً. عندئذ يجلس الله على عرشه يأخذ الميزان ويزن أعمال البشر وكل نفس تحمل أعباءها ولن يجد الكفار نصيراً ولا معيناً. وسينفصل الطيبون عن الخبيثاء حينئذ تبيض وجوه وتسود وجوه. ثم يمر كل واحد على الصراط الدقيق كالشعرة والحاد كالسيف فيعبره المؤمنون بسرعة واطمئنان ولن يستطيع الكافرون وضع أقدامهم، بل سيقعون في الهاوية ويحرقون إلى الأبد وكلما خرجوا أعادهم حراس جهنم إليه. وسيكون طعامهم الزقوم وستُسكب عليهم المياه الحامية ولن يكونوا أمواتاً ولا أحياء وستكون النار لباسهم وسيُجلدون بقضيب من الحديد. أما المؤمنون فسيكون نصيبهم الجنة يجري فيها نهر الكوثر. وسيلبسون الحرير وأساور من ذهب وفضة مضطجعين على الأرائك تحت أشجار وارفة الظلال ويشربون شرباً لذيذاً تقدّمه إليهم شابات جميلات قاصرات الطرف، ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَهُنَّ فَبَلَّهِنَّ وَلَا جَأَنٌ﴾.

ويُعدُّ الإيمان بأن محمداً هو رسول الله جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية بعد الإيمان بوحدانية الله. والنبى لم يؤسس ديناً جديداً: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَكَرِيَّا﴾. (سورة النساء، 163).

وطلب الله منهم أن يحافظوا على الدين ولا يتفرقوا شيعاً، وبين أن النبي محمد ليس أبا أحد من الأنبياء ولكنه خاتمهم: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾. (سورة الأحزاب، 40). لذلك فلقد أعاد محمد ملّة إبراهيم ورسالة الله واحدة، ولكن الناس أهملتها وحزفتها. وبعث الله النبيين في أزمنة مختلفة وكان محمد آخر من يتبع حتى يوم القيامة.

ويحترم محمد جميع أنبياء العهد القديم والحديث ويسمّيهم أنبياء ورسلاً وهم: إدريس ونوح ولوط وأيوب وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى ومريم (أخت موسى) وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريّا (والد يوحنا المعمدان) ويحيى (يوحنا المعمدان) وعيسى ومريم العذراء وأخيراً محمد. وإلى جانب أولئك الأنبياء، يضيف القرآن هوداً نبيّ عاد، وصالحاً نبيّ ثمود وشعياً نبيّ مدين. والإسكندر الكبير⁽¹⁾ الذي اسمه في القرآن (ذو القرنين) هو مبعوث من قبل الله أيضاً.

وكان النبي محمد أمياً، جاءه الوحي وبشّرت به الكتب السماوية الأولى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْتَيْنِ﴾. (سورة الصف، 6). ولمحمد (الجدير بالحمد) أسماء كثيرة وصفات تصل إلى المثة. وأحمد يقابله كلمة «پريكليتوس» Peryclitos، أي الظافر بالإغريقية (يوحنا 17، xvi). وإن عبارة «پاراكليتوس» Paracletos، وتعني نزول الرّوح المقدّسة، هي تحريف عن الأولى.

وأما الإيمان بالقدر فلم يُذكر كثيراً في القرآن، وإن ذكر الجنة والنار بكثرة يدلّ على الثواب والعقاب نتيجة لإرادة الإنسان بفعل الخير أو الشر: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(١٠) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ

(1) هذا مجرّد رأي من المؤلف شاع لدى الباحثين الغربيين في عصره، ولكن جمهور المفسّرين لدينا لا يعدّون شخصيّة ذي القرنين المذكورة في القرآن الكريم تنطبق على الملك المقدوني الإسكندر الأكبر (ألكساندروس).

خَيْرَ أَطْمَآنٍ بِهِ وَلَئِنْ أَصَابَنَّهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُمِينُ ﴿١١﴾ (سورة الحج، 10، 11).

ومن الجدير بالتنويه إلى أن إيمان المسلمين بالقضاء والقدر الذي يملي عليهم عدم التكيف أمام تقدّم العصر هو خطأ في التطبيق وليس في العقيدة. فالإسلام اعتبر المسلم مسؤولاً على مستويين: الجسد والروح. والجسد يعني تطبيق الشريعة ومن لا يطبقها يُعدّ خارقاً لها وهو مسؤول عنه وليس مقدراً عليه. وأما الروح، فمن اهتدى تراه سعيداً ومن لم يؤمن كفر ويمكن أن ينطبق على الروح مفهوم القدر. ويعني ذلك أنه قد قرّر منذ الأزل أن يكون هناك مؤمنون وكفار. ولكن، كالكنيسة، فإن ردّ أي عمل بشري إلى الله هو كفر بالدين. ففي أي ظرف يعترض الإنسان، يطلب المسلم من الله ووساطة النبي والأولياء الصالحين مباركة أعماله ولكن بعد أن يكون قد عمل كل ما يرضي الله وتفكّر في الأمر وأخضع ضميره وعلمه وخبرته وعقله. بعد استخدام العقل، يمكنه الإيمان بالقدرة الإلهية ويخضع حينئذٍ لله بشكل كامل ويُسلم أمره إلى إرادة الله وقضائه. ذاك هو تفسير فقهاء الإسلام الأوائل للقدر. ولكن معظم الناس اليوم يرجعون كل شيء إلى قضاء الله وكأنهم غير مسؤولين. وهذا يثبّط من عزيمتهم ويقتل الحماس تحت قناع «الاستسلام لأمر الله» وهي ترجمة غير دقيقة لكلمة الإسلام، وستؤدي إلى سقوط إمبراطورية الشرق وموتها: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الرعد، 11).

لا إله إلا الله، محمّد رسول الله، هي شهادة المسلم وبدونها لا يتم إسلامه. وبعد ذلك يجب أن يؤمن بالملائكة، وهي مخلوقات نورانية تعبد الله ولا تتركب الخطايا. ومنهم من يتعبد الله دائماً ومنهم من يحرس عرش الله ويستبحون بحمده ومنهم من يسجّل أعمال الإنسان ومنهم من يحرسه. ومن الملائكة جبريل الذي ينزل الوحي على الأنبياء، وميكائيل الذي يجمع الغيوم وينزل المطر، وإسرافيل ملاك الموت الذي يقود الروح إلى حياتها الجديدة أمام الحكم الأعلى. ومالك الذي يراقب الفارين من النار فيعيدهم. وعزرائيل الذي ينفخ في البوق السماوي مرتين، الأولى لإماتتهم

والثانية لبعثهم.

وتحب الملائكة المؤمنين وتقسو على الكافرين. وفي القرآن إبليس أو الشيطان وهو عدو الإنسان. والملائكة الذين شهدوا خلق الإنسان، يعرفون أن الله فضله عليهم وجعله خليفته على الأرض. وخلق الله آدم الذي سجدت له الملائكة إلا إبليس أبى واستكبر فلعه الله إلى يوم الدين. فقرّر إبليس إغواء الناس. وبعد الملائكة خلق الله الأرض بكلمة كن في ستة أيام. والسموات السبع من المحتمل أن تكون كناية عن اتساع الكون. وخلق الله آدم من صلصال. ولا يشير القرآن إلى أن الله خلق آدم على صورته كما يقول الكتاب المقدس. ولا تذكر حواء إلا قليلاً. ويمجد القرآن مريم وعذريتها ويصفها بأنها مباركة بين النساء وأن جبريل نزل عليها وبشرها بالمسيح. والأركان الخمسة للإسلام هي: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، إلى مكة.

والصلاة خمس مرات هي فرض، وتتم في أوقات معينة ويسبقها الوضوء. وهناك نوعان: تطهير القسم الخارجي من الجسد قبل الصلاة، والاعتسال بعد الجماع. وهناك التيمّم للمسافر والمريض. وتتم الصلاة على سجادة وليس على الأرض، وإذا لم يتوفر ذلك، فعلى رداء المصلي. والحشمة ضرورية. يجب على الرجل أن يغطي خصره حتى الركبة والعبيد من الأكتاف حتى الركبة والحرّة بأكملها. وتكون الصلاة باتجاه القبلة، ويجب أن تسبقها النيّة ويقودها الإمام. وفي الصلاة يكبر المصلي ثم يقرأ الفاتحة وهي السورة الأولى من القرآن ثم يركع ثم يكبر، فيسجد ويقف. ويسمى ذاك ركعة، والنّماز⁽¹⁾ namàz هو مجموعة تلك الركع ويختلف عددها حسب الأوقات.

تتم الصلاة الأولى في الفجر عندما يتبيّن الخيط الأسود من الخيط الأبيض. ويقال بأن أول من صلّى صلاة الفجر هو آدم الذي طُرد من الجنة وخاف من ظلمة الليل فصلّى ركعتين عند بزوغ الفجر شكرًا لله لأنه أعاد الصّباح. وصلاة الظهر لا تتم

(1) يستخدم المؤلف العبارة التركية نماز namaz التي تعني الصلاة، ويبدو أنه تعلم الكلمة من القاضي التركي رضا بك أو من بعض أصدقائه الضباط.

في منتصف النهار ولكن عندما تبدأ الشمس بالاتجاه نحو الغرب. وأول من صلاها إبراهيم لأنه أعفاه من التضحية بابنه وعددها أربع ركعات. وصلاة العصر تبدأ عندما يصبح الظل ضعفي طول العصا (في الساعة الشمسية). وأول من صلاها هو يونس بعد أن أنقذه الله من بطن الحوت، وعدد الركعات أربع. ثم صلاة المغرب عندما تغيب الشمس. وأول من صلاها هو المسيح لأنه أنقذه مع والدته وجعلهما حُرَّين وعددها ثلاث ركعات. وصلاة العشاء في الليل. وأول من صلاها موسى الذي ضاع خارج أرض مدين ولم يعرف المصير الذي آل إليه أولاده وزوجته وأخوه هارون من ملاحقة فرعون، فسمع صوتاً من السماء بألا يخاف. فسجد لله وصلى أربع ركعات.

وبلغ تمسك المسلمين بالدين أنهم كانوا يصلُّون عدداً أكبر من الركعات كانت تصل إلى المئة كهارون الرشيد، وهو خليفة عباسي.



الفصل الحادي عشر

الفصل الحادي عشر

القرآن مرة أخرى - الطعام الحلال والمحرم - الخمر والميسر - لباس الحرير - الخلع - الطلاق - الزنا - الوصايا - الخلافة - شهادة الزور - اليتامى - الشتيمة - الجريمة - القتل - الجرح بغير عمد - السرقة - شاهد الزور - الارتداد عن الدين - المسيحيون واليهود.

كأنبياء اليهود، سنّ النبي المسلم قوانين وبيّن شرائع دينية تتعلق بالطّهارة وأحكام الثّراء. بالإضافة إلى تفاصيل الحياة اليومية والشّراب الحلال والآخر المحرّم، واللباس والمتعة المحرّمة. ذكر ذلك كلّ في القرآن.

حُرِّمَت الميتة على المسلمين والدّم ولحم الخنزير وكل ما ذُبِح دون ذكر اسم الله عليه. وأُحِلَّ الصّيد إذا تمّ مع ذكر الله كما أُحِلَّ أكل الدّواجن. وحُرِّم لحم الحصان والبغل والحمّار والفيل والحيوانات المفترسة التي تتغذى على الجثث أو أكلة اللحوم والطّيور الجارحة والزّواحف. وكذلك حليب أنثى الحمّار أو الفرس لا يمكن شربه إلا بعد فترة معينة حتى يصبح نقياً. ولا يمكن أكل أحشاء الحيوانات والكلّى*، ومع ذلك كانت تؤكل في اليَمَن، خاصة في صنعاء.

وحُرِّم الدّم، ولا يؤكل اللحم إلا بعد أن يتمّ عقر الحيوان من نحره ليسيل دمه ويصبح نقياً.

* لاحرمه في ذلك (المراجع).

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْخِفَةُ وَالْمَوْقُودَةُ
وَالْمُرْدِيَّةُ وَالنَّطِيطَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا
بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَمْ فِسْقٌ ﴾ (سورة المائدة، 3).

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا
أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾. (سورة البقرة، 219).

﴿... إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ
وَعَنِ الصَّلَاةِ... ﴾ (سورة المائدة، 90 - 91).

تكلّمت عن الزّواج في الفصل الخامس، لذلك لن أذكره مجدداً. ولكنني سأتكلم
عن الخلع والطلاق.

أحلّ الطلاق للرجل في حال امتنعت زوجته عن تلبية رغباته، أو صدر منها ما أقلق
نومه أو كان فيها عيب جسدي. ولا يتم الطلاق إلا لأسباب وجيهة ومُلحّة. ولقد لعن
الرّسول من طلق زوجته لملل أو ليشبع رغباته.

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتْهُنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ
لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ
وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾.

لذلك لا يمكن للزوج هجر زوجته إلا بعد انقضاء أربعة شهور لم يقترب خلالها
منها، ولم يتراجع عن الأمر.

وإذا انتهت المدة وأراد الرجوع إلى زوجته، عليه أن يحصل على موافقتها ويكتب
عقد زواج جديد. ويجبر الزوج على منحها مهراً جديداً.

ويمكن للزوج طلاق زوجته مرّة أخرى والزّواج بها مرّة ثالثة بنفس الشّروط. وبعد
الثالثة، تُحرّم عليه إلى أن تتزوج من شخص آخر وتطلق.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٩﴾ وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعْلِنَنَّ أَحَدُهُمَا أَنَّ ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا... الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ... فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا مَحِلَّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا...﴾ (سورة البقرة، 226 - 227 - 228 - 230).

وما أتعس من يطلق زوجته التي أحبها، ثم يتركها تتزوج من صديق له ليعيدها هو بعد أن طلقها صاحبه.

والطلاق في الشريعة الإسلامية يتم بحكم قضائي بطلب من المرأة وبموافقة الرجل. وإذا عدلت المرأة عن قبولها بالطلاق قبل أن يقرر الرجل، كان لها ذلك. أما إذا وافق الزوج على الطلاق يسري مفعوله ولا تستطيع بتراجعها أن تبدل أي شيء.

وحول علاقة الرجل بالمرأة. فضل القرآن الرجل على المرأة. إلا أنه في الوقت ذاته طلب منه أن يحسن معاملتها. وإن أخطأت فمن حقه هجرها في المضاجع ثم ضربها إن استمرت.

يجب على المرأة أن تطيع زوجها وتصون عرضها وتغض نظرها وتضرب بخمارها ولا تبدي زينتها إلا لزوجها أو والدها وأبنائها وإخوانها ومن كان قاصراً ومن لا تحل له بالزواج.

وحُرِّمَ الزَّنا. ولكن قبل الحكم على الزَّانية والزَّاني يجب أن يُحَقَّقَ في الأمر ويكون هناك شهود عيان.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَايُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (سورة النور، 2).

﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحْشَاءُ مِنْ نِّسَائِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

وفي الإرث لا تختص الورثة بالمولود الأول بل بالمولود الذكر، وله ضعفا حق الأنثى. والأبناء هم أول من يرث: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨) ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٩) ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٠). (سورة البقرة، 180-181-182).

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَلَةِ إِنْ امْرَأُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. (سورة النساء، 176).

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَأَسْأَوُكُمْ وَأَسْأَوُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١) ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (١٢). (سورة النساء، 11-12).

يحرم القرآن شهادة الزور وعقابه الجلد: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَلْيُجِدُوا فِي غُلُقِهِمْ ثَلَاثِينَ جَلْدَةً وَلَا يَأْبُوا شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. (سورة

التور، 4).

وفي القرآن عقاب القاتل والذي يلعن والمجرم والسارق والمرتدّ عن دينه. والقصاص هو العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم. والحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والمرأة بالمرأة.

والحكمة من ذلك هو الصبر على الإهانات والتسامح.

وعقاب القتل واضح في القرآن.

﴿...مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ (سورة المائدة، 32).

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨) ﴿فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٩) (سورة المائدة، 38 - 39).

وهناك أمثلة من السنة تبين عدم اللجوء إلى هذا العقاب إلا في الحالات القصوى لأمر فادح وعظيم.

وقتل مؤمن عقابه:

﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (سورة النساء، 92).

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَذَابُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنُهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء، 93).

وأما عقاب المرتدّ عن دينه فهو أشدها وهو القتل. إلا إذا رجع المرتد ونطق

بالشهادة ثلاث مرات.

وبيّن القرآن كيف أن الرسول يفضّل المسيحيين على اليهود. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ
النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيكَ ذَلِكَ يَأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا وَآنَهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ﴾. (سورة المائدة، 82).

وللعذراء مريم مكانة كبرى عند المسلمين ولا يجوز قذفها بالسوء. أمّا اليهود
فتكرّر اللعنات تجاههم لأسباب كثيرة. ولا يجوز الطعن بالأديان الأخرى ولا يطعن
إلا بمن أشرك بالله. ولكن، وللأسف، فالتاريخ مليء بعدم طاعة الأديان كلها واللجوء
إلى إهانة الديانات الأخرى.

* * *

الفصل الثاني عشر

الفصل الثاني عشر

تاريخ اليمَن - النبي الذَّجَال - الخلفاء - علي والعلويون - إبراهيم بن موسى يسيطر على اليمَن - البر تغاليون - الزيديون - الأتراك - خروجهم القسري من اليمَن - إمامة صنعاء - الوهايون - الحروب المصرية - الأتراك يعودون إلى اليمَن - الوضع الحالي للعربية السعيدة.

كان النبي محمّد أثناء حياته قد بعث ابن عمّه وصهره علياً مع أشخاص آخرين إلى اليمَن لدعوة الناس إلى الدين الجديد والانضواء تحت لواء الأمة الإسلامية.

وظهر أثناء الدّعوة شخص يدّعي النّبوة اسمه الأسود العنسي، وتبعه عدد كبير من اليمَنيين طاردين من أسلم من ديارهم.

حكم الأسود سنين عديدة في اليمَن حتى بعد وفاة النبي في مكّة إلى أن جاء رسل أبي بكر، وهو الخليفة الأول، بعد النبي وقتلوه.

وفي صباح اليوم التالي نادى المؤذّن من أعلى المئذنة مكبراً: «الله أكبر. لا إله إلا الله محمّد رسول الله».

عند وصول نبأ موت الأسود بدا الأمر وكأنه إشارة من السّماء، فأسلم أهل صنعاء. وتبع صنعاء اليمَنُ بأكمله. وأصبح تابعاً لدولة الإسلام التي امتدّت من الهند إلى إسبانيا وعاصمتها المدينة ثم دمشق ثم بغداد.

لم يعيّن الرّسول قبل وفاته خليفة من بعده، وكاد ذلك أن يهدّد أركان الدّولة التي

بناها بجهد ومشقة. فلقد كان هناك حاجة لمن يقود المعتنقين الجدد لهذا الدين ويكون مشرعاً دينياً ودنياً يعظ الناس ويقودهم ضد أعدائهم.

ولقد رأى الصحابة أن يختاروا خليفة من صفهم بالشورى. وهنا بدأت الغيرة على الدين والتنافس على الأفضلية، ولكي لا يؤدي ذلك إلى انقسام المؤمنين من جهة والارتداد عن الدين للمعتنقين الجدد، حُسم الأمر باختيار ثلاثة رجال هم: أبو بكر وعمر وعلي. وكانوا من المهاجرين.

خضع عمر رغبة وطوعية لأبي بكر الصديق. أما علي فأجبر على القبول واختير أبو بكر بالإجماع خليفة المسلمين الأول.

بعد موت أبي بكر، اختير عمر بن الخطاب، وكان عليّ ما يزال يعارض على رأس أتباعه. وبعد عمر اختير عثمان بن عفّان. وأخيراً اختير عليّ وتبعته فارس وبلاد الرافدين. وانقسمت دولة الإسلام إلى قسمين. ثم اغتيل عليّ وولده من قبل الحزب الحاكم في دمشق، وظلت الفتتان المنقسمتان تتقاتلان على مرّ العصور. ولقد أطلق على أتباع علي اسم الشيعة⁽¹⁾ وبالنسبة إليهم فإن خلافة علي هي وحدها الشرعية، فهو أسد الله الغالب وسَمّوا أنفسهم بحُماة الحق والحزب القويم، وكان ما عداهم يستَمون بأهل السُّنة⁽²⁾.

وتاريخ اليَمَن ومذهبه الديني في ظل الخلافة لم يكن بذي شأن. إذ أنها اعتبرت مقاطعة من المقاطعات الكثيرة التابعة للخلافة التي يحكمها أحد أقرباء أو أصدقاء الخليفة نفسه (وهو سني دائماً) وكان يدفع الضرائب المترتبة بشكل دائم.

أما رؤساء الثوار فكانوا يفرّون إما إلى بلادهم في فارس، أو ينتشرون في مقاطعات الإمبراطورية ليحثّوا المتمردين على الثورة.

من أولئك ظهر إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمّد الذي، بعد استيلائه على مكّة، توجّه نحو اليَمَن (818 بعد الميلاد) الذي كان يخضع لحكم إسحق بن موسى،

(1) كتب المؤلف: الشيعة لا ينتمون إلى المذاهب الأربعة.

(2) كتب المؤلف: وهم الخلفاء الأمويون والعباسيون.

وهو أحد أقرباء المأمون. وعند تقدّم حملة إبراهيم، أراد إسحق ترك صنعاء للتوجه نحو مكة، تاركاً لذلك المتمرد أخصب أرض في المقاطعات العربية.

أعلن إبراهيم سلطاناً على اليَمَن، ونفى وقتل وسجن كل أتباع الخليفة السابق وأقرباءه وأهله العباسيين، وكانوا من السّنة. وهكذا أصبحت اليَمَن شيعية.

وتذكر اليَمَنِيون عجائب عليّ في بلادهم وملاحقة الأمويين له، وتعبيراً عن حبّهم للسلطان الجديد إبراهيم الذي أعلن استقلالهم عن بغداد، تشيّعوا. وأصبح اليَمَن مستقلاً وشيعياً منذ ذلك الوقت.

بعد عائلة إبراهيم حكم بنو غسان اليَمَن، وبعدهم، أي من 1454 بعد الميلاد (859 للهجرة) بنو طاهر.

في السّنوات الأولى للقرن الخامس عشر، قام البرتغاليون بقيادة فاسكو دا غاما بالدوران حول رأس الرّجاء الصّالح ودخول الهند، وبمساعدة ملاح عربي هو أحمد بن ماجد⁽¹⁾ نزلوا اليابسة في مالابار. أما ملك غوجرات (مقاطعة وشبه جزيرة إلى الشّمال من بومباي) فقد أصابه الهلع عند رؤية الفرنجة على مقربة منه، وسرعان ما طلب مساعدة سلطان مصر الذي لم يكن تركيا وإنما چركسياً.

عندما رأى عامر من بني طاهر، سلطان اليَمَن، أن البرتغاليين يهدّدون بلاده بعد إرساء مراكبهم في مدينة المُخا، فعل الشّيء ذاته. وقام حسين قائد القوات المصرية الذي عيّنه سلطان مصر لمحاربة وإخراج الفرنجة بالانحياز ضد عامر، البخيل الذي منع عنه الطّعام. وعند اصطدامهم الأول في سهل باجل قرب الحُدَيْدة، أصيب شعب اليَمَن الذي لم يكن قد رأى الأسلحة الثّارية من قبل بالهلع، وما لبسوا أن هربوا بطريقة مُخزّية ملتجئين إلى زَبِيد ومعهم بعض طلقات المدفع الذي تسبّب في موت الكثير

(1) هذا الادّعاء خاطئ تماماً، فأحمد بن ماجد لم يساعد فاسكو دا غاما على الوصول إلى الهند كما ادّعى دا غاما في مذكراته، بل هناك رواية تدلّ على قيام فتى ملاح أفريقي كان يعمل لصالح ابن ماجد بسرقة بعض خرائطه وبيعها لفاسكو، ممّا مكّنه من الوصول إلى الهند. وستكون لنا في هذه السلسلة دراسة مفصلة حول حياة أسد البحار الملاح العظيم شهاب الدّين أحمد بن ماجد.

من صفوفهم.

وقعت زَبِيد بعد ذلك عام 1517 في قبضة الحسين، الذي كان لمدة سبعة وعشرين يوماً يستوفي الضرائب التي فرضها على سكان اليَمَن على شكل مال، إما بالقسر أو بالإقناع.

وفي أثناء ذلك كانت سلطة الجركس تنهار في مصر. فلقد تمكن السلطان سليم، سلطان الأتراك، من دحر سلطان مصر قانصوه الغوري. وبانتصاره فيما بعد على خليفته طومان باي، تمكّن من ضمّ وادي النيل إلى الإمبراطورية العثمانية.

أما سعيد، شريف مكّة، فلقد تحفّظ من إعلان ولائه لمن استولى على أرض الفراعنة، واكتفى بإرسال ابنه أبي نمي إلى سليم محمّلاً بالهدايا.

فرح سليم بخضوع شريف مكّة الذي يعني الكثير. فبعد تراجع الخلافة، أصبح شريف مكّة هو الرئيس الروحي للمسلمين. وبناءً على ذلك خصّ سليم الشريف سعيد بكامل السيادة على المدينة المقدّسة وما زالت تلك السيادة تمارَس حتى اليوم.

ولقد أُلقي القبض على الحسين وحُكم عليه بالموت. وأراد أحد قوّاده أن يثار له، فاستولى على صنعاء. لكن حكمه لم يقدّر له أن يطول، إذ سرعان ما هُزم أمام العرب. أثناء غزو مصر، برز اسم حسين آخر يخضع لسليم، عيّنه سيده حاكماً على جدّة.

وعندما وصل حسين هذا إلى جدّة، وجد ترسانة المدينة مليئة بالذخيرة والأسلحة التي تركها المصريون ورأى بأن اليَمَن بلا سيادة، فقرّر الرّحف عليها لولا أنّ موت السلطان سليم منعه من تحقيق ذلك.

عام 1523، قام إسكندر بك القرمانلي على رأس جيشه بالاستيلاء على زَبِيد. وعندما علم بذلك حسين جدّة، عاوده الحلم من جديد بالاستيلاء على اليَمَن. ودحر الإسكندر الذي مات وهو يقاتل. ثم مات الحسين أيضاً بعد فترة وجيزة وكان على وريثه خوض معارك طاحنة ضد سليمان الرئيس، وهو مصري هرب من مصر واتخذ لنفسه حلفاء من عرب اليَمَن.

وغدت أخصب أرض في جزيرة العرب مسرحاً للمعارك الطويلة بين المتنازعين الطامعين، إلى أن قام الأمير بن سودي * l'Emiro Ben Sudi بتوحيد اليمَن تحت هيمنته.

وبعد أن استتبَّ الأمن لابن سودي وحكم بعدل وحكمة. ثم استطاع أن ينقل السُّلطة إلى ابنه. وفي ظل حكم ابنه هذا، قام رجل يدعى شرف الدين هو رئيس الزيدية (الشيعية أو العلوية الذين غيَّروا اسم الخليفة إلى إمام أو شريف) بالاستيلاء على جبال اليمَن. بينما ظلَّ أبناء وسلالة بن سودي يحكمون سواحل الجزيرة الجنوبية.

وأصبح سلطان الأتراك والمصريين العثماني السلطان سليمان خان الثاني الغازي الذي أراد دحر البرتغاليين في الهند. فوصل أسطوله بقيادة الخادم إلى عدَن (1536) قادماً من السويس. ثم تراجع نحو المُخا. اعترفت تلك المدينة مع جميع المدن الواقعة على شاطئ البحر الأحمر (الحديدة والقنفذة وجدة وينبع، الخ) مباشرةً بهيمنة سلطان القسطنطينية. وشيئاً فشيئاً خضعت الجزيرة العربية بأكملها للإمبراطورية العثمانية وحكم اليمَن اثنان من الهاشوات.

وبعد موت سليمان الثاني (1566) عاد الزيديون، الذين كانوا قد طُردوا، مرةً أخرى إلى اليمَن. وأُرسل سنان باشا في أواخر عام 1567 في حملة ضدهم، وبعد أربع سنوات من القتال تمكن من القضاء عليهم.

وهكذا عاد الهدوء إلى اليمَن، وعُيِّن حاكم من القسطنطينية يسمى بهران⁽¹⁾ (1571-1575). أظهر بهران كفاءة وجدارة في حكمه، ففتح الطُّرقات الكبيرة في اليمَن بأكملها، ووضع الجسور على أنهاره والسدود أمام التيارات التي تفيض عادةً. كما خفَّف الضرائب التي أثقلت كاهل العرب. وكمثال على ما فعله: أمر بعدَّ التَّخلات

(1) كذا في الأصل الإيطالي، والصواب: بهرام باشا والي اليمن خلفاً لسنان باشا، وتاريخ حكمه لليمن مؤرَّخ في كتاب «بلوغ المرام في تاريخ بهرام» للإمام الزيدي محمَّد المطهر فخر الدين بن يحيى.

* كذا وصوابه عامر بن داؤود (المراجع).

التي تثمر، وبألا تُدفع الضريبة إلا على الإنتاج الوفير.

إلا أن بهران أبعد عن الحكم. وفي 25 يناير 1575، عُيّن مراد باشا حاكماً على اليَمَن من قبل السلطان مراد الثالث. ومع الرئيس الجديد، عادت القلاقل، التي كان أحمد لها بهران، تعمّ البلاد وعاود قطاع الطرق يمارسون سطوهم على القوافل التجارية وعلى الحجاج الذاهبين إلى مكة.

ومع الوقت، استطاع أولئك البدو الاستيلاء على البلاد واكتساب قوة أرغمت في نهاية القرن السادس عشر سلطان أحمد الثاني القسطنطينية، عوضاً عن القضاء عليهم بقوة السلاح، على التفاوض معهم كأية قوة معادية أجنبية.

أما مصطفى الذي خلفه في السلطة، فقد أمر حاكم طرابلس الغرب بأن يسير بحملة إلى اليَمَن. ومرة أخرى فشل في مهمته. ودخلت السلطات التركية مترعزة الأركان في احتدام مستمر مع الأحزاب أو الشيوخ أو قبائل برمتها، إلى أن دُحروا نهائياً وتراجع كيانهم ليس فقط من اليَمَن التي عافت وجودهم، بل من جميع مدن ساحل البحر الأحمر التي سيطروا عليها زهاء قرن من الزمان.

وفي السنة نفسها (1630) قام القاسم المهدي، الشريف الذي يزعم انتماءه إلى آل بيت الرسول وهو رئيس الزيديين، بإنشاء إمامة في صنعاء تكون متوارثة بين أبنائه⁽¹⁾. وكان ذلك البند الأول الذي شرّعه. وتخضع سلطة الإمام للمحكمة العليا التي يرأسها بنفسه وهذا يخوله إقصاء الأعضاء متى أراد. ولا يحق لرئيس الوزراء أن يتمتع إلا بقلب

(1) كتب المؤلف: الإمام يعني بالعربية (ما يسميه اللاتين Antistes)، أي الذي يسير أمام الآخرين. هذا هو المعنى العام. أما المسلمون فيطلقونه على من يجمع الناس للصلاة ويتقدمهم وهو أيضاً الرئيس الروحي والمؤقت في الوقت نفسه. والخلفاء أيضاً لقبوا بالأئمة. إلا أن السنة لا يوافقون على جعل الإمامة دولة. فالبعض يعتبرونه حقاً إلهياً اختص الله به أهل البيت أو عائلة واحدة مثل اختصاص سلالة النبي هارون Aronne بسدانة الهيكل. أما الشيعة (العلويون) والزيديون، فأرادوا أن يعيدوا هذا الحق إلى أسرة علي. ولقد أسس العلويون في اليمن إمامتهم. وقاسم المهدي، أول إمام في صنعاء، هو حفيد محمّد المهدي، آخر أئمة الاثني عشرية الذين حكموا.

الفقيه. وانقسم اليَمَن إلى مقاطعات (الدولة) التي يترأسها الوالي الذي يرأس القوات والشرطة ويعجبي الضرائب. ومن واجب الوالي أن يكتب التقارير المستمرة حول سير الإدارة. وحيث يوجد الوالي، يوجد القاضي الذي يصدر الأحكام المدنية والجنائية والدينية. ويدير شؤون القرى الشيوخ أو المسنون. وتعود جميع الأمور القضائية إلى محكمة الإمامة كمرجع، وهي التي تصدر أحكام العفو. أما الملكية فتحميها الحكومة لقاء مبلغ من المال. وكانت الضرائب المالية تؤخذ من الجمارك الموضوعة على طرق تجارة القوافل. وفي حال الحرب، يُعتبر كل مواطن جندياً يؤمن السلاح والطعام لنفسه. أما وسائل نقل العتاد والسلاح فهي الجمال والبغال والأحصنة. وإذا أراد الإمام أن يخوض حرباً حثاً في السيطرة، كان عليه أن يشتري الجنود من خزينته الخاصة دون أن يجبر الناس على الانخراط في الجيش.

وفي السنوات الأولى للإمامة في صنعاء، كان العصر الذهبي لليَمَن وسجلت العائدات المالية ثلاثين مليون ليرة في السنة.

كان كل جندي في الخدمة يتقاضى عشرين ليرة في الشهر للعيش. وأما الضباط الصغار، فكانوا يحصلون على مئة ليرة في الشهر. وأما الموظفون المدنيون ورجال الدين فكان نصيبهم من الخراج يتناسب مع مهماتهم التي يوكلون بها والأرباح الناتجة عنها.

وكان يخضع لسلطة الإمام ستون ألف رجل من قوات الخيالة والمشاة النظاميين المستعدين للحرب في أية لحظة. ولكنهم لم يخضعوا لأي نظام عسكري ولم تكن لديهم فكرة عن التكتيكات الحربية. وأما وسائل الدفاع فكانت الأسوار العالية والمدفع الذي يوضع على (تخشبية) صُنعت من الخشب الرديء وغطيت بالقماش السميك. ويعول العرب كثيراً على مهارة خيولهم وخيالهم.

إلا أن أئمة صنعاء فقدوا قوة تأثيرهم ومكانتهم في اليَمَن مع مرور الوقت. ذلك أن المناصب الرئيسية كانت تعطى للمقربين أو لأتباع وخدم الإمام. وكان أولئك، عوضاً عن إحلال العدل، لا يحاربون الجشع بل يملؤون هم أيضاً جيوبهم بالمال ممتصين

دم الرّعية. وبدأت بعض القبائل تتمرد على حكام صنعاء وحذت حذوها قبائل أخرى. وهكذا قسم ألوف السّلاطين والأمراء والولاة القدامى أو الشيوخ البلاد إلى آلاف الدّويلات، وأعلنوا الحرب بينهم تارة والولاء تارة أخرى ليتحدوا ضد صنعاء.

وفي عام 1850، تقلّص نفوذ الإمامة في اليَمَن ليشمل مدينة صنعاء فقط التي ساعدها سورها المنيع على الصّمود. ومنع هذا سكان صنعاء من الخروج، فقد كانت القبائل تحاصرهم لتشن أيّ هجوم مرير.

في القرن الماضي، وفي مركز الجزيرة العربية في نجد، ظهر شخص يدعى محمّد بن [عبد الـ] وهاب أراد أن يصلح من شأن المسلمين ويعيدهم إلى تعاليم القرآن وتفسيره. لذلك منع الثّراء والبذخ وتسلط الحاكم الواحد الذي بدأ يتغلغل إلى صفوف المؤمنين. وقام أتباعه من البدو كثيرون الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الوهابيين بإعلان الحرب على كل من لا يتبع طريقتهم في الإصلاح، وجابوا جزيرة العرب بأسرها.

وصل الوهابيون الحجاز حيث المدن المقدّسة. واستولوا على عُمان وحضر موت وعسير. وقلق سلطان القسطنطينية من سرعة انتشار الوهابيين، فأمر محمّد علي ولي عهد مصر بقمعهم، وكان ذلك عام 1819. فبعث محمّد علي بابنه إبراهيم الذي أنجز مهمته بكفاءة وتصميم وعاد منتصراً.

وما إن رجع، حتى عاد الوهابيون من جديد. فأرسلت مصر حملة عسكرية أخرى باءت بالفشل إما لسوء التّحضير أو الإدارة. وكذلك الحملة على عسير عام 1835 التي قادها إبراهيم باشا آخر هو ابن أخي محمّد علي، وكذلك أحمد باشا. وبذلك الحركة كان المصريون قد أخضعوا ساحل البحر الأحمر لسيطرتهم وأرادوا أن يسيروا حتى الجزيرة العربية، وتتابع حملاتهم الواحدة تلو الأخرى تطأ أرض العرب.

تنبّهت حكومة القسطنطينية التي طلبت من المصريين التّدخل إلى هذا الأمر وإلى محاولة محمّد علي وأتباعه الهيمنة. وخوفاً من قيام مخطط لإمبراطورية عربية مصرية،

أعلن سلطان القسطنطينية خضوع ساحل البحر الأحمر لحكمه بعد أن أعاد خديوي مصر القوة والعظمة للباب العالي. ومكافأة لتضحيات مصر العظيمة وإغنائها للإمبراطورية العثمانية بمقاطعات جديدة أضافتها، تنازل الباب العالي لمصر عن الساحل الإفريقي الذي يمتد من قناة السويس وحتى رأس قصير (في الصومال) Guardafui.

وإبعاداً لأنظار حكام مصر عن فكرة التوسع الإمبراطوري، طلبت من الخديوي التوجه نحو السودان تاركة لهم كامل الحرية.

استخدم الأتراك جميع الفنون والأساليب لإبعاد المصريين عن فكرة التوسع في البلاد التي أخضعوها. وبالمقابل وافقت مصر على الاحتفاظ بقناة السويس والساحل الإفريقي، تاركة حرية تصرف الأتراك بمدن ساحل البحر الأحمر.

إلا أن سلطة الباب العالي كانت متأكدة من طموح مصر تحت حكم الخديوي الجديد إسماعيل باشا في متابعة سياسة سلفه التوسعية في جزيرة العرب. فما كان منها عام 1867 إلا أن أرسلت حملة عسكرية أخرى إلى اليمن. وفي عسير، استغلت سيطرتها على الحديد، لتُقبل السيد⁽¹⁾ Seid Dô الذي تحالف مع المصريين.

لقد كان هذا السلطان الصغير في جبل حراز وعاصمته مناخة قد شجع من قبل اليمنيين على تحدي الأتراك بموالاته للمصريين وفتيش جميع القوافل التجارية التركية التي تمرّ بأرضه قادمة من الحديد إلى صنعاء. وهذا ما أغضب كولونيل الحديد التركي.

كانت تركية حتى ذلك الوقت قد تجاهلت نوايا مصر التوسعية والحلف الذي أقامه معها السيد. وكسباً للوقت، بعثت بحملة عسكرية ضد هذا السلطان في حراز يقودها أحمد مختار باشا الشهير. قبض على السيد، وألقي في سجون القسطنطينية. أما أحمد مختار باشا فاستولى على حراز وأعلن مناخة مركزاً عاماً لحكمه.

ثم تبعها حملة أخرى على زبيد وتغز بقيادة موسى باشا، وثالثة على عسير بقيادة

(1) يقصد به السيد المكرمي، أحد حكام مناخة المكارمة الإسماعيلية.

أحمد أيوب باشا. وكانت النتائج باهرة. وهكذا خضع اليَمَن للحكومة التركية.
أما الصنعانيون، فبعد أن اتحد القبيلي مع الأتراك وتجنباً للخسارة الفادحة، ذلك
أنهم كانوا يفتقرون إلى القوة، أعلنوا خضوعهم لأحمد مختار باشا قبل أن يصل إليهم.
ذهب إلى مناخة ثمانية عشر من وجهاء صنعاء يسلمون الإمامة إلى القائد التركي
الشهير. وأحبّ أن أذكر هؤلاء السّفراء لأنني سأتكلم عنهم فيما بعد⁽¹⁾:

السّيد محمّد عيش.

السّيد زيد الكبسي.

السّيد حسين بن علي الكبسي.

السّيد أحمد بن محمّد الكبسي.

السّيد حسن الشامي.

السّيد علي الجديري.

السّيد محمّد المطاع.

القاضي حسين جفمان.

الفقيه أحمد الملصي.

الفقيه حامد ابن عبده.

الحاج علي الدّشيلة صاحب المحرّضة.

السّيد محمّد الحوثي.

الحاج إسماعيل الثّور.

الحاج سعيد اليازلي.

(1) ترد هذه الأسماء في ص 178 من الطبعة الإيطالية الأولى عام 1884.

السيد محمد بن يحيى حميد الدين.

السيد أحمد عبيد.

السيد علي عبيد.

الفقيه محمد زاهر.

توجه أحمد مختار باشا إلى صنعاء في بداية عام 1870، وخضع اليَمَن وعسير مرة أخرى للسيطرة التركية. وعُين أحمد مختار باشا من الباب العالي الوالي العام. دام حكمه سنتين ونصف تقريباً وكان يتصف بالإنسانية والحكمة؛ بنى المشفى العسكري في صنعاء وثكنات المشاة والمدركات في الأوردي، والحديدة وتَعَز وزَيْد ومناخة وإب ودَمار وأبها وكوكبان وصعدة. كما ربط صنعاء بخط برقي مع الحديدة. ومن الحديدة جنوباً إلى زَيْد وحيس، وإب وتَعَز، وشمالاً إلى أبها عاصمة عسير.

كما قسّم البلاد إلى أربع حكومات على رأس كل واحدة متصرف مسؤول عن إدارتها. ثم قسّم الحكومات إلى مقاطعات على رأس كل منها قائمقام، وكل مقاطعة إلى مديريات يترأسها مدير. والحكومات الأربع التي ما تزال قائمة هي⁽¹⁾:

صنعاء، عاصمة البلاد ويتبع لها: الروضة وقابل، وخولان وحاز ومتنة⁽²⁾. مع مقاطعات كوكبان ومركزها الطويلة، وضواحي همدان والعروس وشبام⁽³⁾.

جبل حرّاز وعاصمته مناخة، ويتبع لها: صعفان ومفحق وعز، والعرا، وسوق الخميس.

عمران ومركزها مدينة عمران، ويتبع لها بيت مقدم.

(1) ترد هذه التسميات في ص 179 من الطبعة الإيطالية الأولى عام 1884.

(2) متنة من قرى محافظة صنعاء، مديرية بني مطر، عزلة حزة سهمان.

(3) هناك شبام في محافظة صنعاء غير مدينة شبام المعروفة في حضرموت، وهي شبام الغراس الواقعة على بعد نحو 25 كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من مدينة صنعاء، وهي تتبع عزلة ذي مرمر في مديرية بني حشيش بمحافظة صنعاء.

بلاد عَنَس، ومركزها عَنَس⁽¹⁾ ويتبع لها: جهران وعتمة.

بلاد ضوران ومركزها مدينة ضوران، ويتبع لها: ضاف ووعلان وزراجة وسيان ومَعَبَر وجهران.

ذَمار، ومركزها ذَمار، ويتبع لها: المنشية والعروس ورداع.
يَريم ومركزها يَريم المدينة وضاحتها عمار.

* * *

الحُدَيْدة، مركز الحكومة والمقاطعة. ويتبع لها: عَبَس، ملحان، حفاش، برع، بيت
الفقيه وضواحي:

أبو عريش ومركزها مدينة أبو عريش، وضاحتها جازان.
زَبِيد، ويتبع لها: حيس ووصابين⁽²⁾.

اللُّحَيَّة ومركزها مدينة اللُّحَيَّة، وضاحتها زهرة.

الرَّيْدِيَّة ومركزها مدينة الرَّيْدِيَّة، وليس لها ضواحٍ.

جبل ريمة ومركزها مدينة الجبين، ويتبع لها: الجعفرية وكسمة والسلفية.

باجِل، ومركزها مدينة باجل، ويتبع لها: برع وملحان.

* * *

تَعَز، مركز الحكومة، ويتبع لها: ذي سفال والحجرية وماوية، وضواحي:

المُخَا، ومركزها مدينة المُخَا، وضاحتها خور الشَّيخ سعيد.

العُدين، مدينة العُدين ولا توجد ضواحٍ.

(1) عَنَس مخلاف واسع يقع في محافظة ذمار، وذمار هي اليوم المدينة الرَّئِسيَّة وتتبع لها جهران وعتمة.

(2) المقصود بهما وصاب العالي ووصاب السافل.

المدينتين، ومركزها مدينة إِبّ، وضاحتها المخادر.
قَعَطْبَة، ويتبع لها: عزاب ومُريس والعود والصَّوبَة.

* * *

بلاد عسير، وعاصمتها أبها، ومقاطعاتها هي:
مناظر وضواحيها: حلي وشهزان Sciahuzàn* ورفيدة اليَمَن.
صَيَا ويتبع لها: درب الشَّقِيق وأم الخشب.
بلاد رجال ألمع ومركزها البتيلة، ولا يوجد ضواحٍ.
القنفذة وضاحتها دوقَة.
بلاد بني شهر ومركزها مدينة تنومة وضاحتها بيشة.
بلاد غامد وزهران ومركزها رعدان، وليس لها ضواحٍ.

* * *

في نهاية 1872 عُيِّن خلفاً لأحمد مختار پاشا، أحمد أيوب پاشا، وهو رجل جيّد أكمل ما بدأه الأول. وبعد سنة، أي في عام 1873، استدعي إلى القسطنطينية وعُيِّن أحمد حسن پاشا الذي سار هو أيضاً على خطى من سبقه، إلا أنه دُعي عام 1875 إلى القسطنطينية وأرسل مكانه مصطفى عاصم پاشا الذي تعرّفُ إليه في صنعاء.

عرف مصطفى عاصم پاشا كيف يحظى بالاحترام العام في السّنوات الأولى لحكمه، وكان يتمتع بخصال ساعدته على ذلك. فلقد كان مظهره وشكله بلحيته الطّويلة يوحى بالهيبة والقوة، وسلوكه وحركاته تدل على أرسقراطيته. وبنفس الوقت كان لطيفاً أحبّه النَّاس. وللمظهر شأن عند العرب، يحكمون على الشّخص من خلاله. اتّسمت إدارته وسياسته بالفطنة والذكاء. لذلك، وفي مدّة لم تتجاوز السّنتين أعاد

* كذا في الأصل، ولعله أراد شهران. (المراجع)

الأمر إلى نصابها في اليمَن وعسير بحزم وعدل. وكان الحاكم الأول الذي عرف، ودون أن يعذب الناس، كيف يغني القسطنطينية مرسلًا المال عوضاً عن طلب الإعانات كما كان الحكام السابقون يفعلون. وفي عام 1877 حاز على ثقة القسطنطينية العمياء. إلا أنه وللأسف كان إلى جانب ذلك يملك شخصية ضعيفة وكبرياءً.

لقد كان محاطاً بأشخاص صادقين حتى منتصف عام 1878، مثل عزت باشا وإسماعيل حقي باشا وموسى باشا، وغيرهم من ذوي المناصب العليا في تصريف الشؤون الإدارية والقضائية والعسكرية، الذين ساعدوه حتى بات الشعب راضياً عنه. فلقد نصر المحقّ وعاقب المذنب، واختار المتصرفين والقائمقامية والمدراء بحسب جدارتهم وكفاءتهم.

لذلك، عندما تحرّك مصطفى عاصم باشا عام 1877 مع قواته لقمع سلطان بلاد شهمارة، الإمام محسن* الشهاري الذي كان يناوئ الهيمنة العثمانية على اليمَن ويريد أن يتولّى إمامة صنعاء، تحرّك معه عرب اليمَن وصنعاء الذين ذاقوا الأمرين من استبداد الأئمة السابقين وانضمّوا إلى الحاكم التركي.

قبل بضعة أيام من دخولي صنعاء، عاد مصطفى عاصم باشا من حملته التي باءت بالفشل. ذلك أنه إضافة إلى عدم تمكنه من التغلب على الإمام مُحسن، أخذ جيشه على حين غرة من قبائل الجوف وبني حكم وبني حسن وبلاد دغبان** Dagbàn وخولان ونهم، وبدو غفار، كلهم متحدون مع سلطان بلاد الشاعري المتأخم لهم، وكلهم وهابيون. ولقد وصل أولئك القبيلي حتى سور صنعاء وكانوا سيدخلون ظافرين لولا تدخّل إسماعيل حقي باشا الذي كان يترأس قوات الاحتياط في صنعاء وخرج ليلاً معتمداً على الحركة السريعة المفاجئة والتكتيك الماهر وألحق الهزيمة بالعدو وأرجع إلى صنعاء خمسة مدافع كان القبيلي قد استولوا عليها من جيوش مصطفى عاصم

* هو الإمام الزيدي المتوكل على الله المحسن بن أحمد الشهاري (1855-1878) (المراجع).

** كذا في الأصل، ولعل صوابه طبيان قبيلة مشهورة من قبائل خولان العالية. (المراجع).

باشا. وتقهقرت القبائل على إثر ذلك غير قادرة على معاودة الهجوم.

وكان السبب الآخر الذي تسبّب في فشل حملة مصطفى عاصم باشا هو ديدان المدينة التي تفشّت بين الجنود وتسبّبت في موت العديد منهم وإصابتهم بالشلل. أما عاصم باشا، ففوجئ بتلك الهزيمة التي لم يكن ينتظرها، وأثر هذا في كبريائه. وبالمقابل، فقد برز اسم إسماعيل حقي باشا بين العرب والأتراك حتى بدأ عاصم باشا يشعر بالضغينة والغيرة، وكبح غضبه حتى الأشهر الأولى من عام 1878، فلقد كان يدين بحياته لإسماعيل حقي باشا وكذلك حياة الجيش التركي. لقد كان لإسماعيل باشا الفضل في عدم تلطيخ العلم التركي بالوحل وفقدان اليَمَن. كل ذلك منع مصطفى عاصم باشا من مهاجمته علناً، بل على العكس فلقد شهدَتْ احتفالاً شاركت فيه بإنارة منزله الجميل. كما وضعت علم إيطاليا على نافذتي مع علم تركية الذي صنّعه بنفسه من القماش الأحمر ووضعت هلالاً أبيض ونجوماً بنفس اللون.



وسأتكلم لاحقاً عن أحداث صنعاء واليَمَن التي أُقيل من جزائها مصطفى عاصم باشا، الذي لم يستمع إلى نصائح المخلصين من الرجال.

ولن أتكلّم الآن عن إسماعيل حقي باشا، فهو من أصدقائي المقربين، وسأتكلّم عنه في سياق الأحداث. وكذلك موسى باشا الذي عرفته في صنعاء ثم التقيتُ به في تعز وكان متصرفها (يونيو 1878). لكنني سأتحدث عن القاضي التركي الكبير رضا بك، قاضي اليَمَن.

ففي إحدى الولائم التي كانت تقام في صنعاء ويدعوني إليها مصطفى عاصم باشا، شاهدتُ رضا بك يشرب زجاجتي جعة Pale Ale وزجاجتين من البيرة الألمانية، وعدداً من كؤوس الخمر ثم الكونياك وأخيراً الشّمْپانيا. وكانت الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر (أو التاسعة والنصف على الطّريقة التّركية)، فذهب يتوضّأ ليصلي بالباشا

والحفل الكريم (نماز⁽¹⁾ العصر) بصوت عالٍ وكأن شيئاً لم يكن. وفي الوقت نفسه كنا أنا والدكتور العسكري البلغاري، لأننا مسيحيين، ننتظر في الصّالة الأخرى المجاورة لغرفة الطّعام ندخّن ونقرأ صحيفة «الاستقلال البلجيكي» التي كان إسماعيل حقي باشا مشتركاً بها.

بعد الصّلاة، ذهبنا إلى السّلامك، أو صالة الاستقبال التي يسمونها أيضاً المفرج. وهي صالة ذات بركة ماء ونافورة. قال لي القاضي رضا بك، الذي كان إلى جانبي، بالعريّة ألا أفاجأ إن رأيته يشرب. قال بأنه قبل ستين سنة لم يكن لأحد أن يتجرأ على مخالفة القرآن. وفي ذلك الوقت قام قاضي القسطنطينية بصناعة التّبذ من عنب حقله وشربه، فبلغ الأمر السّultan الذي نادى القاضي المذنب ووبّخه بشدّة. «أفنديمز»⁽²⁾ Effendimiss أجابه، «لقد أخذتُ العنب وعصرته واستخرجت ماءه الذي قطّرتَه وتركتَه يروق. طعمه حلو وسائغ. أمّا إذا قام الله بتحويله إلى نبيذ، فالعلم عنده. أنا أعرف فقط أنني أشرب عصير العنب». قال لي القاضي: «منذ ذلك الوقت بدأ النّاس في تركية يشربون عصير العنب». «والماء الآخر؟» قلتُ له ضاحكاً، إشارة إلى الكحول. «وتلك أيضاً، إلا أنها مركّزة أكثر».

وعلى ذكر الكحول، في صنعاء موظف في الإدارة المدنية يطلقون عليه لقب (أبو أحمر)، بسبب أفه الكبير الأحمر الذي يبرهن على حبه الكبيز للتّبذ والكحول.



(1) العبارة بالتركية namaz وتعني: الصّلاة.

(2) العبارة تركية Efendimiz وتعني: سيّدنا، مولانا. وهكذا كان يُخاطب السّultan، أو بعبارة: سُلطانِيز Sultanimiz أو: پادشاهِيز Pâdişahımız.

الفصل الثالث عشر

الفصل الثالث عشر

الأثراك والعرب - العربي - القاضي، الفقيه، الإمام - الناظر - المؤذن - الملاك - أصحاب المحلات والتجار - الحرفيون - المزارعون - المحكمة - القضاة والكتاب والشهود - الشريعة الإسلامية: الأغلبية، حقوق الأب، الوصي، حكم الإفلاس - الدين وشروط الرهن والحجز - الهبات - أعراف عربية وأزياء - العائلة - العبودية - الرجال - العرب - روح الفكاهة عندهم - النظافة - الترفيه عن النفس - المهن - النوم وطريقته - علامات تعجب - الخدم - النساء - زيهن - مكان الحريم - الحياة في مكان الحريم - الزيارات - عمل النساء - قصاصهن - الزواج والطلاق.

مع أن مؤسس الإسلام لم يفرق بين طبقات المسلمين الاجتماعية، ومع أنه لا يوجد في الإمبراطورية العثمانية ملل مفضلة، يوجد في اليمَن طبقتان لم تختلطاً ببعضهما على الإطلاق، وهما ما زالتا قائمتين حتى اليوم.

الأولى هي التي تملك القوة، وهي التركية.

والثانية هي التي قُدر لها أن تكون تابعة وتخضع للإهانة وتبعاتها وثقلها، وهي العربية.

لنترك التركية وندرس العربية.

بإمكاننا تقسيم الملة العربية إلى طبقات متعددة. الأولى هي طبقة القضاة والفقهاء⁽¹⁾

(1) كتب المؤلف: القاضي وجمعه قضاة، ويعني عند العرب من يحتكم الناس إليه فيقضي بينهم في الأمور الدينية والمدنية. وهناك قاضي القضاة وقاضي العسكر. و«أدب القاضي» (قواعد ينبغي للقاضي أن يعتمد عليها في سلوكه وحكمه) هو عنوان لكتابين ألفا حول هذا الموضوع

أو رجال العدل في الدين. إنَّ أهميّة دورهم ونُبله، بالإضافة إلى درجة التّعليم التي حصلوا عليها تخوّلهم احترام الجميع لهم.

ومع أنه من المفترض أن يكون كل مسلم قادراً على الانتماء إلى تلك الطّبعة، فإنَّ الأمر توارثي. ولذلك فهي تعتبر طبقة متميّزة وأرستقراطية.

يتّأس كل مسجد فقيه، ويديره قاضٍ يسمى النّاظر (المراقب) الذي يدير الأموال ويسمّي المدراء والخدم الأقل رتبة.

وبشكل عام، يقوم إمامان (انظر إلى الحاشية 3 من الفصل الثاني عشر) على خدمة المسجد، ويتناوب الاثنان للوعظ وإقامة الصّلاة بصوت عالٍ في ساعات محدّدة خمس مرات.

وبعد الأئمة يأتي المؤذن الذي يقوم بالتّداء من أعلى (المثدنة) في ساعات الصّلاة. ويسمّي خادماً المسجد من يقوم بالخدمة.

والمركز الذي يأخذه وزراء الدين الإسلامي لا يبقى كما هو، كما في الدين الكاثوليكي. إذ يكفي أن يُسرّحوا من قبل الفقيه أو النّاظر ليفقدوا مركزهم ولقب الإمامة الذي حصلوا عليه، ويصبحوا كسائر المسلمين دون أي تمييز. وبما أن مرتّبهم (أربعين إلى خمسين ستيماً في اليوم) بسيط، ينصرفون إلى أعمال أخرى من أجل إعالة أسرهم وامتهان حرفة أخرى. فمنهم من يصبح معلماً في مدرسة ومنهم من يذهب إلى البيوت لقراءة القرآن لقاء مبلغ معيّن من المال. ومنهم من يعمل عطّاراً أو بائع توابل.



الطبقة الثانية هي طبقة المُلّاك وأصحاب الدّكاكين والتّجار. وهي طبقة كبيرة في

وهما قيّمان: الأول كتبه رؤساء الحنيفة (الأثراك) للإمام أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الذي توفي عام 182 للهجرة (798 بعد الميلاد). والثاني كتبه الإمام أبو بكر محمّد بن علي الذي توفي عام 365 للهجرة (975 للميلاد). ووضع تحت تصرف المسلمين جميعاً. والفقيه هو المرجع الديني.

المدينة وتخلو منها القرى.

الطبقة الثالثة هي طبقة الحرفيين. وهم يتمتعون بكل مواصفات الطبقة ومظاهرها. وكما أشرت في السابق، فكل حرفة تنقسم إلى فرق لها أماكنها الخاصة وأزيائها الخاصة ورؤساؤها الذين يتبعون رئيساً واحداً هو شيخ السوق. وينتمي إلى طبقتهم أيضاً الخدم والصّناع.

الطبقة الرابعة تتألف من الفلاحين المزارعين (القبيلي والبدو) وهي الأكثر عدداً وتؤلف طبقة الشعب الكبرى.



ورئيس الدولة هو المسؤول عن العدل. وبما أن رئيس اليمَن الحالي هو سلطان القسطنطينية، فالعدل يقام باسمه ويقوم كل سنتين بإرسال قاض كبير إلى اليمَن يقوم بالتشريع وسنّ القوانين في اليمَن وعسير. ويقوم القاضي بتسمية المفتي والنائب العام. ومن يأخذ لقب القاضي لا يمكنه أن يرفضه. أما المحكمة فتسمي المجلس القضائي وفيه كتاب يقومون بكتابة وتسجيل الدعاوى.

ولا يوجد محامون ذوو شهادة. فكل شخص يدافع عن قضيته أو يطلب من يدافع عنه لكونه أكثر تمرساً ومعرفة بالقانون.

وفي كل مسألة يؤتى بشاهدين لإقامة الحكم. والزنا وحده بحاجة إلى أربعة تتفق آراؤهم. ولا تؤخذ شهادة رجل واحد فقط. ولا تشهد النساء إلا في القضايا المدنية.

والحكم الصادر عن القاضي لا يمكن تعديله، لذلك لا يوجد استئناف. وأما المحكمة التنفيذية فتعلق الحكم وتغير مفعوله بدلاً من أن تنفذه فوراً.

ويقرّر العدل أو الشريعة الإسلامية سن الرشد عند الرجل باثنتي عشرة سنة، وعند المرأة تسع سنوات إذا قام أولئك بالقسم بأنهم بلغوا. وإذا لم يكن بالإمكان اللجوء إلى تلك الشكليات، تُعلن سن الخامسة عشرة سناً للبلوغ.

وللأب حق تزويج أولاده الذين لم يبلغوا سن الرشد بمزاجه دون أن يعترضه أحد. أما الأولاد البالغون فلا يمكن تزويجهم دون موافقتهم الشخصية. ويدير الأب أملاك أولاده القاصرين (الذين لم يبلغوا سن الرشد) دون أن يكون مسؤولاً عن أية حادثة، ويمكنه الزهن في حالة وجود دين أو أي شيء آخر.

وللوصي حقوق الأب تماماً باستثناء حقوقه على أملاك القاصرين منهم. ويقوم بالوصاية على اليتيم من يأتي مباشرة بعد الأب من الأقرباء. وإذا لم يكن لليتيم أهل، تقوم المحكمة بالوصاية.

تقوم العدالة بسجن صاحب الدين حتى يُستوفى الدين منه.

ومن تعرّض للإفلاس يُقام عليه الحجز. وهو بحاجة إلى قرار من المحكمة من أجل حصوله على أية شهادة رسمية مدنية أو تتعلق بأملاكه.

يُرفع الحظر عن القاصر في السنّ والمسنّين والمجانين والعبيد.

ومن يتكفل بحفظ الأشياء المرهونة له حق صيانتها وحفظها لقاء مبلغ من المال. وفي حال إفلاس المستدين أو موته يباح له التصرف به.

وحق الملكية يخوّل صاحبها استرجاع كل ما أعطاه أو جزء منه.

لم تتغير أعراف الشرقيين وخاصة العرب على الإطلاق، فهم يحترمون تقاليدهم ولا يغيرون أفكارهم وتعاليمهم مهما حصل. أما أعرافنا فهي أكثر مرونة وحيوية وتغيراً تخلت عن الاستبداد القديم للأحكام والأعراف وتبعت مدارس التّقدّم العصري ولا تهتم إلا بالحاضر والمستقبل.



والمؤسسة الأساسية في اليمن هي العائلة. والأب هو الرئيس الذي يتمتع بالسلطة الكاملة على الزّوجة (زوجاته) وأولاده الذين ينفذون أوامره ويحترمونها. وهذا ينطبق على العائلات الغنية والفقيرة على السّواء.

ومعاملة المرأة لزوجها هي الاحترام. ولا توجد المؤانسة والانسجام التي تتمتع بها روح المساواة بين الزوجين عندنا. فالمرأة العربية تقف أمام زوجها عندما يكون جالساً وتناديه: سيدي. وتصرفاتها كتصرف الخدم في أوروبا. ولا تفكر إلا بإرضائه.

ويتلقى رئيس العائلة من أولاده الاحترام نفسه، فيقبلون يده ولا يجلسون أمامه إلا إذا سمح لهم بذلك. ولا يتكلمون إلا إذا سألهم، ولا يدخنون ولا يشربون القهوة أمامه.

رأينا كيف أن القبلي والبدو يتزوجون من امرأة واحدة. وهذا ما يحصل في الطبقات الشعبية وأصحاب المحلات في صنعاء. أما في الطبقات العليا وعند الأثرياء، فالرجل يتزوج من أربعة وعنده الكثير من الجواري.

والأمهات أيضاً يحظين باحترام الكبير من الأولاد، خاصة في المنازل التي لا يوجد فيها إلا زوجة واحدة هي أم الأولاد جميعاً.

وبين الأخوة، يكن الصغار احتراماً للكبير سناً. ويحتل الولد الأكبر المركز الثاني في العائلة ويصبح المسؤول بعد موت أبيه.

وروابط العائلة متينة إلى درجة اعتبار القسّم الأكثر تقدساً هو القسّم باسم أحد الأفراد الأموات أو الأحياء.

وفي بلد تحترم فيه العائلة، من الطبيعي أن تجد الاحترام للمسّن ولمن يتمتع بمركز هام، وكذلك للطبقات العليا. فإذا مرّ رجل مهم، يتوقف الرجال عن التدخين والعمل ويقفون احتراماً.

لا يتسم هذا الخضوع بالخنوع الموجود في بلادنا التي تعتبر متحضرة وحرّة! فنحن نكتب في رسائلنا أو نصرّح بصوتنا عبارة «خادمكم المتواضع». أما عند العرب فالاحترام هو كناية عن المحبة، فمجتمعهم يجعل منهم أسرة واحدة توحدّها القرابة⁽¹⁾.

(1) كتب المؤلف: يقول الأمير كارلو دي لينيه Carlo De Ligne في هذا السياق: كم هو الفرق شاسع بين تحية الشرقيين والغربيين. إن طريقة انحناء الغربيين غير جميلة. وبينما يكفي الشرقيون بنظرة احترام وتقدير وتكتفي نساؤهم بتحية الرأس، نستخدم في الغرب الأقدام

في الطبقات العليا لا يأكل الرجل مع نسائه وأولاده. أما في الطبقات الأخرى، فيأكل الجميع معاً. ولا توجد العبودية عند عرب اليمَن، وإن وجدت عبيداً في مدينة صنعاء أو مدن يمنية أخرى فهم مُلك للأتراك.

عند بعض قبائل العرب الساحلية وقرب عَدَن يوجد عبيد، ولكنهم يتمتعون بمعاملة حسنة من السلاطين وبإمكانهم امتلاك بيوت وأراضٍ. ويطلق عليهم سكان المدن اسم العرب لتمييزهم عن القبيلي والبدو الذين يُطلق عليهم اسم عرب الرِّيف أو سكان البادية.

وبما أن أسباب الرّاحة والرّفاهية والمدارس التي يذهب إليها الأولاد موجودة في المدينة، فالعرب الذين يشبهون القبيلي في أخلاقهم الروحية والدينية هم أكثر ثقافةً وذكاءً منهم. أقلّ بساطةً ولكن أكثر كرمًا. إن درجة التّنعم وعدم تعرض سكان الحضر الدائم للشمس أو تقلبات الحرارة قد جعل العربي ذا بشرة فاتحة وأكثر بدانةً من القبيلي.

يظهر العربي والقبيلي الخجل بشكل عام ولكن أمام الصّعاب يتحوّل الخوف إلى جرأة وتستيقظ فيهم الشّهامة والحيوية. أما الأحزان والمتاعب، فاستسلامهم لها قوي، ويخضعون بالكامل أمام أي حدث ويعتبرونه قدراً إلهياً ألحقه الله بهم ليمتحنهم ويقولون معزّين أنفسهم: «الله داري، الله العالم، يا لطيف».

وعند العرب حبّ الفكاهة، وفي لغتهم معانٍ مزدوجة يستخدمها الكثير منهم. حتى أنهم في بعض الأحيان يعبّرون بكلمات واضحة عن أفكار جريئة. وحتى النساء الفاضلات لا يتوانين عن النطق بعبارات مكشوفة في أحاديثهن.

ومع أن العرب لا يجذّفون، وخاصة فيما يمسّ الدِّين⁽¹⁾ والتّبي، فإن عندهم بمعزل عن ذلك قاموساً غنياً من الشّتائم.

ونحنى بما لا يتلاءم مع قامتنا ونخفض ركبنا وكأنا أطفال. وحتى في سن الثلاثين من غير اللائق أن نقوم به.

(1) التجديف هو كلام الكفر والشتم الخارج عن نطاق الإيمان، وما يذكره مانزوني هنا له داع، إذ في الثقافة الشعبية الإيطالية تصدر عن الإنسان في فورة غضبه ألفاظ بشعة في حق الدِّين. وهذا ممّا يستفح لدى الطليان بوجه الخصوص، وليس في مقدوري هنا الإتيان بأمثلة.

وإذا تعلّم أهل صنعاء بعض الرذائل أو الفساد، فذلك يعود إلى الحكم التركي لليمن. فمن يعرف التركي يمكنه أن يتخيّل ما يمكن أن يفعله في البلاد التي تقع تحت سيطرته. لذلك سأمسك عن الكلام احتراماً ليس فقط للقارئ وإنما للقسم الأعظم من أهل صنعاء أيضاً.

وحيث لا يوجد الأتراك، يتحلّى العرب والقبيلي البدو بالفضائل.

* * *

أما زيّ العربي في المدينة، فهو عبارة عن قميص (es-sensieh) طويل حتى الركبة وعريض. وأكمامه واسعة. والطبقة السفلى من الشعب تلبسه من القطن الأزرق الداكن. أما الأغنياء فيلبسونه من القماش الأبيض. وفوق القميص وحول الخصر يضعون الفوطة كما عند البدو والقبيلي وعامة الشعب. أما فوطة الأغنياء فهي من الحرير وألوانها زاهية. تُعقد الفوطة حول الخصر بحزام عريض طوله خمسة إلى ستة أمتار يُربط على الورك. وحزام الأغنياء من الصّوف أو الحرير وألوانه متعددة. أما حزام الفقراء فهو من القماش القطني.

وفوق الحزام يوجد حزام الجلد لوضع الجنيّة أو الخنجر.

ويلبس الأغنياء الصدرية أيضاً، وهي من الحرير المتعدد الألوان. وفوقها يلبسون القفطان، وهو رداء عريض وأكمامه واسعة.

ويُغطون رؤوسهم بالطربوش أو «الطاقية» وهي عبارة عن قماش قطني يُلف ثماني مرات تقريباً ويوضع فوقه حزام طويل جداً يربط بشكل متصالب من الأمام أو بشكل حلزوني. يشكل كل ذلك العمامة. والقضاة فقط والأئمة والأشراف يضعونه من الموسلين الأبيض. وأما التّجار الأغنياء فيضعون الحزام الحريري الملون. والفقراء يستعملون القماش القطني. ويمكن رفع العمامة عن الرّأس ووضعها دون أن يتغير شكلها أو يُفك رباطها.

ويحلق العرب جميعاً رؤوسهم. ولا يلبسون السّروال. وبعضهم يلبس الملابس

الدّاخلية (اللباس) البيضاء في الشّتاء فقط. ولا يلبسون الجراب وإنما الصّندل غالي الثّمن أو البخس، حسب الطّبقّة الاجتماعيّة. ولكن شكله موحد وهو نفسه عند القبليّ والبدو.

بعض العرب الذين يعملون في خدمة الأتراك يلبسون الجراب والجزّة. وبالرّغم من أن البعض منهم يلبسونها، فلم تؤثر على زي عامّة الشّعب. حتّى أن خادمي حسن كان يلبس على الطّريقة الأوروبيّة، وهذا لا يعني أن أغلب شعب صنعاء يريدون تقليد الطّراز الأوروبيّ.

ولقد أخذ النّبي بعين الاعتبار طقس تلك البلاد، فأمرهم بالاستحمام والطّهارة، حتّى أنّه واجب ديني. لذلك فالعرب شديدو النّظافة، وبالإضافة إلى التّطهر خمس مرات من أجل إقامة الصّلوات، يذهبون تكراراً إلى الحّمّام.

وهم يحلقون طرف اللحية تحت الذّقن والرّقبة ويتركون الشّعر المبعثر على الخد. ولا تطول لحيتهم عن الأربعة أصابع. ويحلقون شعر الشّارب فوق الشّفة العليا. ويحلق كل ما غطى الجسم من شعر عند النّساء والرّجال، عدا الرّموش والحواجب. أو يُحك الشّعر بمسحوق مكوّن من الكلس الحار المبلل مع مسحوق الثّورة (كبريتيد الزّرنينخ) orpimento.

ولا يبصق العرب في المسجد أو في الشّقق أبداً أو في حضرة الأشخاص. ولكي يفعلوا ذلك، يديرون رؤوسهم إلى الحائط.

إلا أنّهم عندما يأكلون يخرجون الهواء من معدّاتهم ويسرّون بفعله دون تحفّظ لأنّهم يطلقون تهليلات الله - الله، شاكرين الله لأنّه رفع عنهم الثّقل في معدّتهم.

وهم ينظفون أسنانهم مرّات عديدة في النّهار، لذلك فأسنانهم شديدة البياض ومنظّمة، ويستخدمون لذلك المسواك. فبعد نزع قشرة أعلى المسواك بطرقها بحجر، يحولونه إلى فرشاة قاسية بسبب طبيعته اللّيفيّة. وبها يدلّكون أسنانهم.

وعندما يترّبعون في جلوسهم يبدؤون بتمسيد راحة قدمهم ويستمتعون بذلك.



ويستيقظ العرب المسلمون جميعاً عند الفجر للصلاة.

وبعد الصلاة، يتناولون طعام الإفطار في منازلهم. ويتألف من الخبز والزبد والقهوة. ثم يذهب كل شخص إلى عمله.

يذهب الجميع في وقت الظهيرة إلى المسجد للصلاة، ثم يعود كل واحد إلى منزله للراحة بعد الغذاء ويبدأ الكيف. فيتوسّدون الأرائك المريحة في حالة من الاسترخاء الجسدي والفكري، وهذا هو الكيف.

يستغرق الكيف ساعتين تقريباً. وبعده يأتي وقت المداعة فيدخّنونها ويشربون القهوة حتى صلاة العصر (الساعة الثالثة والتّصف) وقيمونها في المسجد بشكل عام. ثم يعود كل واحد إلى أشغاله.

من الواجب إقامة الصلاة في المسجد، وبعدها يذهب الجميع إلى منازلهم لتناول وجبة العشاء.

لا يخرجون عادةً من منازلهم بعد العشاء. فقط أصحاب الدّكاكين يذهبون إلى السّوق. وبشكل عام ينام الجميع الساعة الثامنة أو التاسعة.

ولا يستخدم العرب الأسرة، بل يضعون فوق السّجاد والحصر فراشاً أو أكثر. وينام العامة بملابسهم. أما الأغنياء، فيخلعون القفطان.

يقولون بأن تلك الأسرة التي يغيرونها كل مساء هي أكثر راحة لأنها تحافظ على شكلها مستوياً من كل جهة. وزيادة على ذلك لا يضطرون إلى تخصيص غرف نوم، بل يختارون أفضل مكان من المنزل يضعون فيه الفراش ويزيلونه في اليوم التالي، ويستخدمون الغرفة التي ناموا فيها لاستعمالاتٍ أخرى.

وما إن يضطجع العرب على جنوبهم متكئين على الوسائد حتى يدخلوا في نوم عميق.

* * *

يتشرب العرب، كجميع المسلمين، تعاليم دينهم بشكل كبير وفي أحاديثهم يستشهدون بعبارات من القرآن وأقوال الرسول ويذكرون الله كثيراً.

وعندما يبدؤون بفعل أي شيء يقولون: «بسم الله الرحمن الرحيم» وعندما ينتهون يقولون: «الحمد لله».

وعند التشديد على كلامهم يستخدمون عبارات والله، ودين الله. أو ودين الله ورأس النبي ووالله، بالله، تالله، وورب البيت أو ورب الكعبة.

أولم ينهى القرآن عن القسم دون سبب!

ويؤمن العرب بالقضاء والقدر. وكل ما يحصل هو بمشيئة الله، لذلك فإن عبارات: «إن شاء الله» و«ما شاء الله» تكرر عندهم.

ولا يقول العربي: أكلت كثيراً، بل الله أراد لي ذلك. ولا يقول عطشت أو أصبحت ثرياً أو نعست، بل الله أراد لي أن أعطش وأحصل على المال وأن أنام طويلاً. وكلمة «أنا مسكين» هي الكلمة الوحيدة التي لا يقول فيها العربي إن شاء الله.

وقاموس اللغات والشتائم طويل عندهم سأذكر البعض وأترك البعض لبداءته: (يا خنزير - يا كلب - يا يهودي - يا ثور - يا حمار - يا ملعون) تلك هي البسيطة. وهناك يا خنزير ابن خنزير، يا كلب ابن كلب وهي مركبة. وهذا لا يمنع الأب من نعت ابنه بها أو ابنته وزوجته.

وهناك شتائم أخرى ونعوت لا أريد أن أذكرها، ولكن يجب على المسافر أن يعرفها لأنه يكفي لفظها حتى يظن ابن البلاد أن المسافر يعرف اللغة فيمتنع عن الإيقاع به.

يملك الأغنياء عدداً كبيراً من الخدم الذين يعاملون معاملته حسنة وليس لديهم الكثير من العمل. وما يفعله أربعة أو خمسة منهم يكفي لخدم واحد عندنا أن ينجزه.

ولا يمكن أن يخدم رجل امرأة أو أن تخدم امرأة رجلاً. ولا يوجد الخصيان في اليَمَن. ولا يمكن لليهود أن يقتنوا خدماً من المسلمين. أما المسيحيون فيمكنهم ذلك. ولولاهم لما استطعتُ إنجاز أي شيء.

والنساء العربيات في المدن جميلات. بشرتهن أفتح من بشرة القبيلي والبدويات. وهنّ أكثر طاعة. وتُعرف زوجات الأغنياء من منازلهن ومكان الحريم فيها، وتبدو مظاهر الثراء من ملابس قميصهن الحريري الناعم الملون بالأبيض أو الزهر أو الأزرق أو الأصفر والمطرّز من الأمام والموشّى بخيوط الذهب والأحجار البرّاقة.

يغطي القميص الواسع ذو الأكمام العريضة الجسم من الأعلى وحتى الركبة. وتحتة سروال ضيق عند الخصر وينزل حتى القدمين حيث يُقفل بأزرار. وأطرافه مطرّزة. وفوقه ثوب يُحزم على الورك وينزل حتى الأرض. وأما طريقة لبسه فيوضع على الكتف، وبما أنه مفتوح من الأمام يُترك القميص المطرّز على مرأى النظر. وأما الأكمام فهي ضيقة من الأعلى ولكنها تصبح عريضة نحو اليدين وأطرافها المقلوبة تصل إلى الأقدام. ويُصنع الثوب من الكشمير أو من الحريري زاهي الألوان.

أما حاقّة الثوب فيزينها شريطٌ ذهبي وفضيّ على شكل زخارف الأرابيسك. والحزام عريض وطوله من خمسة إلى ستة أمتار ويُصنع من الصّوف أو الحريري الملون. ويحيط بالثوب من جهة الورك دون أن يشدّ الجسم.

وشعر النساء طويل جداً وأسود (شاهدتُ في بعض الأحيان لوناً كستنائياً وأشقر). ويُعقد إلى الخلف. وتُترك بعض الذّوابات التي تزيّن الوجه متدلّية إلى الأمام. وينسدل الشعر على الأكتاف أو الظهر، أو يُصفر بصفيرتين طويلتين تتكوّن كل واحدة منها من صفائر أصغر دقيقة. ويجب أن يكون عددها مفرداً. وللرقم المفرد عند العرب أهمية كبرى، فهو يجلب الحظ كالحرز. وتتخلل الصفائر شرائط حريرية. وتُحزم الصفيرة من طرفها الأعلى بشريط معدني تتدلى منه تزيينات مختلفة. أما الرّأس فيُغطّى بمنديل حريري متعدد الألوان لا يوضع على شكل عمامة وإنما كما تضعه الإسبانيّات. وفي الأذن عدد من الثّقوب فيها الخواتم والأقراط الفضيّة. وتزيّن العنق الحليّ الفضيّة أيضاً

المطعممة بالأحجار الثمينة والعقيق والمرجان. ويحيط بالعقود نقود. وتزين الخواتم الفضية أصابع اليد والقدم ويوضع السوار حول معصم اليد والقدم أيضاً. ولا يُستعمل الذهب في الزينة وإنما الفضة.

ولا تلبس العربيات الجراب. وتغسل أقدامهن بماء الورد، لذلك فلملمسها ناعم كاليد تماماً. وتُقلم الأظافر وتصبغها بالحناء. وتتعل خفّاً أحمر اللون نهايته مدببة ومعقوفة إلى الأعلى، هذا عندما تخرج من البيت. أما في البيت فتبقى حافية القدمين. وفي الطريق تلبس النساء جميعاً ومن مختلف الطبقات فوق ملابسهن غطاءً كبيراً من القطن الشائع، لونه داكن ويغطيهم من الأعلى إلى الأسفل. ويُغطى الوجه بنسيج شفاف لا ثقب فيه، لا للأعين ولا للأنف.

هذا الغطاء الذي يسمى الحَبَّارَة el-habbaràh يغطي ملابس نساء الطبقات العليا المزركشة وكذلك ملابس النساء من الطبقات المتواضعة. لذلك فمن الصعب التفريق بينهن في الطريق. كما أنه من الصعب التعرف عليهن: جميلات أو دميمات، ثريات أو فقيرات.

وبعد الاعتياد على البلد، بدأت أنتبه إلى أن أقدام النساء تشير إلى وضعهن وحالتهن. فالجلد الذي يظهر، إن كان فاتح اللون، نظيفاً وناعماً يدل على ثراء صاحبه. وحركتها الرشيقة تدلّ على صغر سنّها. أما إذا كانت جميلة، فمن الصعب أن تراها حتى في منعطفات الشوارع أو في الأحياء الخالية. فلا تكاد ترفع الغطاء إلا لتنظر شزراً بعينيها الواسعتين. والنساء من الطبقة الوسطى، إن لم يلبسن ملابس فاخرة، لا يستغنين عن الحرير والأقمشة الناعمة.

والنساء الشيعيات يلبسن لباساً بسيطاً: بنطالاً من القطن الأزرق وقميصاً من القطن الأبيض وفوقه رداء أزرق يشبه لباس البدويات أو نساء القبلي.

في كل منزل مكان مخصص للحریم منفصل عن مكان الرجال وغرفة استقبالهم. وكلمة حریم تأتي من الحرام والمحرم، أي المكان المقدس. والمرأة أيضاً تسمى الحرمة.

أما في أوروبا، فيُعتَقَد خطأً بأن الحريم هو مكان المتعة أو العواطف المستباحة. يعمّ مكان الحريم نظام صارم واحترام. فهو المكان الذي يضمّ والدّة وزوجات وبنات وأخوات رجل البيت. وأؤكد للقارئ بأن هذا المكان يشبه دير الرّاهبات وليس داراً للمتعة.

في هذا المكان يتعلّم الأولاد احترام الله والنّاس، والبنات كيف يحافظن على شرفهنّ. ويتعلمون احترام الأم والزّوجة والأخت. ولا تُتَّبَع طريقة معيّنة لتقسيم مكان الحريم الدّاخلي. فكما في شقّة الرّجل، هناك الدّيوان والسّلامك وصالة اجتماع النّساء حيث تلتقي بصديقاتها.

ونوافذ مكان الحريم مغطاة من الخارج بألواح من الخشب المثقوب على أشكال مختلفة ومهمتها منع نظرات المارّة الفضولية أو الجريئة.

وبالإضافة إلى الزّوجات والأم والبنات والأخوات، هناك الكثير من الخادّات اللاتي لا يمكن لصاحب البيت رؤيتهن إذا لم يكن يمتلكهن. فالخادّات إذن لسن هناك لإشباع رغبة الرّجل وإنما لمساعدة زوجاته. فتهتم الخادّمة باللباس، وأخرى بتهيئة السّفرة أي الطّاوله وتحضير القهوة، وأخرى بتحضير المداعة وأخريات للمطبخ، وأخرى أيضاً للغسيل والحيّاة. ومن دواعي الشّرف أن يكون للغنيّة خادّات. وإذا امتلك صاحب البيت زوجات عدّة، تعيش كل واحدة في مكان مع خادّاتها.

يعامل العربي زوجته أو زوجاته برعاية كبيرة. وكل ما هو جميل ونفيس يُخصّص للحريم. فهو يريد لأُم أولاده أن تعيش براحة، بينما يكتفي هو بالشّقة المتواضعة ويترك لنفسه السّلاح فقط والخيول والنّرجيلة.

ولا تعتبر نساء المدينة مكان إقامتهن وحياتهنّ تعاسةً وبؤساً، إذ ينشأن في مكان الحريم ويصبحن شابات. وعند زواجهن، يدخلن مكان حريم آخر. والأمر اعتيادي، ولا تستطيع أن تتخيل ما يمكن أن تكون الحياة في مكان آخر. وليس لديهن أدنى فكرة عن طريقة عيش الأوروبيات.

والعادات واحدة، فحياة الحريم هي حياة المسلمات التركيات والمصريّات والمغربيّات والعجميّات وعرب المدينة.

والنساء المسلمات يشاهدن بعضهن دون حرج أو حجاب. وزيارتهن ممكن أن تدوم أياماً في بعض الأحيان. وطالما أن هناك امرأة تزور مكان الحريم، لا يضع الرجل قدمه مهما كانت مدة إقامة تلك المرأة عند نسائه.

من المؤكد أن تلك الطريقة في عزل النساء وتغطية أجسامهن في الخارج تثير احترام الرجل. ولهن كامل الحرية داخل البيت في فعل ما شئن. بينما حرية نساتنا في الخارج تسبب لهن الكثير من المتاعب والمواقف البشعة وتجعلهن ضحايا لتصرفات لا تليق بالآداب. وبنفس الوقت لا يستطعن فعل ما يردن.

أمّا في البلاد الإسلامية فلا يمكن لمس نساء الآخرين، لأنه لا يمكن التعرف إليهن أو التّكلم معهن.

وعندما تخرج نساء المسلمين محجّبات بتلك الطريقة، فهن يتوارين عن أعين الجميع، حتى أزواجهن وأهلهن المقربين.

بتلك الطريقة تخرج النساء وتدخل متى شئن وفي أية ساعة من النهار أو الليل دون أن يعرف أحد من تكون الواحدة منهن. والرجل، حتى لو كان يعتريه الشك ويعرف أن تلك المرأة زوجته، لا يستطيع أن يخلع عنها حجابها. إذ يكفي أن تُظهر المرأة وجهها علناً حتى يكون ذلك سبباً في طلاقها.

وبين النساء المخلصات لأزواجهن، قد يكون هناك تفاوت أيضاً. والخمار يضمن لهن التّستر.

ولا يتجرأ أيّ رجل على المغامرة في الدّخول إلى حرم أو مكان حريم رجل آخر، اللّهم إلا إذا كان طبيباً أو في حالة حرب. والنساء هنّ من يذهبن لزيارة الرجال ويمضين أياماً عدة.

كانت هناك امرأة شابة تدعى بدوة أحبّت رجلاً أعزب لم يكن عربياً ولا تركياً ولا

والنساء يتعاطفن مع بعضهن ولا تخون الواحدة الأخرى. لقد قلت بأن نساء صنعاء بشكل عام مخلصات، ولكن حتى العرب أنفسهم يعرفون أساليب النساء ولا يكثرثون كثيراً للأمر. ولماذا لا يفعلون شيئاً؟ لأن العالم كله أصبح متشابهاً. وأجيب كما أجب بالزك⁽²⁾: «أتوجه إلى أزواج الأمس والحاضر الذين يخرجون من الكنيسة أو محافظة المدينة ويدهم عقد زواج معلنين ولاءهم ومتعهدين بالاحتفاظ بنسائهم لأنفسهم مدى الحياة. يقولون ذلك بدافع الأنانية أو لسبب أجهله. أولم ينظروا إلى محن الآخرين؟ هذا لن يحدث لي! أناشد البحارة الذين شاهدوا المراكب تغرق وأبحروا. إلى الشباب الذين شهدوا غرق أكثر من زواج وتزوجوا».

أما خلال الحرب، فتعامل النساء بمنتهى الاحترام. وكم من محارب التجأ إلى مكان الحريم فنجاً بنفسه.

لا تتعلم النساء، ولا يعرفن القراءة أو الكتابة ولا الحياكة أو التطريز ولا ينصرفن إلا إلى المنزل، وخاصة مطبخ العائلة. ويمضين الوقت أيضاً في تلوين الأيدي والأقدام بالحناء Lawsonia Inermis والرموش والحواجب بالكحل Antimonio، والوضوء المتكرر الذي يفرضه الدين والرغبة في التجميل للزوج.

يكرّس الزوج لكل زوجة عدداً من الليالي المتساوية بينهما. وعندما يبيت ليلة عند واحدة يمضي النهار التالي عندها ولا يذهب إلى الأخرى. وهذا يعني أنه يحبهن بنفس الدرجة.

وإذا كان الرجل متزوجاً، ثم تزوج من عذراء، يمضي سبع ليالٍ. وإذا كانت غير عذراء (أرملة أو مطلقة) يمضي ثلاثاً.

(1) يورد المؤلف قصة بعيدة عن الواقع والعرف المتبع، رأيت الأفضل أطراحها لثلاثاً تؤخذ مثلاً عن شيء ليس له وجود حقيقي على أرض الواقع.

(2) ينقل مانزوني النص هنا باللغة الفرنسية عن كتاب أونوريه دي بالزاك Balzac «فيزيولوجيا الزواج» Physiologie du mariage.

وينبغي للزوج إعالة زوجته حتى ولو كانت لا تشيع.

ويمكن للزوج أن يمنع زوجته من أكل التّوم أو أكل أو شرب ما لا يريد كي لا يؤثر ذلك على رائحة فمها.

ويمنع الزوج عن زوجته الحطب والملح والفلفل والخلّ أو الغذاء بشكل عام إن امتنعت عن تلبية رغباته الزوجية. وفي حال الاستمرار في الامتناع، يقرّر القاضي فيما يفعله.

إن كلام المرأة في المحكمة (مع الحفاظ على خمارها الذي يغطي وجهها) له وزن أكبر من كلام الزوج. وفي الواقع، فإن احتمال امتناع الزوج عن إعالة زوجته يفوق احتمال عدم تليتها له جسدياً.

والزواج في المدينة يختلف عن الزواج في الرّيف عند البدو أو القبيلي حيث تبقى المرأة حرّة لا تضع الخمار.

في المدينة، حيث يتعذر مشاهدة النّساء، يتمّ العقد بين الزوج وأهل الزّوجة من الرّجال. وتقوم أمه وأخواته بعرض زوجة يعرفنها.

تتمّ مراسم الاحتفال بعد كتابة العقد والموافقة، وهي أجمل وأكثر صخباً من مراسم زواج القبيلي. وتُعَدّ حفلة العروس في مكان حريم العريس. إلا أنه لا يشارك بها بل يذهب إلى المسجد مع الأقرباء والأصدقاء.

عند رجوعه، وبعد الوليمة التي يعدها، يدخل مكان الحريم ويرفع الغطاء عن زوجته للمرة الأولى. وهي لحظة حاسمة، إما أن تتحقق فيها رغباته أو على العكس يخيب أمله.

والواقع أن الشّابات العرييات يحتفظن بعذريتهن، فهن مؤدّبات وأخلاقهن حسنة. ومع ذلك ففي حالات أخرى بسبب تشوّه طبيعي أو مرض أو حتى خطأ، تقوم النّساء بالتّعاطف بروح إنسانية بالمساعدة لتبدو آثار العذرية واضحة.

* * *

الفصل الرابع عشر

الفصل الرابع عشر

الديوان - آداب السلوك العربية - التحيّة - الاعتقاد بالجنّ والعين الحاسدة والحِرز وتنبؤات المستقبل - السحر والتنجيم والأيام المباركة والأخرى المشؤومة - الكيمياء - الأولياء والدراويش - الأموات - آلام الأهل - مراسم الدفن - القبر والجبانة - الختان.

لا يوجد في شقّة المنزل العربي ما يستحق الذكر إلا الديوان أو صالة استقبال الرجال والنساء. والديوان عبارة عن غرفة واسعة مربعة أو مستطيلة كثيرة الأبواب والتوافذ. وهناك جزء من الأرضية ينخفض ثلاثين سنتيمتراً عن باقي الغرفة، يسمى الدُرْكَة ed-durka يُترك فيها الحذاء أو الصّندل قبل صعود الديوان أو القسم الأعلى المفروش بالسّجاد الذي تحيط به الأرائك والوسائد، حيث يُستقبل الضيوف.

في منتصف الديوان توضع الشّفرة التي يركز عليها المداع وزجاجات العطور والشمعدانات وفناجين القهوة وآلاف قطع الزينة الثمينة، حسب ثراء صاحب المنزل. أما الجدران فمطلية بالجصّ دون تزيينات، وفيها كوّات صغيرة توضع فيها قطع الزينة والكتب.

والنوافذ صغيرة ومنخفضة. لا ترتفع أكثر من خمسة وأربعين سنتيمتراً عن الأرض، ولها دفتان. وهناك نوافذ أخرى أصغر وفوقها نوافذ أخرى مستديرة أو مربعة مغلقة بألواح من بلّور الزيلونيت Selenite الأبيض أو بزخارف من الجصّ المثقّب الذي يتخلله الزّجاج الملوّن. يصنع اليهود تلك التّوافذ - كما قلت - بالطريقة الآتية:

يؤخذ قياس النَّافذة على الحائط بالفرجار، ثم يُرسم مخططها على طاولة مستوية ويُصَبَّ الجصُّ فوق الرِّسم بِسِمَاكَة أربعة إلى خمسة سنتيمترات حتى يصبح السطح منتظماً ومستوياً. بعد ذلك تُرسم الزَّخارف فوقه بِشكل متناظر وتُثَقَّب بِآلة حادَّة من الحديد أو السَّكِّين. ثم تغطى الثُّقوب بقطع زجاجية ملوَّنة⁽¹⁾.

ويتوقف الرِّسم أو ترتيب الزَّجاج الذي يغطي الجصَّ على ذوق الفنان. ويُعطى الزَّجاج مرة أخرى بالجصِّ حسب الشَّكل.

عند انتهاء العمل يُثبت على الحائط بالجصِّ. ولا يضع العرب الستائر على النَّوافذ ولا الزَّجاج على النَّوافذ الخشبية المتشابكة.

لا تختلف الغرف الأخرى عن الدِّيوَان، إلا أنها أصغر وأقل أناقةً.

ولا يستخدم أهل صنعاء الخزائن لوضع الملابس، بل يضعونها مع الملاءات في قطع كبيرة من القماش تُربط أطرافها بِشكل صرة، أو في صناديق خشبية تُركن في الكوَّات.

ويوضع صندوق الخزانة في الدِّيوَان في كوة تغلق بباب، يضع صاحبه أمواله والأشياء الثَّمينة فيه.

ولقد وجدتُ في بعض البيوت مرايا. ويوجد في كل بيت تقريباً من بيوت الأثرياء ساعة جدارية إنكليزية، وثمانها في صنعاء خمسة وثلاثون إلى أربعين فرنكاً.

تتم الإنارة عبر مصابيح الزَّيت. ويقتني الأثرياء مصابيح تضاء بالبتترول (النفط) الذي يحضره اليوان إلى اليَمَن مع السَّاعات الأميركيَّة والمرايا وآلاف الأشياء الأخرى أوروبية الصَّنْع.

* * *

يقاس سلوك المدن بِسلوك أفرادها، وهي تدلُّ على الشَّعب بِأكمله. أما عندنا،

(1) كتب المؤلف: يأتي هذا الزَّجاج من عدَن ويصل إليها من أوروبا.

فعندما يلتقي شخص بآخر يقوم الأقل رتبة اجتماعية أو شأناً أو ثراءً أو موهبةً بتحية الأكر. أما عند العرب فيقوم الكبير بالتحية أولاً، رافعاً من شأن من جعله منشؤه أو جاهه أو لقبه في موضع أقل شأنًا.

يقوم الأكبر بوضع يمينه على صدره، ويقوم الأصغر بالانحناء حتى الأرض تقريباً منزلاً يده اليمنى حتى الأرض ثم واضعاً إياها على جبينه.

وعندما يلتقي اثنان من نفس المركز، يقوم كل واحد بوضع يده اليمنى على مستوى الفم، وبعد تقييلها يضعها على جبينه. وعندما لا يتساوى المنصبان تماماً، يقوم الأعلى شأنًا بتحية الآخر وكأنه بنفس مستواه. إلا أن الثاني يقوم باحترام أكبر منحنيًا قليلاً برأسه وجسده.

وفي حال وجود شخصية مهمة جداً، يقوم الأقل شأنًا بالانحناء حتى الأرض ماداً يديه إلى الأمام ثم إلى صدره ثم فمه ثم رأسه.

عندما يحيي الشخص من يساويه في المنزلة، يكمل السير. أما إذا كان هناك فرق بين الاثنين، يتوقف الأقل شأنًا ويتجه نحو الآخر حتى يحييه هذا الأخير.

تُصحب التحية بالسلام عليكم. والجواب هو: وعليكم السلام.

وإذا توقف المتساويان في المنزلة يقول الواحد للآخر: كيف حالك؟ Keffàlik؟ أو: طيبين؟ Taibìn؟ ويتصافحان باليد اليمنى ثم يقبل كل واحد يده. ولا يمكن للعربي أن يسأل كيف العائلة أو الحريم. وإذا التقى رجلٌ صدفةً بنساء عرفهن، لا يستطيع تحيتهن ويتصرف وكأنه لا يعرفهن ولا يستطيع أن يقول إنه التقى بهن، فهذا غير لائق.

ولا تلقي النساء التحية على بعضهن عندما يلتقين.

* * *

والعرب شعب متدين جداً وقليل الانفتاح ويؤمن بالخرافات. ومن الخرافات في

الْيَمَن، إيمانهم بالجن وهم جنس وسط بين البشر والملائكة، خُلِقُوا قبل آدم من النار. وحياتهم موجودة منذ عصور. وقوتهم تمتد إلى الطّعام. ويأخذون أشكالاً مختلفة. وهم تحت إمرة سليمان، يسمعون القرآن ويستمتعون به ويسمعون ما يجري في السّماء. وهناك الجنّ الطّيب والشّرير. يحب العرب الأول ويهابون الثاني.

يعيش الجنّ الطّيب في البيوت والمساجد والآبار والينابيع وفي الحمامات، وهم يحمون المؤمنين من الجنّ الشّرير الذي يُدعى العفريت (وحش أو ساحرة) وهؤلاء يعيشون على سقوف المنازل أو على النّوافذ ويستمتعون بإلقاء الحجارة أو الآجر على المارة.

والريّح التي ترفع الرّمال في دوّامات هي من عمل العفريت الهارب. وسقوط النّجوم هي سهام يطلقها الله ضد جن شرير. وفي شهر رمضان (شهر الصّوم) يصفّد الله العفاريت لكي لا يغووا المسلمين.

وهناك عفاريت لا تُحصى تعمل في خدمة الشّيطان.

وتقول الخرافات التي ما زال يصدقها العرب المعاصرون إنّ الجان يشارك في الطّبيعة الإنسانيّة الجسديّة والخلقيّة. ولا يُرى بل يعيش بين البشر. ومن الأماكن المسكونة بهم، يعدّد العرب جبلي زراجة، الضلعان بين البصرة ومكّة، وبلاد وبار بين اليَمَن وصحراء يَبرين.

ولقد انتقلت تلك الأساطير من العرب غير المسلمين إلى المسلمين الذين يؤمنون بإله واحد، ولا يعترفون بوجود الجنّ الشّرير لأنّه ليس له قدرة على المسلمين الذين أعزّهم الله.

وأم ملكة سبأ كانت جنيّة. وأم الإسكندر، كابرة Kàbra، كانت من هذا العالم وكان أبوه أبرهة Abràha من عالم الجن.

وما زال العرب يعتقدون بأن زيجات حقيقية أو مؤقتة تقوم بين ذكر من الجنّ وأنثى من البشر.

والجنيّة الأنثى، بسبب حبّها المفرط، تتحد مع رجل دون زواج. وعندما تلتقي به

يصاب بالصّرع ولا يتحكم بنفسه بسبب التشنّجات التي يصاب بها، ويخرج من فمه سائل أبيض. وهذا ما يحصل أيضاً للنساء عند مجامعة الجن.

وأثار الحبّ رهبة وخطيرة قد تنتهي بالموت إذا كان الحب قوياً.

وما زال العرب يعتقدون بأن قبائل Scikki القديمة ويأجوج ومأجوج وDhaulafāni هي وحوش عملاقة تتغذى على الثعابين والعقارب وهي نتيجة اتحاد النباتات بالحيوان. وما زال العرب يعتقدون أيضاً بالعين الحاسدة أو العين الشريرة ويتجنّبونها ويأخذون الاحتياطات لدرئها. ولذلك فهم لا يعبرون عن إعجابهم بشكل مفرط. وإذا عبّروا قالوا: ما شاء الله.

وإذا لم يقل الشخص شيئاً، سرعان ما يذكره الآخر، لكي لا يقع الحسد، بكلمات: اللهم صلّ على النبي.

ويعزّون كل المصائب إلى العين الحاسدة التي وقعت عليهم. ولكسرها، يلجؤون إلى الحِرز (الحِجاب) والسّحر.

والحِرز الأكثر شيوعاً واحتراماً هو آيات من القرآن تُلف بقطعة من القماش وتُخاط على الكتف الأيسر أو توضع في أسطوانات من الفضة أو الجلد وتُثبت على الذراع الأيسر. وتضع النساء في أعناقهن عقوداً من المعدن تمثل يداً بخمس أصابع مفتوحة. ويضع التّجار أمام محلاتهم والعرب على جدرانهم وفي غرفهم وعلى أبواب منازلهم كتابات دينية.

ويرون في الأحلام إشارات تدلّ على المستقبل. وفي صنعاء وذمار وزبيد وتعرّ كان بإمكانهم الحصول على كتب تفسير الأحلام.

وعندما يجد العرب أنفسهم أمام قرار يلجؤون إلى الخرافة. وفي بعض الأحيان إلى القرآن، فيترّبعون على الطّريقة الشّرقية ويأخذون الكتاب ويلقونه من أعلى الرّأس على الحوض بحيث يسقط مفتوحاً فيقرأون السّطر السّابع من الصّفحة اليمنى الذي وضعه القدر أمامهم.

إذا كان معنى السطر مسالماً، كان الجواب إيجابياً. أما إذا عبّر عن غضب الله فهو سلبى.

ومن لا يعرف القراءة يأخذ سبحة وفيها عدد فردي من الحَبَّات. يقولون عند الحَبَّة الأولى: الله أكبر. وعند الثانية: سبحان الله، والثالثة: لا إله إلا الله، ويكرّرون الحَبَّات الثلاث بانتظام الواحدة تلو الأخرى حتى الحَبَّة الأخيرة. إذا وقعت على الدَّعاء الأول يكون الجواب إيجابياً وإذا جاءت على الثاني كان عادياً والثالث يعني أن الجواب سلبى. وهناك من يرى الجواب في لعبة تشبه طاولة فيثاغورث وتسمى الزايرجة - el zeirgè.

والزايرجة هي ورقة رُسم عليها مربع قُسم إلى مئة مربع صغير. وعلى كل مربع كُتب حرف من اللغة العربية.

عند التّطبيق، يضعون الورقة على ركبهم ثم يقرؤون السّورة الأولى من القرآن ثم الآية 59 من السّورة السادسة التي تقول: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَافِيسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. وعند قراءة الآية يضعون سبابة اليد اليمنى على الورقة دون أن ينظروا أين تقع. بعد إنهاء الآية، ينظرون إلى المكان الذي دلّ عليه الإصبع ويقرؤون الحرف ويكتبونه على قطعة من الورق متبعين قاعدة معينة. يختارون حرفاً موجوداً في نفس العمود الشاقولي مع الأحرف الموجودة في العمود الخامس إلى يمين الحرف الذي وقع عليه الإصبع. ومجموعة الأحرف تُكوّن كلمات تشكّل النّصيحة. وتكفي ثلاثة أحرف من الأبجدية العربيّة لتشكيل جذر كلمة تفرّع عنها ألوف الكلمات.

إنّ الشعب الذي يؤمن بالقدر إلى هذه الدّرجة يحتاج إلى معجزة قدرية تحرّكه. والظاهر أن العربي يخاف أن يكون مسؤولاً عن أعماله، لذلك ينحني بكل إيمان أمام اتفاقات المصادفة معتبراً إياها إرادة الله. حتى ليقال بأن العربي لا يتجرأ على التعبير عن شعوره.

والله وحده يعلم كم من سؤال اقترحتة الدِّبلوماسيّة الأوروبيّة، قوبل من سلطان القسطنطينيّة بجواب وجده في القرآن أو في الزَّايِرَة.

والطبقة العاميّة من العرب التي لا تعرف القراءة أو الكتابة تؤمن بالحظ والسحر. وقراء الحظ، الذين ينتمون هم أيضاً إلى تلك الطبقة، يقومون بالتنبؤ بالطالع السيء أو الحسن. أما الذين ينتمون إلى الطبقات العليا الثرية، فلا يريدون وسطاء جهلة ولكنهم يأخذون بعين الاعتبار علم النجوم أو التنجيم. والمنجمون يتبعون قواعد معيّنة لمشاهدة الفلك والأبراج السماوية ويظهرون تأثير النجم على طالع صاحبه. ويزعم المنجمون الذين يخطّون رموزاً على الأرض أو الرمال أو الورق ويعلمون هم فقط معناها، أنهم قادرون على معرفة الماضي والحاضر والمستقبل.

ولقد شهدت آلاف المرّات أقوال المنجمين وقراء الأبراج. وأكتفي بذكر ما تنبؤوا به في إحدى المرّات وهو لا يعنيني شخصياً ولكنه حاز على اهتمام الآخرين.

في شهر يونيو من عام 1879 كنت في لحج حيث عقدت صداقةً وطيدة مع سعيد عبد الباري من الحُدَيْدة والمقيم في الحوطة. وهو سكرتير العبدلي ومراسل في صحيفة عربية تُطبع في لندن. وباختصار، فالرجل متعلّم يعرف القليل في الجغرافية إلا أنه كان يعتقد بأن قِيسَتنا هي مجرد تاريخ، وأن إيطاليا تقع غرب إنكلترا وتعجّب عندما قلت له بأنني أنا أيضاً أعرف ما هو الشرق والغرب والشمال والجنوب، وأنني أقرأ الصّحف العربيّة التي تصدر في تركيا والهند بتمعّن. كان يؤمن بعلمه الواسع وبأن البوارج الحربية الروسية لا تستطيع عبور قناة السويس لأن الإنكليز يمنعونها من ذلك. كنا في حديقة حكومة عدن، وكأصدقاء، تشاحنا حول السياسة، حتى في اليَمَن!

في ذلك الحين كان إسماعيل باشا خديوي مصر. وكانت المسألة الإنكليزية الفرنسية الاقتصادية لا تزال مطروحة ولكن لم يكن من الممكن التنبؤ بما سيحصل. وكان رأيي في ذلك الوقت خضوع مصر الوشيك تحت الهيمنة الإنكليزية. أما عبد الباري فقال بأن الأمور ستبقى على ما هي، وفجأة قال: «أعطني رقماً!» فأعطيته. وخطّ رمزاً بعصاه على الرَّمَل في الحديقة، ثم طلب مني أرقاماً أخرى وخطّ رموزاً أخرى،

ثم وضع نقاطاً وخطوطاً في الأعلى والأسفل، يميناً ويساراً. وعندما انتهى، بدأ بقراءة الرّسم ثم قال لي: «مصر بخير، إلا أن هناك قوّتين عُظميين تمسكانها من ذراعيها كل واحدة من جهة. من سينتصر، لا أعرف. ولكنني أرى أن مصر ستخسر رئيسها».

بعد أيام قليلة، أذاعت رويتر نبأ عزل إسماعيل بالقوة. وكان الخبر قد وصل قنصلنا في عدن.

من المؤكد أن عبد الباري لم يكن يعرف ذلك مسبقاً، لأن رويتر لم تنقل نبأ تلك الحادثة قبل ذلك.



وعند العرب أيضاً أيام مباركة وأخرى مشؤومة. فتقام الأعراس أيام الاثنين والخميس يسمّى المبارك ويوم الجمعة يذكر الناس ببدء الإسلام على الأرض وهو أفضل الأيام. وهجرة النبي من مكة حدثت يوم الجمعة. ويلقب بالفضيل. أما الأحد والأربعاء فهي أيام عادية. وأما الثلاثاء فيسمى يوم الدّم لأن القسم الأعظم من شهداء المسلمين قد ماتوا في هذا اليوم. أما السبت فهو أنحس الأيام لأنه عيد اليهود.

وخلال السنة أيضاً هناك الأيام المباركة والأيام المشؤومة. فآخر يوم أربعاء، مثلاً، من شهر صفر (ثاني شهر قمري عند المسلمين) يوم نحس. ويتجنّب أغلب المسلمين الخروج من منازلهم في هذا اليوم لأن مصائب كثيرة ألّمت بالعالم في هذا اليوم. ويقولون إنه يوم العفريت.

لقد توقف البحث في اليَمَن وفي جزيرة العرب منذ زمن عن حجر المعرفة. والعلوم القديمة لم تكن ذات جدوى. إلا أن أهم فروعها وهي الكيمياء أو علم انحلال الأشياء إلى عناصرها وتفككها، الذي أسميناه نحن أيضاً بهذا الاسم، فهو أبرزها. ولكنني لم ألتق في اليَمَن بعلماء كيمياء. ولم أر بين البدو والقبلي إلا منوّم الثعابين.

ومع أن القرآن لا يعترف بالقدّيسين، ففي اليَمَن أولياء أموات وأحياء لا يخضعون إلا لاعتراف العامة من الناس بهم. وحكم الناس خاطئ في أغلب الأحيان. ولكنهم

قلّة في اليَمَن، أما في بلدان أخرى كالمغرب والجزائر فيكثر عددهم.

والمعتوهون والمجانين والمجاذيب يعتبرهم العرب مقرّبين عند الله. ذلك أن روحهم في السماء، أما جسدهم فين البشر.

ويُسمح لأولئك الناس بكل شيء. يمكنهم الظهور عراة أمام العامة ونقض الأعراف وأحكام الدين دون تدخل أحد. فكيف سيتحكّمون بجسدهم وملذاته المادية إذا كانت روحهم منصرفة إلى عبادة الله؟

لقد قال لي معلّم اللغة العربية، القاضي حسين القلاصي بأن الدّراويش هم أكثر إيماناً وإخلاصاً من الآخرين. ولقد رأيت البعض في اليَمَن ولكنهم كانوا إما من الأتراك أو من العجم. يبرهن الدّراويش على قدراتهم بأكل الحصى والزجاج والمعادن ويزعمون أنهم قادرون على وخز أجسادهم دون ألم أو جرح. يُخضعون الثعابين والعقارب لقدراتهم ويضعون الجمر المتوهّج على أجسادهم دون أن تحترق. وباختصار، يلجؤون إلى الخزعبلات ويعيشون على الصدقات التي يحصلون عليها دون حاجتهم للسؤال. ويخافهم اليَمَنيون لأنهم يعتقدون بأنهم قادرون على جلب الشّؤم! وهذا هو سبب أنني لم ألتق بدرويش في العربية السعيدة إلا نادراً.

يحترم العرب الموتى كثيراً، وتتم مراسم الدفن على الطريقة الدينية. وبما أنهم يخضعون لأحكام الله المطلقة، فهم يمتنعون من إظهار ألمهم لفقدان قريب لأن ذلك يعني الحزن من إرادة الله وهذا كفر. والموت بالنسبة إليهم هو انتقال من الحياة الفانية إلى الجنة الخالدة. وهذا الأمر ينطبق على من يستشعر الموت، فبدلاً من إظهار خوف أو ألم من ترك الحياة، يموتون والابتسامة على وجوههم مطمئنين مستعدّين للحظة دخولهم الحياة الأبدية المباركة.

أما عندنا، فيبدأ الألم والدّموع منذ لحظة نزاع المريض. وعند العرب، طالما أنه يتنفس يبقى الجميع في هدوء ولو أكّد الطّبيب أن موته قريب يقولون على اعتقادهم بأن الله يقرّر ساعة الموت ولا يمكنهم اعتباره ميتاً إلا بعد أن يلفظ نفسه الأخير. عندئذٍ

تصبح النساء. أما الرجال فيحافظون على هدوئهم حتى في ذلك الظرف الحزين. لا يعتبرون عنه خارجياً، إلا أنهم يمتنعون لعدة أيام عن الاجتماع بأصدقائهم بل يقون في المنزل.

وبعد موت الشخص يبعثون حسب الجنس بالرجال والنساء الذين يقومون بتفصيل الميت. فيغسلون الجثة بعد وضعها على سرير. ويحلقون شعره ويسدون كل منافذ جسده لأنه يجب أن يبقى طاهراً ثم يُلف بملاء نظيفة ويضعونه على سرير يُعدّ للموتى بعد أن يكفّنوه، ثم يأخذونه إلى المقبرة. ويسبق التعش عدد من الشبان يقولون بصوت حزين: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. ويسير خلفهم خدم المرحوم ثم الأربعة الذين يرفعون التعش على أكتافهم، ثم الأقرباء والأصدقاء والمعارف.

وفي حفرة المقبرة قليلة العمق يوضع الجسد ويوجّه وجهه نحو مكة، وهي شمال غرب اليمن.

لا يوجد عند العرب حكم معيّن يحدّد مدة الدفن بعد الموت. ولكن الذين يحثّ على الدفن السريع. وفي اليمن يتم الدفن بعد ساعات قليلة من الموت. إلا أن مراسيم الدفن يجب أن تتم في النهار فقط. وإذا مات المريض ليلاً ينتظرون حتى تظهر الشمس في اليوم التالي. توجد قبور الصنعانيين، كقبور جميع اليمنيين، خارج أماكن السكن في حقول واسعة متروكة. ونادراً ما رأيت فيها قبوراً من الكلس أو الحجر مع كتابات عربية حديثة.

لا يظهر العرب مظاهر حداد معينة، ولكن عندما يموت صاحب البيت، يقومون بقلب السجاد والحصر والوسائد والأرائك في ديوانه لمدة ثلاثة أيام.

أما الختان فغير مذكور في القرآن. ولكن بعد أن أقرّه إبراهيم، أصبح عند اليهود واجباً دينياً. ولقد عفا القديس بولس المسيحيين منه. أما المسلمون الأوفياء لجدهم إبراهيم، فيعملون به.

ولقد سألت العرب في اليمن وقالوا لي بأن الختان واجب ولكن إذا توفرت أسباب

مقنعة عند الرجل يُعفى منه. ولا يعني أن غير المختون ليس مسلماً كاملاً.

لم يحدّد سن الختان، وهو يختلف من بلد إلى بلد. وعلى أيّ حال يجب ألا يتعدى الشاب سن البلوغ عند إجراء العملية. والأثرياء من الأهل يُتبعون ذلك باحتفال. فمع موكب الأصدقاء والموسيقيين يوضع الشاب على حصان أو بغل أو جمل مزين بشكل كبير ويلبس أفضل ما عنده ويضع عمامة من الحرير الأحمر على رأسه. ويجب أن يضع بيده اليمنى منديلاً على فمه. وتهتم العائلات الغنية بمظاهر الثراء. ويتركون أصدقاءه يصطحبونه إلى المسجد ويشعلون البخور ويمضون وقتاً طويلاً في المسجد ثم يُدعى الجميع إلى وليمة كبيرة. وبعد الغداء تبدأ عملية الختان. يصحب الحلاق الفتى إلى غرفة منعزلة ويقوم بعمله مستخدماً شفرة حادة. ثم يوقف التزييف بمسحوق معين. وتنطلق صيحات الفرح وتوزّع الهدايا. وبعد ثمانية أيام يصحبون الفتى إلى الحمام بموكب بهيج.



الفصل الخامس عشر

الفصل الخامس عشر

الغداء - القهوة على الطريقة التركية - الحشيش.

يستهلك العرب نفس أنواع الأغذية التي نستهلكها. وبشكل عام يأكل القبيلي والبدو لحم الضأن والماعز، ولا يوجد لحم البقر إلا في المدينة. ولم أجد في اليَمَن كلها لحم العجل والثور، لأن الأعراف العربية القديمة حظّرت عليه كي لا يؤثر على النسل. ولا يحبّ العرب لحم الصّيد، ويأكلون لحم الدّجاج والطيور الدّاجنة بكمية كبيرة وكذلك البيض. ويحبّون الحليب.

ويستهلكون كميات كبيرة من البقول والخضار من جميع الأصناف. وكما في جميع مدن الشرق، فالتّساء وحدهنّ في اليَمَن هنّ اللواتي يعتنين بأمور الطّبخ. ولكن اليَمَنيات يضعن السّمن والزّبّد في الطّعام ولا يستعملن الزّيت على الإطلاق. ويضفن التّوابل الكثيرة إلى الطّعام. وفي جميع المأكولات، وحتى في الحساء، يضيفن عصير الليمون الحامض.

والخبز هو غذاء الشّعب الرّئيسي. وفي المدينة تُصنع منه كمية كبيرة، وهو أجود من الخبز الذي يصنعه القبيلي أو البدو.

والحساء هو المرق المصنوع من الدّجاج أو الحَمَام في بيوت الأغنياء أو من الخراف عند باقي الشّعب. وتضاف الأعشاب للمرق والبصل والجزر والملفوف والفاصولياء والفلفل وبهارات كثيرة والخبز. هذا الحساء هو (الشوربة) وهو طبق اليَمَن التّقليدي.

يأكل الأغنياء أيضاً الخروف المحشي، ولا يشوونه على النار بل يضعونه في الفرن ويحشونه بالأرز والزبيب واللوز ويسمونه الحنيذ ويطبخونه أيضاً في الماء. وفي الأسواق يبيع العرب المشاوي أو قطع اللحم أو الكبد المشوية في سيخ الحديد. وعوضاً عن دهن الخنزير المحرّم عند العرب يستعملون دهن الخروف.

ويُطبخ الدجاج في الفرن أو في الفخّار مع الزّبد أو يُسلق فقط.

والكبيبات هي لحم مفروم مع البصل والملح والفلفل والبهارات.

ويحضّر العرب أطباقاً يوضع فيها اللحم على شكل قطع كبيرة أو مفرومة ومعها خضار وزبيب.

ويقلّد اليمّانيون الأتراك فيصنعون الضّولمة⁽¹⁾ dölma، وهي نوع من المقالي باللحم مع الأرز ملفوفة ضمن أوراق الملفوف أو السّلق، ويصنعون الپيلاف pilau وهو أرز أبيض مع الزّبد ومرق اللحم.

ويحبّ العرب كجميع الشرقيين الحلويات، وعندهم السّبّاية وهي رقائق محلاة بالسكر، وبنّت الصّحن، وهي حلوى إسفنجية (كخبز إسبانيا عندنا)، والكنافة، وهي عجينة سائلة جداً مصنوعة من الدّقيق وصفار البيض والسكر والقليل من الملح والزّبد. يتركون العجينة تنزل في الوسط على طبق كبير من الحديد الموضوع على النّار يحتوي على الدّهن وعبر قمع يحتوي أسفله على ثقب كثيرة، محرّكين إياها يمّنة ويسرة، ويشكلون منها دوائر عدة أسطوانية. وطعم الحلوى طيّب جداً وهشّ. ويصنعون أيضاً السّوسي، وهي مصنوعة من عجينة الدّقيق وصفار البيض والسكر.

والشّعيرية هي عجينة تحوّل بالأصابع إلى عصيّات تجفف ثم تُطبخ كالمعكرونة عندنا. والمعصوب، هو قطع من الخبز تُغلى مع الزّبد والعسل.

والبالوزة، هي أوراق الزّهر المدقوقة والمعصورة. ويضيف العرب إلى هذا العصير

(1) الضولمة Dolma من أشهر أطباق المطبخ التركي، والعبارة تعني: المملوء، المحشو.

دقيق النخالة والسكر والقرفة والماء لصنع المشروب. ولا يغلونه على النار. وهو مدرّ للبول.

يستخدم العرب الحلبة كثيراً وهي حبّيات خضراء من نبات *Trigonella foenum graecum*. تُترك نصف ساعة في الماء ثم تُصفى. يزيد حجم الحبّيات المقطعة على الحجر مع عدد من الأعشاب، وتُقدّم تلك العجينة مع القليل من الملح والفلفل وتُدقّ في مقلاة خاصة.

ولا أستطيع أن أثني على هذا الطبق.

في الأعياد التي تلي رمضان وتدعى البيرم⁽¹⁾، تشكل الشوربة الطبق الرئيسي. تُترك حبوب النخالة في الماء يوماً بأكمله حتى تتنفخ. وبعد ذلك تُدق حتى تتحول إلى عجينة يضاف إليها الحليب والملح والفلفل والتوابل وتؤكل نيئة. وأما المائدة العربية فتحضّر على الشكل الآتي:

تُحضّر الأطباق الواحد تلو الآخر. في البدء الحساء ثم اللحم المشوي ثم اللحم مع الخضار ثم الحلوى. وبعدها مرة أخرى اللحم مع الخضار. وفي النهاية الهلّاف، أي الأرز.

لا يشرب العرب إلا الماء والقهوة والشربات. ولن يضرّ القارئ أن أكلمه عن القهوة المحضّرة على الطريقة التركية، طالما أنني أتكلّم عن هذا الموضوع. ذلك أنها لا تحضّر عندنا بنفس الطريقة. فإذا فكر أحدنا بتحضيرها، لن يقدم لضيّفه إلا الطين.

في البدء تُحمّص حبوب البن قليلاً حتى يصبح لونها ذهبياً وليس أسود كما وللأسف نستهلكه نحن. تُطحن الحبوب بعد ذلك بشكل تتحوّل فيه إلى حبّيات دقيقة ناعمة كتبغ إسبانيا. ولا يطحن الأتراك عدداً كبيراً من الحبوب دفعة واحدة لئلا تفقد الحبّيات، التي تُحفظ في علب مغطاة بالقصدير، طعمها. لذلك لا تُطحن إلا الكمية المستهلكة يومياً.

تبقى النار مضمرة في منازلهم وعليها قدر كبير من الماء. يغلي الماء باستمرار تاركاً

(1) هذه العبارة تركيّة Bayram وتعني: عيد الفطر.

ترسبات، وبتلك الطريقة يُنقى.

وعندهم دلال كثيرة من القصدير والتحاس أسطوانية الشكل ولها يد طويلة، وهي تستوعب كمية تتناسب مع عدد الفناجين. فمنها الصغير لفنجانين، ثلاثة أو أكثر.

وإذا أمر صاحب البيت بتحضير القهوة لضيوفه، يقوم الشخص المسؤول بأخذ الإبريق المصنوع من القصدير، فيملؤه بالماء المغلي ويضيف كمية معينة من السكر الذي يذوب مباشرة، وعدداً من ملاعق البن الصغيرة حسب عدد الفناجين ثم يخلطها بالملعقة نفسها.

يوضع إبريق القهوة على النار، وما إن تبدأ الرغوة بالظهور والغليان، يرفعها عن النار. وبحركة يدق أسفل الإبريق مرات عدة على الأرض، فتنزل الرغوة ثم يعيدها للنار ويكرر المحاولة ثلاث إلى أربع مرات دون التحريك هذه المرة. وتصبح القهوة جاهزة. يُحضّر الإبريق بعد ذلك إلى غرفة الضيوف ثم تُصبّ القهوة أمامهم. تلك الضربات الخفيفة لها تأثيرها، وتلك الثواني التي تستغرقها القهوة مارة من غرفة لأخرى ضرورية ليقبل غليانها. وثوانٍ أخرى لثلاث تحترق شفة المحتسي. كل ذلك الوقت يجعل الحبيبات العالقة على السطح تنزل إلى قعر الفنجان.

عند التقيد بتلك القواعد أؤكد لكم بأن القهوة التركية تصبح ممتازة.

ولأسباب اقتصادية لا يضيف الأتراك السكر إلى القهوة، لأنهم لو فعلوا شاربين كمية كبيرة كل يوم، سيؤثر على ميزانيتهم ونفقاتهم. إن شرب ثلاثين فنجاناً من القهوة في اليوم عند الأتراك عادة لا بدّ منها.

* * *

هناك قليلون من العرب، منهم شبّان، انساقوا لفساد الأتراك ويسمّيهم العرب: المخنوث makhnùdh. وهم يستهلكون الحشيش.

أما عرب المدينة والقبيلي والبدو فيمتنعون عنه تماماً. والحشيش يعني بالعربية العُشب أو الشّعير. وتسمى بهذا الاسم أوراق الخشخاش أيضاً. عند تجفيف تلك

الأوراق، يمكن تحويلها إلى مسحوق رمادي مخضّر. ومع إضافة الماء والسكر، يحوّلونه إلى حبوب مُرّة الطّعم.

ويُخلط أيضاً مسحوق الحشيش مع العسل والسكر والفلفل وجوزة الطّيب. وتُخلط العجينة مع الدّقيق ثم تُطبخ. وبعد أن تستوي، تُقَطّع إلى حبوب طويلة تؤكل. وتوضع في بوري المداعة أحياناً قطع منه، أو أوراق جافة من الحشيش الذي يُدخّن. لقد تذوّقته أنا أيضاً ودخّنته مع التّبغ والسّجائر. والنتيجة الوحيدة التي حصلت عليها هي شهية كبيرة. والسّبب يكمن في أنني لم أستهلك كمية كبيرة، لذلك لا أستطيع أن أجزم بالأثر الذي يتركه.

ولكنني سمعت ممّن يستهلكون كمية كبيرة منه أنه يقوي الخيال ويعطي قوّة. وتظهر أفكار جديدة على المخيلة وأحلام جميلة وغريبة. بالنسبة لهم، يُدخلك الحشيش إلى راحة نفسية كبيرة تتأبك فيه حالة من الضحك القوي غير المنتظم.

يُسمّى المستهلكون للحشيش بالحشّاشين. ولقد كانوا يشكلون فرقة في المجتمع في مرّة من المرّات، أو ما يشبه النّادي. ومن تلك الكلمة جاءت كلمة Assassino عن طريق لغة جنوب أوروبا. والمدخّن يدعى حشّاش. وهي شتيمة أيضاً للمدخّنين. ولا يُستعمل الأفيون في اليَمَن إلا لأسباب طبّية.



يتناول العرب طعامهم ثلاث مرات أيضاً في اليوم. في الصّبح، الفطور. وهو عبارة عن خبز وقهوة أو خبز وعسل. وفي منتصف النّهار، الغداء. ويتكون عند الفقراء من سميد الدّرة مع الزّيد والخبز المقلّي، وعند الأغنياء من غداء فاخر. وفي المساء، وبعد مغيب الشّمس، يُحضّر العشاء. وهو عند الفقراء عبارة عن تكرار للفطور والغداء، وعند الأغنياء الطّعام الرّئيسي لليوم.

في الطّبقات العليا لا يأكل الرّجال مع النّساء أو الأبناء، ولكن في الطّبقات الأخرى يأكل الجميع معاً.

خلال شهر رمضان الذي يمتنع فيه المسلمون عن الطعام في النهار، يقومون بالطبخ في الليل. أي بصورة معاكسة لما يفعلونه باقي أيام السنة. وفي المساء، حالما يؤذن المؤذن قائلاً الله أكبر يعلن عن بدء الإفطار. وبعد أن يقوم العرب بشرب بعض الماء، يحضرون غداءً فاخراً. وعند منتصف الليل يفطرون. وقبل طلوع الفجر يتناولون شيئاً خفيفاً.

احتفظ العرب بعاداتهم التي تدل على تحدرهم من قبائل الرّحل فيما يتعلق بآداب المائدة واستعمال أدوات المطبخ البسيطة والمتينة. والطّاولَة عبارة عن طبق من الحديد أو النحاس أو الفضة (السُّفرة)، وقطرها متر ونصف تقريباً. يوضع الطّبق على كرسي لا يرتفع أكثر من ثلاثين سنتيمتراً، ويوضع عليه الطّعام. يجلس الجميع متحلّقين على وسائل أو على السّجاد فقط. وتوضع قطعة خبز وملقعة من الخشب أمام كل واحد. ولا توجد سكاكين ولا سُوك أو طبق آخر عدا ذلك الذي يتوسط الطّاولَة ويتناول الجميع الطّعام منه.

أما إبريق الماء، فمصنوع من الفخّار المشوي تحت الشّمس. وبسبب طبيعته العازلة، يبقى الماء بارداً. ولا يوجد كؤوس للشّرب. بل يُشرب من عنق الإبريق.

وصاحب البيت هو أول من يضع يده اليمنى في الطّبق. ويتبعه الآخرون، دائماً باليد اليمنى. حتى إذا امتنع صاحب البيت عن أكل شيء معيّن، لمسه فقط ليسمح للآخرين بأكله.

وعادةً يتحلّق ستة أو سبعة أشخاص حول السّفرة. وإذا كثّر العدد، تُحضر سفرات أخرى.

وما يفيض عن السّفرة يُترك للخدم الذين يُحضّرون عادةً طعامهم الخاص.

يأكل العرب بصمت وبسرعة مبتدئين بالبسملة أي بعبارة بسم الله، وينتهون بالحمد لله. ويكثر التّجشؤ. وبعد غسل اليدين جيداً، يستلقون على الأرائك يدخّنون المداعة ويشربون القهوة.

تعلم الأتراك الأكل على الطاولة على الطراز الأوروبي واستخدام الأدوات والكؤوس والزجاجات والمناديل. إلا أنني شاهدت تركيا، وكان كولونيلاً، لم يتمكن من استعمال الشوكة والسكين وكانت المائدة قد هُيئت على الطريقة الإفريقية، فما كان منه إلا أن أخذ قطعة اللحم بيده اليمنى وبتأنٍ قطعها، ثم تناولها بالشوكة باليد اليسرى.



الفصل السادس عشر

الفصل السادس عشر

حياتي في صنعاء - معلّم اللغة العربية - جولة داخل جزيرة العرب - مشروع تجاري - جمعية
تجارة البحر الأحمر - قصة الثمانية كيلوغرامات من الكينين - قرّرت ترك صنعاء لفترة وجيزة
والعودة إلى عَدَن - المغادرة إلى صنعاء - وعلان - امرأة جميلة - الوقوع من فوق البغل يتكلّل
بمصافحة يد فاطمة الجميلة - مَعْبَر - إبراهيم بك - ذَمَار - يوسف أفندي - عزيمة غداء عند مستو
بك Mustah Bey⁽¹⁾ - مقبّلات وغداء تركي - فنطزية عربية - مُنشد - رقص عربي - رقصة
التحلة - مغادرة ذَمَار - يريم - السّدة - تجار صنعانيون - حكم مصطفى عاصم باشا يبدأ بإظهار
مفعوله - بلاد زراعية خصبة متروكة - قائمقام تركي - غيوم ومنظر خلّاب - أرنب - الزّاب -
قَعطبة - الجليّة - عوبش يُقنع خدمي بمرافقتي إلى عَدَن - ثلاثة صنعانيين يرافقونني - عامر البيشي
يأتي لاستقبالي - مدفع - حقل عسكري عربي - أتكلّم مع الخدم - دار شيان - جنرال من العدو
- الراحة - لَحج - عَدَن.

الآن وقد تكلمت عن الآخرين، ليسمح لي القارئ العزيز بالتّكلم عن نفسي.
وسأحاول ألا أكون ممّلاً. كيف سارت أموري في صنعاء؟ على الوجه الآتي:

بالإضافة إلى انشغالي بالتقارير الدّقيقة عمّا كنت أشاهد وأسمع في تلك المدينة،
وملاحظة البارومتر والترمومتر، وحساب ارتفاع الشّمس، وتصوير مناظر وأشخاص،
وتسجيل مذكراتي ودراسة اللغة العربية، والتّجوال في المدينة طويلاً وعرضاً، وكذلك

(1) قد تبدو هذه التسمية غريبة، لكنها اسم تصغير لاسم مصطفى، وتشيع حتى اليوم في الأناضول
جنوب شرقي تركية.

في الرِّيف لأتمكّن من الحصول على خارطة لصنعاء أنشرها مع الصُّور، انخرطتُ في حياة البلاد وزيتي وعادات شعب تلك المدينة الرائعة.

وأظنّ أنني لم أضَيِّع لحظة من وقتي. فلقد كان بإمكانني الاهتمام أيضاً بالتجارة في اليَمَن وفي صنعاء بشكل خاص. وبالمناسبة، كان برنامجي هو دراسة الشعب ولغته قبل كل شيء ثم تجارته.

كان معلّم اللغة العربية القاضي حسين القلاضي، إمام جامع المتوكل. والقاضي حسين رجل طيّب ومتسامح. وبدأ سعيداً ومستعدّاً لتعليمي القراءة والكتابة وتفسير القرآن. وشرح لي الكثير من طريقة عيش العرب. وفي الوقت نفسه تعرّفت على شخصيات بارزة في صنعاء كانت لهم علاقات تجارية وصدّاقة أو قرابة مع الكثير من شيوخ وأمراء الجوف والمشرق وجبل شهارة.

بواسطة هذه الشخصيات كنت أستطيع التّعامل مع أولئك الشيوخ. كان سفري إلى تلك البلاد مضمون النتائج. ولو توقّرت لدي الوسائل لكنت بدأت بالتّفيذ مباشرة. وللأسف، وكما يحدث دائماً، لم أحصل إلا على الوعود من ميلانو. لم أحظ إلا بالمديح بعد الرّسائل التي بعثتها الواحدة تلو الأخرى لأعرف فيما إذا كان بالإمكان الحصول على المال للدخول إلى جزيرة العرب. وإذا كان بالإمكان إدارة تجارة بين اليَمَن وإيطاليا كما وُعدت من العاصمة الرّوحية لإيطاليا. ولقد خاب أُملي.

لقد حظيت رسائلي بأجوبة كانت مُبهمة مليئة بالكلام المعسول الذي لا يُسمن ولا يُغني من جوع.

لقد طُلب مني إنشاء جمعيّة تجارية مع البحر الأحمر والمبادرة بالعمل والتّجربة. وإن من دواعي حظي تواجدي في بلد غني كاليمَن. وعُيِّنت ممثلاً عن الجمعيّة في اليَمَن. كما طُلب مني إعداد تقرير عن التّجارة اليَمينية.

كان الأمر جميلاً ومناسباً لو أنني حصلت على منحة مالية من ميلانو أو إيطاليا تغطي نفقات رحلتي للتوغل في جزيرة العرب والتّجارة. ولكن هذا لم يحدث. كما

أنه كان عليّ إعداد تقرير عن تجارة اليَمَن ودراسته ولم يكن لدي الوقت لذلك. أجبته على رسالة المكلف بالأمر قائلاً بأنني أقبل العرض، وتكفلت بدراسة تجارة اليَمَن وكتابة تقرير عنها لو أنه لَبَّى طلب الباشا المَلَحَّ وعدد من الأثرياء في الحصول على بضاعة كانوا سيدفعون أيّ ثمن من أجل الحصول عليها. والعملية التجارية هذه مضمونة الأرباح. ولقد قمت بدراسة نفقات الشّحن من أوروبا إلى الحُدَيْدة ونفقات الجمارك ونفقات الشّحن من الحُدَيْدة إلى صنعاء وكلفة البضاعة بعد وصولها.

تلك البضاعة التي طلبها الباشاوات كانت عبارة عن براميل خمر بوردو لاستهلاكهم الشّخصي وللمشفى العسكري. هكذا كان طلبي لرئيس الجمعية في ميلانو. فتخيّلوا ماذا كان جوابه. قال بأنني لست مفاوضاً يُعوّل عليه. فهل أطلب من ميلانو خمر بوردو؟ وممّن برأيكم كنت سأطلبه؟ كانت علاقتي مع ميلانو فقط. ولم يتوقع مني أن أطلب خمر بوردو من ميلانو. لم يفهم بأن الأمر لا يتوقف عليّ، كانت مهمتي أن أضمن وصول البوردو إلى صنعاء.

تلك الحادثة تدلّ على مدى جدّية أولئك السّادة! وهناك حادثة أخرى سأرويها. في شهر أغسطس 1878، وخلال إقامتي الثانية في صنعاء، كانت مؤونة القوات العثمانية من سلفات الكينين المعدة للمعالجة قد نفدت وأودت الحُمى بضحايا كثير. توّسل إليّ مصطفى عاصم باشا للحصول على هذا الكينين بأيّ ثمن. وهو موجود في ميلانو، وطلبه لا يقل عن ثمانية كيلو غرامات.

كنت قد حصلت منذ فترة طويلة على لائحة أسعار مصنع إربا وشركاه Erba e Compagni في ميلانو. وفي تلك اللائحة كان سعر الكينين خمسمئة ليرة للكيلو غرام الواحد. فطلبت من مصطفى عاصم باشا دفع الثمن للقنصل التركي في عدن، حسين علي بك، والمبلغ مقداره أربعة آلاف ليرة ذهبية لصالح قنصلنا بيننفلد رولف الذي سيكون مسؤولاً عن الطّلب. وتبّته مصطفى عاصم باشا إلى نفقات الشّحن وفيما لو ارتفع سعر السلفات. وعلى هذا الأساس أبرم العقد الذي لم يُذكر فيه اسمي. وهذا

يناسب تجار ميلانو الذين لم يثقوا بتوقيعي بعد عملية البوردو.

وأرسلت الكمبيالة بمئة وستين ليرة إسترلينية مع رسالتي إلى قنصل عدن وأخرى للسيد إربا Erba في ميلانو من صنعاء مع بريد الحديدة الرسمي، وذلك في 8 أغسطس 1878.

وفي اليَمَن انتظرنا الكينين فترة طويلة.

وأخيراً، في 10 أكتوبر 1878! تصلني في صنعاء من السيد إربا رسالة مؤرخة 7 سبتمبر 1878 يقول فيها بأن ثمن الكينين قد ارتفع بمعدل مئة ليرة للكيلوغرام الواحد. وأخبرني قنصل عدن محذراً (برسالة في الثاني من أكتوبر) أن السيد إربا قد رفض الطلبية بسبب فارق السعر وأرجع رسائل الاعتماد التي أرسلت إليه! وحكاية البوردو ما تزال أبسط!

إلا أن القنصل الذي عرف الضرر الذي لحق بي في اليَمَن من جرّاء ذلك، ونظراً لعدم تمكني من حل تلك المشكلة الملحة، أرسل بركة مستعجلة على حسابه إلى مصنع لومباردي للمواد الكيميائية وحصل بأربعة آلاف ليرة ذهبية على أكثر من عشرة كيلوغرامات من الكينين.

لذلك لن تتعجب عندما تعرف بأن الجمعية التجارية مع البحر الأحمر (التي سميت فيما بعد رغبة في التوسع بالجمعية التجارية مع أفريقيا) قد فشلت.

منذ ذلك الوقت علمتُ بأنني لن أحقق شيئاً مع ميلانو ولن أحصل كذلك على نتيجة للعود المالية لقاء صوري الفوتوغرافية التي أرسلتها إلى مجلة «المستكشف» *Esploratore*.

وتبعاً لذلك، قرّرت العودة المؤقتة إلى عدن للتحدث إلى القنصل النبيل بيننفلد للبحث والتّظر فيما يمكنني أن أفعل.

* * *

لذلك ففي السبت 23 مارس 1878 تركتُ منزلي في صنعاء وسلّمت أغراضي

إلى والد خادمي حسن ومعه ومع صالح من صنعاء ودليل توجهت نحو وعلان التي وصلتها مساءً. وتذكرت احتيال صالح أباح فلم أنزل في سمسرته بل توجهت إلى منزل إسماعيل محسن الذي استضافني بالترحاب. كان زوج امرأة جميلة بدت وكأنها غجرية وكانت تدعى سعيدة.

وجدنا غرفة مريحة في هذا البيت طلبت حديثاً وكانت أرضيتها مغطاة بالحصر الجديدة. وينزل عادةً في هذا البيت الضباط من ذوي المراتب العليا عندما يكونون في طريقهم من صنعاء إلى دمار.

وفي صنعاء وبسبب علاقاتي وصادقاتي مع شخصيات لامعة من الحكومة أصبحت أنا أيضاً ذا أهمية، فكان الجميع ينادونني البك أفندي. وهو لقب يتمتع به فقط الكولونيل وأولاد الباشا والتبلاء.

في المساء كان علي استقبال المدير أو المحافظ والقاضي والكتاب وضابط تركي، كلهم قدموا إلي تحياتهم وتمنياتهم.

بعد العشاء كانت سعيدة الجميلة تريد البقاء في صحبتي. وفي الوقت الذي كان خدمي يحضرون السجائر لليوم التالي كانت تروي لي قصصاً كثيرة. وعندما حيتني قالت بأنها تحب المسيحيين.



الأحد 24. في الساعة الخامسة صباحاً كنا نتهياً على بغالنا الأربعة ونتوجه إلى معبر، وخادمي حسن وصالح اللذين لم يخرجوا قط من صنعاء ولم يقوموا برحلة طويلة على البغال كانا يناديانني من وقت لآخر غير قادرين على متابعة العدو. وكنت أراهما في بعض الأحيان وهما ينزلقان من على ظهر البغل.

ولكنني قرب معبر ما لبثت أن انزلتُ أنا أيضاً ووقعت أمام الخدم الذين كانوا يبعدون حوالي ثلاثين قدماً عني. حدث هذا على بعد مئتي متر من معبر، وكانت صبيّة جميلة تراقب خرافها جالسة وظهرها باتجاهنا. وعندما اقترب البغل منها لم تنتبه

وفجأة قفزت لتهرب. جعلت تلك الحركة الفجائية البغل يتنحى يساراً ويلقي بي من طولي على الأرض تحت قدمي الفتاة الجميلة التي شاهدتني مستلقياً وخوذة الخيال تطير. وبعد أن عادت الجميلة إلى رشدها من تلك المفاجأة، ركضت تحضر القبعة بمنتهى الأدب وكنت آنذاك قد وقفت على قدمي دون أن أصاب بأذى لحسن الحظ، ولكنني كنت ممثلاً بالغبار.

كان خدمي قد وصلوا إلى مكان الحادث ولم يتجرؤوا على الضحك من سيدهم، ولكنني شاهدت تعابير وجوههم التي تكاد تنفجر ضاحكة، فلم أتمالك نفسي وضحكتُ ملء أشداقي وكذلك فعل الشابان والفتاة.

إلا أنني سرعان ما رجعت إلى جدّتي وصافحتها وسألتها عن اسمها، فقالت بأنها ابنة أخي صاحب السمسرة في معبر وأنها تدعى فاطمة.

ركبتُ البغل الذي وقف ينتظرني في المكان نفسه كما لو أنّ شيئاً لم يحدث، ودخلت معبر وسط الناس الذين شاهدوني ألقى في الهواء من بعيد وكانوا يضحكون. توجّهنا بعد ذلك نحو السمسرة القديمة طالباً لي ولخدمي الغرفة الخاصة، فأعطيت لنا مباشرةً.

وصلت معبر في الساعة الواحدة والرّبع وأمضيت باقي النهار في معسكر الجيش التركي وتناولت الغداء عند صديقي العزيز إبراهيم بك، قائد الأركان التركي.

كانت قبائل زراجة قد اتحدت مع بلاد أنس الواقعة قرب معبر ضد حكومة صنعاء قبل أسابيع قليلة، وقُتل على إثر ذلك اثنان من المدراء. وحاول المتمردون الانقلاب على دمار. لذلك بعثت الحكومة المركزية قوات كبرى إليها بقيادة الكولونيل مستو بك، وحرّاس مكونين من ثلاثمئة رجل بقيادة هذا الرجل الذي يدعى إبراهيم بك.

وفي المساء جاءني بنات صاحب السمسرة مع ابنة عمهم فاطمة. وضحكنا كثيراً ذاك المساء مما وقع لي خلال النهار.

* * *

الاثنين 25 - في الساعة الثالثة والتّصّف صباحاً، تركنا مَعْبَر باتجاه دَمار حيث وصلناها الساعة العاشرة وعشرين دقيقة. وحالما وضعنا بغالنا في السَّمسرة جاء يوسف أفندي، الملازم الطَّبيب لتحيّتي واستضافتي لتناول الغداء في منزله. بعد الطَّعام، ذهبنا معاً إلى معسكر الجيش التركي لزيارة الكولونيل مستوبك، حيث استقبلنا بحبور في خيمته الجميلة. كان الضباط يحيطون به، وقد وجدوا بالرَّغم من أشغالهم الكثيرة الوقت ليشربوا الكونياك الذي لم يصبّوه في كؤوس وإنما في فناجين القهوة. ولقد طلب مني مستوبك أن أتناول طعام الغداء معه وأمضي المساء في منزله قائلاً بأنّه سيأمر على شرفي بإقامة فنطزيّة *fantasia* رائعة.

تركت معسكر الجيش مع يوسف أفندي لزيارة المدينة وقاع اليهود، ثم دخلت الحمام حيث مكثنا ساعتين.

أضيف لما ذكرت فيما يتعلق بدَمار بأنها مدينة صغيرة جميلة فيها خمسة إلى ستة آلاف نسمة وبيوتها عالية وجميلة. وفيها جامع كبير مشهور بقدمه وبكونه أهم مدرسة دينية في اليَمَن. وقد ألحقت به مكتبة غنية جداً بالكتب العربية. إلا أننا لم نتمكن من رؤيتها بسبب الوقت المتأخر.

في الساعة السادسة والتّصّف دخلنا منزل مستوبك في سلاميك أنيق، حيث كان صاحب المنزل والقائمقام أحمد خلوصي أفندي Ahamèd Holussi Effendi وعدد من الضباط ووجهاء عرب من دَمار ينتظروننا مستلقين على الأرائك أو متربّعين بانتظار تقديم المقبّلات التي اعتاد الأتراك تناولها قبل الغداء. وبالفعل، حال دخولنا وإلقائنا تحية السلام عليكم، جلست إلى جانب مستوبك حيث قدّم لنا الخدم طاولة عليها الشُّفرة (الطبق الكبير المستدير) وعليه أطباق صغيرة كثيرة فيها أنواع السُّلطات والسَّردين والزّيّتون مع الزّيّ والملفوف والجبنّة والكبد المقلي. ولكل شخص وُزّع خبز وشوكة وكأس ومنديل لوضعه على الأرجل.

صُبَّ العَرَق في الكؤوس. وبين لقمة وأخرى من هذا الطّبق وذاك، كانوا يرتشفون جرعة بعد جرعة، مدخين السجائر أو الشُّبوق أو المداعة وهم يتحدّثون.

استمر تناول المقبلات ساعتين. وشرب كل شخص عدداً من الكؤوس. إلا أن هذا المشروب يحتوي على نسبة بسيطة من الكحول لا تتعدى الثلاث عشرة درجة. إن تلك الطريقة في تذوق الأطعمة والعرق في جلسة استمتاع وحديث تفتح الشهية للأكل.

في الساعة التاسعة طلب مستوبك رفع السفرة والعرق وإحضار سفرة أكبر تحتوي على البيض المقلي والأعشاب العطرية وأحضرت شوك أخرى وكؤوس وخبز. وبعد البيض أحضر الدجاج مع مرق الزيتون ثم نوعان من الحلوى ثم خروف محشو بالأرز والزبيب واللوز ومطهو في الفرن. وأخيراً طبق الخضار والهيلاف الضروري. استمرّ العشاء ما يقارب الأربع ساعات، شربنا خلاله خمراً يونانياً لذيذاً. وبعد أن انتهينا وغسلنا أيدينا بالصابون واستلقينا على الأرائك على الطريقة الشرقية قدّمت القهوة ثلاث مرات واستغرق ذلك ساعة أخرى مع التدخين والمحادثة. وفي الساعة الحادية عشرة بدأت الفنطزية. لذلك غيّرنا مجلسنا إلى غرفة أوسع وأكثر أناقة.

وتعني الفنطزية باللغة العربية الاستجمام. وفي اليمن هي المشهد الرّاقص مع الموسيقى والحركات الإيمائية.

ويحبّ العرب الموسيقى كما يحبها الشرقيون بشكل عام، مع أن النبي حرّمها. وآلات الموسيقى العربية هي الطبل النحاسي أسطواني الشكل الذي يغطي نهايته العليا المستديرة جلد الخروف، ويُقرع باليدين أو بعصاتين بينما تركّز قاعدته السفلى بين الرجلين. وهناك الدربكة ذات الشكل المخروطي ولها ذراع يمسك باليد اليسرى بينما تدقّ اليمنى جلد الخروف الذي يغطي الفوهة العليا. وهناك الطارة أو الطبل ذو الدوائر النحاسية التي تصدر أصواتاً. ويشبه ذاك الذي يستخدم في دول الباسك وإسبانيا وصقلية. وأما آلات التفخ عند العرب فهي الناي والمزمار الذي يشبه الكلارينيت والصفارة. والآلات الوترية هي الرباب وهي أبسطها. عبارة عن كمان ذو وتر واحد. والكمنجة، وهي بوترين والقيثارة بأربعة أوتار والعود بستة.

كان الموسيقيون في تلك السهرة أربعة. اثنان معهم الدربكة وواحد معه الطارة،

وواحد المزمارة (ثلاثة طبول ومزمار) وكانوا في مؤخرة الصلاة على الزاوية اليمنى يجلسون على الأرض بين المغنين المحترفين.

ويكرس العرب أيضاً وقتهم للموسيقى. ويصحبون الأناشيد الدينية بألاتهم وذلك في أماكن خاصة. أما الموسيقيون العوام والمنشدون والراقصون، فهم ينتمون إلى فئة خاصة يخجل العربي من الانتماء إليها. لذلك فالموسيقيون العوام، حتى في المدينة، هم من القبلي أو البدو الذين يجوبون البلاد مع نسائهم ويعيشون من حرفتهم هذه. ولا تقوم نساء المدينة بالغناء أبداً أو بالرقص أمام العامة. أما المنشدات من القبلي أو البدو فتسمى العوالم (مفردها العالمية⁽¹⁾)، وهي الراقصة في أوروبا).

ولا تأبه العوالم خاصة إذا كنّ صغيرات وجماليات، فترقصن أمام العامة من الناس، وعندئذ لا تسمى عالمة بل غازیة.

كان القسم الأول من الحفل الإنشاد. وقام ثمانية منشدين وأربع عوالم جميعهم من القبلي الشرقيين بغناء أناشيد الحرب والحب.

وغناء العالمية رتيب وحاد بشكل عام. والصوت ليس متناغماً وعذباً كغناء مغنياتنا. أما الرجال فصوتهم جميل ورخم. إلا أنهم يحبون الغناء الحادّ ويبذلون جهداً كبيراً في القيام به.

وتراهم ورأسهم ينحني واضعين كفّهم وراء آذانهم وحنجرتهم تبذل أكبر مجهود. وخلال الغناء يجلس الموسيقيون على الأرض متجهين نحونا. والآداب المشرقية تقول بأنه إذا خصّ رجل أحد ضيوفه بمشهد استعراض، يعني ذلك شرفاً رفيعاً.

(1) تشيع هذه العبارة في مصر حتى اليوم، والواقع أنّ من الخطأ كتابتها: عالمة، لأنها عبارة عبرية «עלמה» تعني: البنت، الفتاة. وكان العديد من القيان الراقصات في مصر بالقرون الماضية ينتمين إلى المجتمع اليهودي، ولذا شاعت التسمية. كما أنّ العبارة ما تزال موجودة في بقايا اللغة الكنعانية الفينيقية في ساحل لبنان، وكل من يزور منطقة جونية إلى الشمال من بيروت يعلم أنّ إلى الشمال منها تجاه جسر المعاملتين منطقة تسمى: «ساحل علما» والمقصود بعلما (البنت) هنا: العذراء التي هي عناة زوجة البعل، من بقايا تسميات الديانة الوثنية القديمة.

وكنّت أنا الضيف الخاص في تلك السهرة. وإضافة على تصدّري المكان في المركز والجميع عن يساري ويميني، كان الموسيقيون يحيّونني أيضاً بالسلام والانحناء. ومن بين الشابات الجميلات العوالم، كانت هناك شابة هي آية في الجمال، ولا أعرف إن كانت نظاراتي هي السبب، إذ أنها كانت تحدّق بي باستمرار. أما مستوبك الذي انتبه لذلك، فقال مداعباً بأنها غرقت في حبّي. فأجبت ضاحكاً بالعربية: «ستين ستين سنة». وهو تعبير عند أهل صنعاء يعني «وما همّني!».



أخيراً وبعد ساعتين من الغناء الطويل المملّ لرتابته والأصوات الحادة فيه وقرع الطبول المستمرّ والمزمار، بدأ الرقص.

لا يوجد أيّ شبه بين الرقص الشرقي والأوروبي. فالرقص الأوروبي يتبع إيقاعاً معيناً ويحتاج إلى تمارين كثيرة وحركات أرجل معينة وقفزات منتظمة. أما عند العرب أو في أي بلد شرقي، فالرقص هو تتابع حركات وانحناءات لا غاية منها إلا التعبير أمام الحضور عن مشاعر حميمة. والعالمة (المغنية) من الممكن أن تكون دميمة، أما الغازية⁽¹⁾ (الراقصة) فيجب أن تكون شابة وجميلة. أما لباسهن فهو لباس القبيلي البدويّات. وهنا أيضاً ترى الفرق بين المظهر الخارجي للمرأة المحتشمة والمرأة السافرة: لباسهن أضيق وأكثر أناقة وتبدو أعطافهن الجميلة بوضوح، وقد ظهر العنق والصدر والأذرع عارية. والأرجل دون بنطال، مغطاة بثوب قصير. والشعر منسدل على الأكفاف، وفي العنق والأذن والذراع والأرجل والأصابع عدد كبير من المجوهرات الفضية وبشكل نادر الذهبية. وترقص النساء وحدهن. ومن المستحيل أن ترى رجلاً يرقص مع امرأة في الشرق.

(1) هكذا تشيع كتابة العبارة عموماً، ولكنني أظن أن الصواب فيها: غَزِيّة، لأن مصدر التسمية لا يمكن أن يكون الغزو واسم الفاعل منه غازي، غازية، بل يغلب على ظني أن يكون مصدرها اسم شعب الأوغوز Oğuz الذي يرد في أعمال المؤرخين العرب: «الغَزّ»، وهم من شعوب آسيا الوسطى ذوي أسلوب الحياة الأقرب إلى حياة الغجر. فلعل امتهان بعض نسايتهم الرقص في القرون الوسطى أفرز هذه التسمية.

والعالمة الغازية نادرة كثيراً، لذلك فثمنها عالٍ. ولهذا السبب لن تتعجب عندما ترى الشباب يرقصون أمام الجمهور في بلاد الشرق عوضاً عن النساء.

وأما في تلك السهرة، فلقد أمتعني مستوبك وللمرة الأولى بمشاهدة رقص النساء. تلك الرقصات المليئة بالأنوثة ولا أتجرأ على ذكر تفاصيلها: ولكنني كصحفي سأكتفي بالكلام العام.

عندما افتتحت الغازيات الرقص في الديوان، بدأت ببعض الخطوات التي ترافق الموسيقى مع تحريك الطارة فوق الرأس وحوله. ثم بدأت تتمايل إلى الأمام والخلف واليمين والشمال وكأنها تحرك مجاذيف المركب.

وكان هذا التمهيد للرقص. كانت أقدام الغوازي تبقى بلا حراك على الأرض. وأما الأذرع فتتحرك إلى الأعلى والأسفل وبتجاه الصدر حسب التعابير والأحاسيس الداخلية للراقصة، ومعها حركات الورك التي كانت تتسارع أو تتباطأ حسب النغمة الموسيقية المرافقة. وبدأت النساء دون حياء على الإطلاق.

*Vibrabunt sine fine prurientes
Lascivos docili tremore lumbos.*

هكذا وصف مارسيل Marziale رقص بنات قادس Gades.

وبعد أن يصل الرقص إلى أوجه، تتباطأ الحركات وتبدأ الراقصات بالتمايل على الضيوف دون حياء. ولقد اعتاد الجميع على ذلك، فلا تحمرّ وجوههم خجلاً. ويقوم المشاهدون بإهداء الخواتم والمال والمجوهرات إلى الراقصات.

ولم ينقطع الخدم عن إحضار كؤوس الكونياك والخمر اليوناني خلال الحفل. وتحبّ العوالم والغوازي الخمر والكحول كثيراً. ولقد شربن جميعهن عدداً كبيراً من الكؤوس.

وعندما انتهى الجميع من الرقص والعزف، أمر مستوبك وعلى شرف الضيف برقصة النحلة. لقد بدأت الغازية الصغيرة، التي علمت بأنها تدعى عزيزة، بالرقص

واهمة الحضور بأن نحلة لسعتها وبدأت بالبحث عنها في ملابسها مردّدة: النَّحْلَة، لسعتني النَّحْلَة. وبدأت صديقاتها بمساعدتها على العثور على النَّحْلَة الوهمية. وفي كل مرة كانت تنزع عنها قسماً من الملابس إلى أن بقيت بستره واحدة تغطي جسدها. ثم بدأت باللبس قطعة وراء قطعة وهي ترقص. وتكرّرت الرّقصة أربع مرات وفي كل مرة كانت غازية مختلفة ترقص.

انتهى الحفل في الرَّابعة صباحاً. وبعد ذهاب الرّاقصات والموسيقيين، عاود الحضور شرب القهوة والحديث لمدة ساعة.

تركت المكان في الخامسة مع الدكتور جوزيف تاركّا الكولونيل والمسلمين الآخرين يتهيئون لصلاة الفجر.

الثلاثاء 26 - استيقظت في منتصف النَّهار وكان أمراً بديهيّاً. فبعد سهرة المساء كنت تعباً وهذا لم يمنعي من تلبية دعوة مستوبك لتناول الغداء معه. على شرط ألا يدعوني إلى فنطزية أخرى.

وهكذا أرجأت مغادرتي إلى اليوم التالي.

وأَمْضَيْتُ ما تبقى من النَّهار أتجوّل في دَمَار وعدت في التّاسعة مساءً.

ولقد قال لي الخدم عندما عدت من الفنطزية (بالعربية): «يا خواجه، والله أَمَس تَرَأك سكران كثير»⁽¹⁾.

* * *

الأربعاء 27 - أخيراً وبعد أن استرحت، تركت دَمَار في السّاعة الخامسة صباحاً. وبعد توقفي في الطّريق لتناول القهوة، وصلت يَريم في منتصف النَّهار.

الخميس 28 - حالما غادرنا يَريم، انعطفنا شرقاً لارتقاء جبل القَبّة ثم نزلنا تحت

(1) يكتب المؤلّف العبارة بالعربية بحروف لاتينية:

Ya Khavàgia, v'Allàh, ams ta ràk sakràn kethir.

نقيل العقاب طاش 'Neqil el-Agabattasc' سالكين الطريق الاعتيادية نحو السدة
Sédde على طول الرافد الشمالي لوادي بتّا.

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، وصلت منزل علي عُبيد في السدة. وكان عنده الكثير
من تجار صنعاء محمّلين بكمية كبيرة من البنّ والقمح في طريقهم إلى عدّن. وجاؤوا
هنا منذ حوالي شهر وقالوا لي بأن حرباً نشبت بين العبدلي (قبيلة لحج) والحوشي
(القبيلة الشمالية) منعتهم من متابعة السفر. فلقد أغلقت الطّرقات من قبل المسلحين.
وعندما قلت بأنني يجب أن أكون في عدّن خلال خمسة أيام، قالوا لي بأنه من الجنون
المخاطرة بحياتي. وأما خدمي الجبناء بطبيعتهم، فقالوا إنه يحزّ بنفسهم عدم اصطحابي
إلى أبعد من ذلك. ولكي أشحذ عزيمتهم قلت بأننا سنصل فقط إلى الجليلة لنحصل
على مكان أفضل للإقامة، وبما أنني لا أبغي المكوث في سدة نتيجة تجربتي السابقة،
اتخذوا قراراً باصطحابي إلى حُبّيش.

وعلى طول الطريق بين يريم والسدة وجدت الحقول، التي كانت مزروعة في المرة
الأولى عند مروري، مهجورة مع أن الوقت كان وقت الحصاد الربيعي. وفي المساء
كان معي في الغرفة عدد من الصّنعانيين، ثم انضمّ إلينا علي عبيد، فسألته عن السبب
في هذا الإهمال.

قال لي علي عُبيد: «في شوال (أكتوبر) الماضي حصلنا على حصاد وفير من الدّرة
والشّعير والقمح والشّوفان في وادي بتّا. شكرنا الله على برّكه وحملنا الجمال وبعثنا
المحصول إلى عدّن. وما إن حصلنا على المال حتى جاءت دورية ضبط من يريم بعثها
أحمد توفيق أفندي القائمقام، الله يبعثه إلى الشّيطان، ويلعنه هو وأبوه وعائلته...».

«يا أماني» *Ja ammàni* (معذرة). قلت له: «ماذا؟!...» قال لي: «هو كلب وكافر...
الله لا يرحمه ولا يعطيه النّسل». «استغفر الله» *Staghfer Allàh*، قلت له. فقال: الأمر
كان يقضي بأن يذهب كل من يملك حقلاً إلى يريم ليعرّف عن نفسه. خرجنا جميعاً في
قافلة. فقال الخنزير والكلب: «إخواني، علمت أنكم حصلتم على الكثير من المال،
أحسّتم! حسناً!...».

أمر أحد كتّابه، لأنه حمار لا يعرف القراءة، بقراءة ما كُتب على ورقة كان يمسكها بيده. كانت الكتابة تركية، فترجمها لنا: أنت فلان الفلاني يجب أن تعطي الحكومة 400 تاليري، وأنت 500، وأنت 600، وأنت 1000. وهكذا حسب عددنا. «وأنت علي عُبيد يجب أن تدفع 800 تاليري».

أصابتنا الدهشة، وكيف لا؟ أما هو فبقي صلباً كالتمر هندي، قال: «إذا لم تحضروا المال خلال عشرة أيام، سأضعكم في السّجن والسّلاسل في أقدامكم».

تخيّل يا خواجه، لم أجنّ من محصولي سوى 600 ريال تاليري: كيف لي أن أدفع 800؟ ولم يترك لنا الوقت، فإما الدّفع أو السّجن. وإذا دخلنا فلا يعلم أحد متى سنخرج.

يكتب القائمقام إلى المشير بأننا نثور على التّرك، فيأتي الأمر من صنعاء بنقلنا إلى المُخا أو الحُدَيْدة أو إلى الشّيطان.

لقد اضطررت إلى بيع الجمال للحصول على 800 تاليري وذهبت مع الآخرين لتسليم المبلغ إلى قائمقام يريم.

لذلك قرّرنا ألا نبذر في هذا العام، لكي يأتي القائمقام عند سرقتنا فلا يجد إلا الحجارة والتراب.

قلت له: بئس ما فعل، ولكنه سيعود ليطلب المال مرة أخرى، وإذا لم تعطوه سيضعكم في السّجن. أجبني: لقد دفعنا مرة وإذا جاء مرة أخرى فسنعلن الحرب.

لقد بدأ مصطفى عاصم باشا بالحياد عن الطّريق السّوي. كان بحاجة إلى المال من أجل سدّ نفقات حملته البائسة، ولكي يكسب في القسطنطينية ودّ أتباع السّلطان.

واندلعت حرب العرب فيما بعد، كما سنرى.

* * *

الجمعة 29 - في الصّباح الباكر غادرنا، وأخذنا الطّريق القديم عبر وادي بّتا. وفي

السّاعة التاسعة والتّصف كنا على قمة معبر الحدّة. وهنا كان الضباب مدهشاً وجميلاً. كان وادي الصّوبة شمالاً، تحت قائممقامية قعطبة معرّضاً للشمس. أما جنوباً، فكانت أودية بلاد مُريس والعود، والشّاعري كلها مغطاة بالضباب الأبيض. فبدت من الأعلى وكأنها بحرٌ من الجليد تنبثق عنها قمم جبل جحاف، ومُريس والشّعيب وكأنها جزر نائية. فتوقفنا لمشاهدة هذا المنظر الرّائع؛ بحر الجليد.

نزلنا الجبل بعد ذلك وكانت الشّمس قد تغلّبت على الضباب، فبدأ الجو صحواً وحراراً. ومن وادي العود خرج أرنب يتمشّى بهدوء على ضفاف التّيار.

وفي السّاعة الثّالثة وصلنا عزاب، حيث الكوخ الذي نزلنا فيه المرة السّابقة. وأردت أن أطهو الأرنب بنفسني غير واثق من طبخ القبيلي فكان ممتازاً ووجده خدمني أيضاً طيّباً، حتى أنهم تمّنوا أن يلتقوا بأرانب أخرى.

وكالمرة السّابقة لم أنم من الحشرات التي داهمتني في الليل.



السبت 30 - كالمعتاد سرنا صباحاً نحو قعطبة التي وصلناها في منتصف النّهار. تناولت الإفطار عند مصطفى بك، القائممقام، الذي كان في منتهى اللطف في رحلتي إلى صنعاء. وكان من ألطف القائممقامية الذين التقيتُ بهم في اليمن. وفي السّاعة الواحدة وضعنا السّرج على البغال وانطلقنا نحو الجليّة التي وصلناها السّاعة الرّابعة واستقبلنا كالعادة بحفاوة من قبل عوبش.

وبما أن منزله قد امتلأ بالتّجار من صنعاء الذين كانوا يرغبون بالوصول إلى عدن كما في السّدة، وكانوا ينتظرون فتح الطّرق، فقد طلب من أخيه ثابت أن يتنازل عن الدّيوان لأمكث فيه مع خدمني. في المساء وبعد العشاء، بالإضافة إلى عوبش وإخوته، جاء أهل صنعاء للترحيب بي والبقاء بصحبتي، وتعجّبوا من تصميمي على الرّحيل إلى عدن في اليوم التّالي.

لم يكن بوسعي أن أفعل أي شيء، فقد كان قنصلنا سيذهب في أوائل أبريل إلى إيطاليا، ولو أنني وصلت عَدَنَ بعد مغادرته لكنت بالإضافة إلى حزني لعدم رؤيته سأكون قد أضعت مالا وجهداً وقتاً.

وأما خدمي الذين هيؤوا أنفسهم للمكوث في الجليلة، فقد امتنعوا عن اصطحابي عندما علموا بمغادرتي الأكيدة.

وبالتأكيد لم أقبل بإجبارهم على مرافقتي، وتوجَّهت إلى عوبش العربي الأكثر ذكاءً وواقعية، ففهم أنني كنت مجبراً على الذهاب وأنني كنت سأمرّ دون حواجز تعترض سبيلي. وبكلامه المنطقي قام بإقناع حسن وصالح على عدم الخوف وهم بحمايتي. وهكذا أمضينا الليلة بسرور وحدثت أصدقائي الصنعانيين والجليليين عن فنطزية العوالم التي حضرتها في دمار.

* * *

الأحد 31- في الصُّباح أراد ثلاثة من التجار الذين ملّوا الانتظار في الجليلة اصطحابي إلى عَدَن. تركوا بضائعهم إلى الصنعانيين ليحضروها لهم فيما بعد إلى عَدَن. فوافقت على اقتراحهم خاصة وأنهم لا يملكون بضاعة ولا جمالاً، فكان السَّير سهلاً لأنه أسرع. جعلتني تحضيراتهم أنتظر بعض الشيء. ولم نغادر إلى الخُربة إلا في منتصف النَّهار.

كان قراري في الليلة السابقة بالتوجّه إلى عَدَن قد أثار ردود فعل قوية من الجليليين، فما بالكم وأن ثلاثة صنعانيين قرّروا الالتحاق بي. إلا أنهم بالغوا في تعجّبهم كما سنرى بعد قليل.

أراد عوبش أن يصطحبني إلى عامر البيشي، شيخ الخُربة، لتوصيته بي. انطلقنا في الساعة الواحدة، وبعد ساعة ونصف وصلنا الوادي الذي يرتفع عليه التل ومنزل الشيخ.

من الواضح أن عوبشاً كان قد أخبر البيشي صباحاً بقدومي، فلقد استقبلني بمراسم

الشرف مع إخوته وأولادهم وثلاثين من البدو المسلحين بينادقهم، وحسب العادات أطلقوا الرصاص ترحيباً. وردّاً عليهم أطلقت اثنتي عشرة طلقة ببندقيتي. عند توقفهم كما هي العادة للتحية، ترجلت عن بغلي وبعد أن رددت التحية، مشيت نحو الشيخ مع كل من كان معي، وتوجه نحوي هو أيضاً، وبعد ذلك تصافحنا وتعانقنا وقبلنا الوجه وسرنا مع عامر وعوبش في المقدمة إلى منزل الشيخ. وحالما دخلنا الديوان، قدمت القهوة والمداعة.

ومع أن الشيخ يعرف سبب سفري، فإنه، ومن دواعي أدبه وهي خصلة جميلة عند القبيلي، عرض عليّ المساعدة. وبعد أن قلت له كل شيء قال لي: «أنا حليف وخادم علي مقبل، أمير الضالع، وحردبة وحرير، ومعه اتحدنا مع السلطان فضل بن علي سلطان لحج وهذا يعني أننا في صراع وحرب مفتوحة مع الأمير علي بن مانع، أمير الحوشبي (الحواشب). لذلك فالراحة خاضعة لسيطرته ولن يدعك تمرّ لأنك تنطلق من عندنا ونحن أعداؤه.

«ولكنني أعرف فضل بن يحيى، ابن أخي علي بن مانع و...».

«أعرف، أعرف... وأعرف أنك صديق الجميع، إلا أن فضل بن يحيى في مسيمير عند عمه وجنوده في الراحة وكلهم شياطين من البدو لن يدعوك تمرّ، أو ترتب عليك دفع مبلغ من المال».

قلت له: «عزيزي عامر، منذ شهر وأنتم في حرب ولم تطلقوا طلقة واحدة، ولا حتى قصمتم عنق دجاجة حوشبية ؛ لذلك...».

«حياة البدو!...».

«إذن، إذا كنت سأنتظر أن تقرّروا فمن الأفضل أن أعود إلى صنعاء أليس كذلك؟».

«اسمع يا خوجة مانجوني⁽¹⁾ أنت جئت إلي ومن واجبي حمايتك والانتباه لمصلحتك. غداً أو بعد غد سيأتي جنود من حرير وجمال يحملون مدفعاً كان سلطان

(1) كتب المؤلف: كانوا يسمّونني هكذا Mangiuni عوضاً عن مانزوني.

لَحَجَّ قَدْ أَعَارَهُ مِنْذُ بَضْعِ سَنِينَ لِلْأَمِيرِ عَلِيٍّ مَقْبِلَ بَغِيَةِ الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ ضِدَّ الْأَتْرَاكِ.
اَنْتَظَرْتُ حَتَّى يَصِلَ الْمَدْفَعُ ثُمَّ نَذَهَبُ جَمِيعاً إِلَى حَرْدَبَةِ حَيْثُ الْأَمِيرِ عَلِيٍّ وَمَعَهُ نَفْتَحُ
طَرِيقَ الرَّاحَةِ وَنَذَهَبُ حَتَّى الْحَوِطَةِ».

«دَعْنِي أَفْكَرَ».

إِنْ فِكْرَةٌ وَجُودِي لِمَشَاهِدَةِ الْجَحَافِلِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ يَطَالَنِي
شَظِيَّةٌ مِنْهَا، أَوْ أَنْ أَصِلَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ عَلَى مَغَادِرَةِ الْقَنْصَلِ، قَدْ جَعَلْتَنِي أَعْدِلَ عَنْ
رَأْيِي، لِذَلِكَ قُلْتُ: «عَامِرُ، أَقْبِلْ بِشَرَطِ أَنْ أُنَامَ (بِالْعَرَبِيَّةِ) السَّبْتُ أَرْبَعَةَ رُبُوعِ الثَّانِي فِي عَدَنَ».

قَالَ لِي: «مَعْرُوفَ (maruf)». (أَيَّ قَبِلْتُ).

«أَحْذَرُكَ بِأَنِّي إِنْ رَأَيْتُ الْأُمُورَ سَتَطُولُ، سَأَتْرُكُكَ وَأَذْهَبُ».

«أَنْتَ مَخْوَلٌ بِأَنْ تَفْعَلَ مَا تَشَاءُ».

وَهَكَذَا رَضِيَ الْجَمِيعُ: عَامِرُ الْبِيْشِيِّ وَعُوبِشُ اللَّذَانِ شَعَرَا بِأَنْ مَسْؤُولِيَّتُهُمَا تَجَاهِي
قَدْ خَفَّتْ. وَاطْمَأَنَّ الْخَدَمُ وَالْمُرَافِقُونَ الصَّنْعَانِيُّونَ الَّذِينَ خَافُوا مِنْ تَفَاقُمِ الْحَالَةِ.

غَادَرْنَا عُوبِشَ بَعْدَ بَضْعِ سَاعَاتٍ رَاجِعاً إِلَى الْجَلِيلَةِ. وَلَا حَاجَةَ لِلْقَوْلِ بِأَنْ اسْتِضَافَةُ
الْبِيْشِيِّ لِي وَمُعَامَلَتُهُ كَانَتْ مِمْتَازَةً.

الْاِثْنَيْنِ 1 وَالثَّلَاثَاءِ 2 أَيْرِيلَ 1878 - بِمَا أَنَّ الْمَدْفَعَ لَمْ يَصِلْ، مَكْثْتُ فِي الْخُرَيْبَةِ.
وَدَفَعْنِي الْمَلَلُ إِلَى الذَّهَابِ لِلصَّيْدِ. اصْطَدْتُ خَمْسَةَ أَرَانِبٍ وَثَمَانِيَةَ مِنْ طَيُورِ الْحَجَلِ
وَثَلَاثَةَ مِنْ دِيُوكِ الْحَبْشِ وَعِدَدًا مِنَ الْعَصَافِيرِ. وَكَالْعَادَةِ كُنْتُ أَنَا الطَّبَّاحُ وَعَبَّرْتُ عَنْ
مَهَارَتِي الْفَنِيَّةِ كَهَاوٍ.

الرَّابِعَاءِ 3 - أَخِيرًا سَمِعْنَا صَوْتَ الطَّبُولِ صَبَاحًا فِي مَعْبَرِ الْخُرَيْبَةِ. لَقَدْ وَصَلَ
الْمَدْفَعُ. فِي السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ مِنْ سَطْحِ مَنْزَلِ عَامِرٍ شَاهَدْتُ اسْتِعْرَاضًا يَتَضَمَّنُ عِدَدًا
كَبِيرًا مِنَ الْبُدُو الْمُسَلَّحِينَ بِالْبِنَادِقِ. إِنَّهُمْ الْجُنُودُ، وَكَانُوا يَسُوقُونَ الْجَمَالَ الْمَحْمَلَّةَ

بالعجلات والخشب وصناديق البارود والرصاص وكل ما يحتاجه المدفع الذي رُبط إلى عارضتين تجرها أربعة جمال صُفّت اثنين اثنين.

انطلقنا في الرَّابعة، وبعد ساعة وصلنا فيها إلى مجبة الضّالّح، داهمتنا عاصفة هوجاء ومطر غزير منعانا من الاستمرار في السّير. لذلك التجأنا إلى مغارة أمضينا فيها الليل. الخميس 4 - عند بزوغ الفجر، استيقظت من شدة البرد والرطوبة. أُضرمت النّار وانتظرنا قدوم الأمير علي مقبل الذي كان قد غادر الضّالّح، مكان إقامته.

وصلني نبأ اقترابه، لذلك مضينا في التاسعة نسير، وفي العاشرة التقينا به في حردبة حيث توقفنا لتناول الإفطار.

ما يزال الأمير علي مقبل صغير السنّ وجميلاً وذاسلوك نبيل. في عام 1871 أراد الأتراك الاستيلاء على أملاكه معلّنين الحرب ضده، وتمكنوا من سجنه في تعز. ولقد مكث في السّجن سبعة شهور، وبسبب سوء المعاملة مرضت عيناه وفقد اليُمْنى على إثر ذلك.

شعر الإنكليز بالخطر التركي الذي بدأ يمتدّ باتجاه لحج، فاتحدوا مع جميع قبائل جنوب بلاد الشّاعري. وأجبروا الأتراك على تحرير علي مقبل وإرجاع أملاكه. لذلك فهو مدين للإنكليز وللأوروبيين عامة لأنهم بالنسبة إليه كلهم إنكليز. وعلى ذكر الأتراك قال لي بأنه يفضّل أن يصبح يهودياً مرتين على أن يعطي قصعة خبز لتركي حتى ولو كان على قطع رأسه.

وكم خاب أملي من مشاهدة معسكر حربي عربي! بدؤ يلبسون أسمالاً نالية كانوا في مرة من المرات يقرودون القوافل، وعوضاً عن الرّماح والسهام كانت أسلحتهم عبارة عن بنادق (ذات فتيل): هؤلاء هم الجنود. وكأنهم في استراحة القافلة الاعتيادية. أين هي الخيام والقواد العسكريون. لم أتخيّل على الإطلاق أن يكون هذا هو معسكر الجيش العربي.

وما أدهشني هو خوفهم العظيم من ضرورة قيامهم بفتح الطّريق في الراحة لإيصال المدفع إلى الحوطة. والمدفع قديم ومهترئ. وفي الحقيقة كنت سأخاف من استعماله

وإطلاق النار منه. حتى الأمير أقنعني بأن الأمور ستأخذ وقتاً طويلاً، وهم يحتاجون إلى ثمانية أيام على الأقل لإيصال المدفع إلى الحوطة.

أفصحتُ للأمير علي مقبل عن نيتي في الوصول إلى السّودة، حيث سلطان العلويين الذي يقف على الحياد لأنتهز فرصة عبور الراحة دون مناوشات وقاتل. وأضفت بأنني سأسبّقه لأجد مكاناً مناسباً لإقامته في السّودة. ولقد صدّق ذلك، حتى أنه أعطاني اسم شخص بإمكانه مساعدتي وجعلني أبيت عنده.

أمرت الخدم بإجراء ترتيبات السفر وكنت أعرف الطريق جيداً، لذلك انطلقنا ومررنا بالسّودة ولم أقل شيئاً حتى وصلنا إلى دار شيبان، قرية الحواشب الأولى. ووجدت مكان الاستراحة وطلبت العشاء. وطلبت من صاحب النّزل أن يطلب شيخ البلد مباشرة الذي تهيب من زيارتي.

أخبرت الشيخ من أنا وأين وجهتي، طالباً منه إبلاغ فضل بن يحيى في صباح اليوم التالي عن مروري بالراحة لإعطاء الأوامر بتسهيل عبوري. وهكذا تركوني أمرّاً بسلام حتى أن الشيخ قال لي مقبلاً يدي: «أنت الآن ضيفنا المكرّم وسننفذ أوامرك بحذافيرها».

عندما علم خدمي المقلب الذي لعبته معهم لم يهنأ لهم عيش. فطلبت من الشيخ تهدئتهم، فاستكانوا.

في المساء أخلدت إلى النّوم. وفي الليل ناداني الخدم قائلين⁽¹⁾: «يا خواجه، شوف كم عسكري».

وفي الواقع، عندما علم فضل بن يحيى من الشيخ بوصولي، أراد زيارتي ومعه عدد من الجنود لتشريفني.

استقبلته بحبور وقبل أن يتركني قال بأنه أمر اثني عشر رجلاً من جنوده بمرافقتي مسلّحين حتى حدود العبدلي.

(1) يكتب المؤلف العبارة بالعربية بحروف لاتينية:

عرف خدمي أن بإمكانهم الاطمئنان الآن فقالوا لي⁽¹⁾: «يا خواجه، أنت واحد رجّال!».

* * *

الجمعة 5 - في السّاعة الثّامنة والتّصف كنا قرب الراحة، والتقيت بالجنود الذين سيصبحونني. وفي الواحدة، قرب دار الشّقة تركوني. فأعطيتهم نصف تالّيرو للواحد (أي فرنكين ونصف) كهديّة.

وفي دار الشّقة وجدت جنود العبدلي الذين حيّوني تحيّة عسكرية (وربما كانت المرة الوحيدة التي أطلقوا فيها النّار)، فأجبتهم بالمثل.

أما رئيسهم محسن عبد الله، ابن عم سلطان لحج، فبعد إطراءته ومديحه، حاول الحصول على معلومات فيما يتعلق بتسلّح أعدائه ومشاريعهم.

فأجبتّه متوتراً: «محسن عبد الله، أنا رجل يسافر وحده ولا أخونك لا أنت ولا الآخرين. فكلّكم أصحابي، وأنا صديق العرب جميعاً».

عرف بأنه كان من الأجدر ألا يسألني بهذا الخصوص أيّ سؤال، فاعتذر طالباً مني ألا أقول شيئاً لأولاد عمه لأنهم سيغضبون منه. فوعده بذلك وحافظت على العهد.

في السّاعة الخامسة والتّصف دخلنا الحوطة.

* * *

السبت 6 - أخيراً وصلت عدن إلى بيت القنصل في السّاعة الثّالثة والتّصف بعد الظهر.

أولم يخطئ الجليليون بتكهناتهم؟

أولم أعرف أولئك البدو جيداً بحيث أثق بهم؟

(1) أيضاً يكتبها بالعريّة:

دخل الاثنا عشر صنعانياً، الذين بقوا مع الأمير، الحوطة بعد اثني عشر يوماً دون أن يصابوا بأذى.

وبتلك الطريقة يتحارب البدو فيما بينهم اليوم.

وكان القنصل الإيطالي لا يزال في عدن.

* * *



Benzo Manzoni



*Hag' Husen er-Rahali,
factotum del Console italiano in Aden.*



*Cammellieri di Aden,
Beduini della tribù dei Fàdhdhali.*



Mariem Fâthma, Araba di Têz domiciliata a El-Hôta.



*Ahamèd ben Àli el-Àbduli,
fratello del Sultano di El-Hôta.*



Il paese degli Abdul. Dintorni di El-Hôta.



*Mohammed Ali.
Mio compagno di viaggio: porta un mio paio di scarpe.*



Strada delle carovane nelle montagne dello Yemmen.



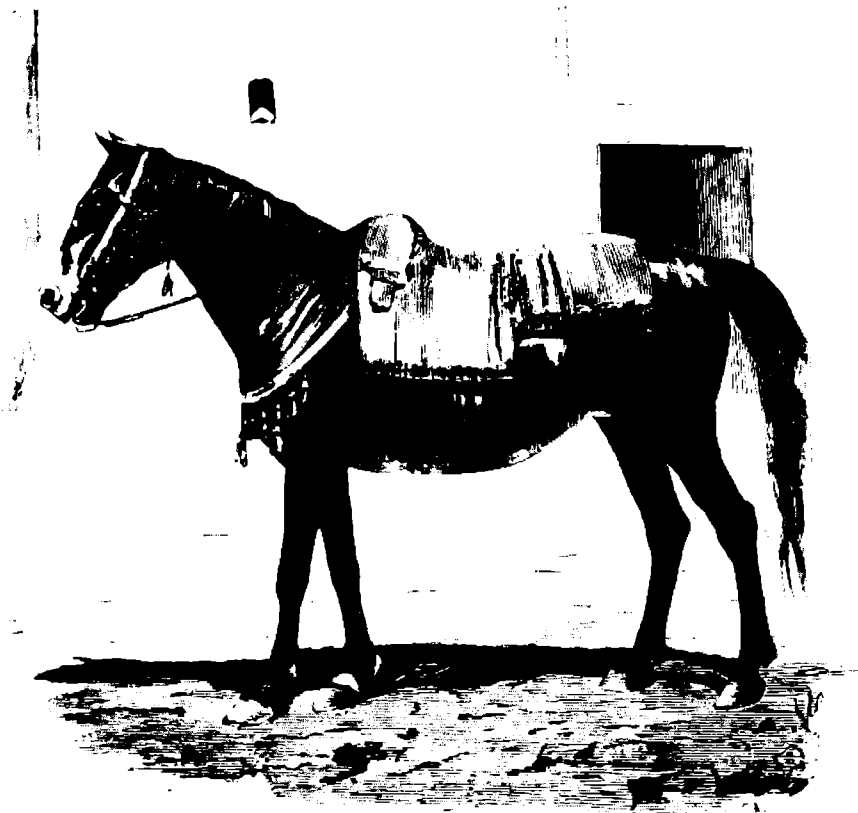
*Scekh Muqbèll et-Toqèsc', capo della tribù dei Bèni el-Harreh, e suo figlio Gànem.
Qabili dello Yèmen centrale.*



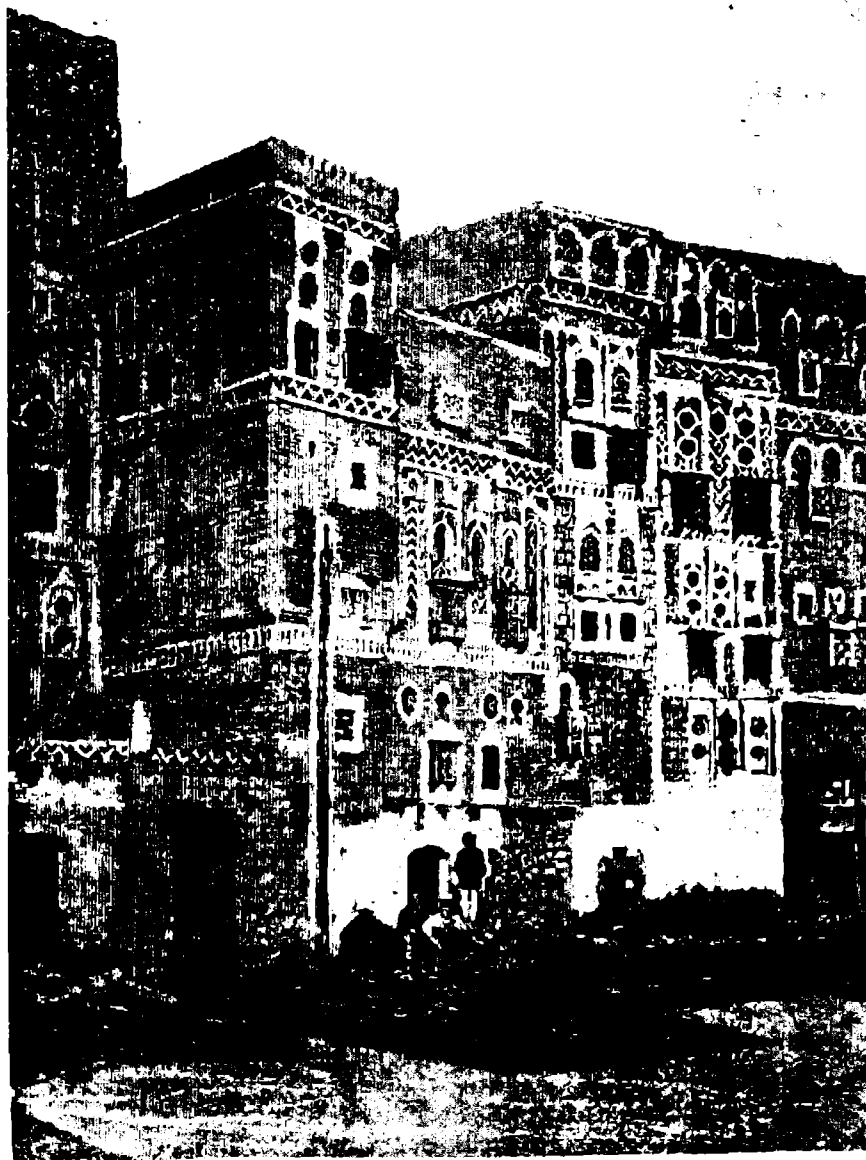
*Sidi Mohàmmèd èben Sid Abd'Allàh el-Muffèd Allàh.
Ahamed èben Ali el-Yèmeni, e suo padre Ali el-Yèmeni èben el-Yèmeni.
Qabili dello Yèmen centrale.*



Un villaggio yemenita.

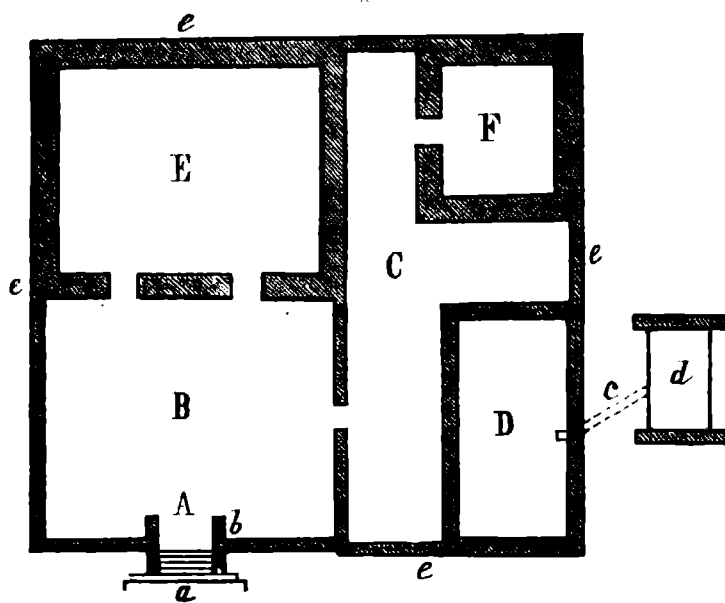


Una cavalla araba



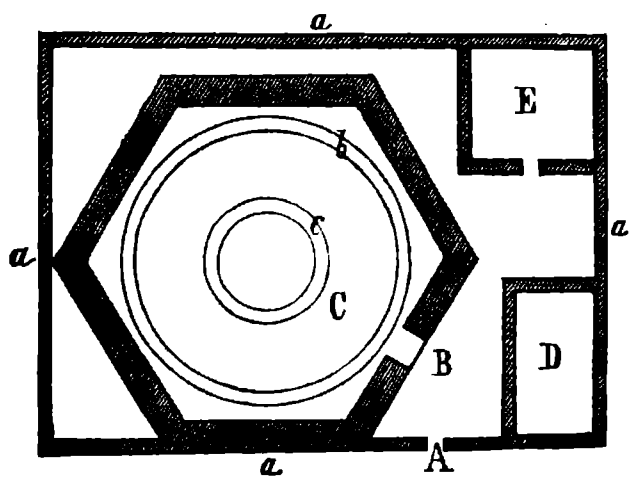
*Bét el-Khawaga Rengin Mangrini et-Taliàni,
la sua casa in Sonda.*

Fig 1



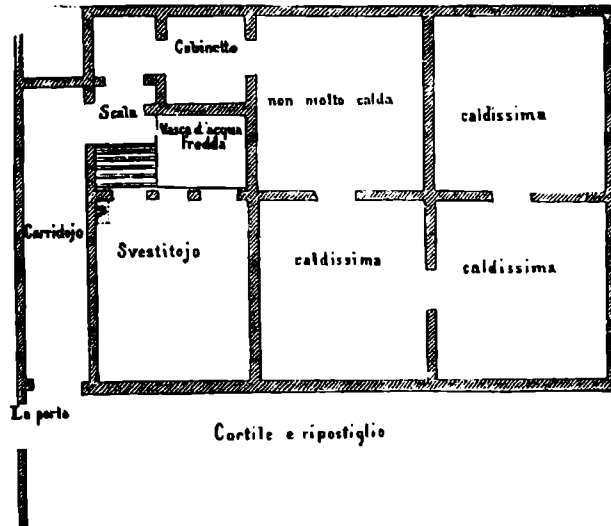
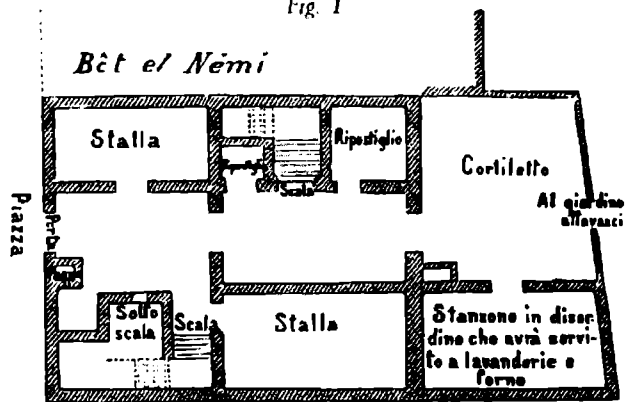
Moschea el-Medresèh.

Fig 2

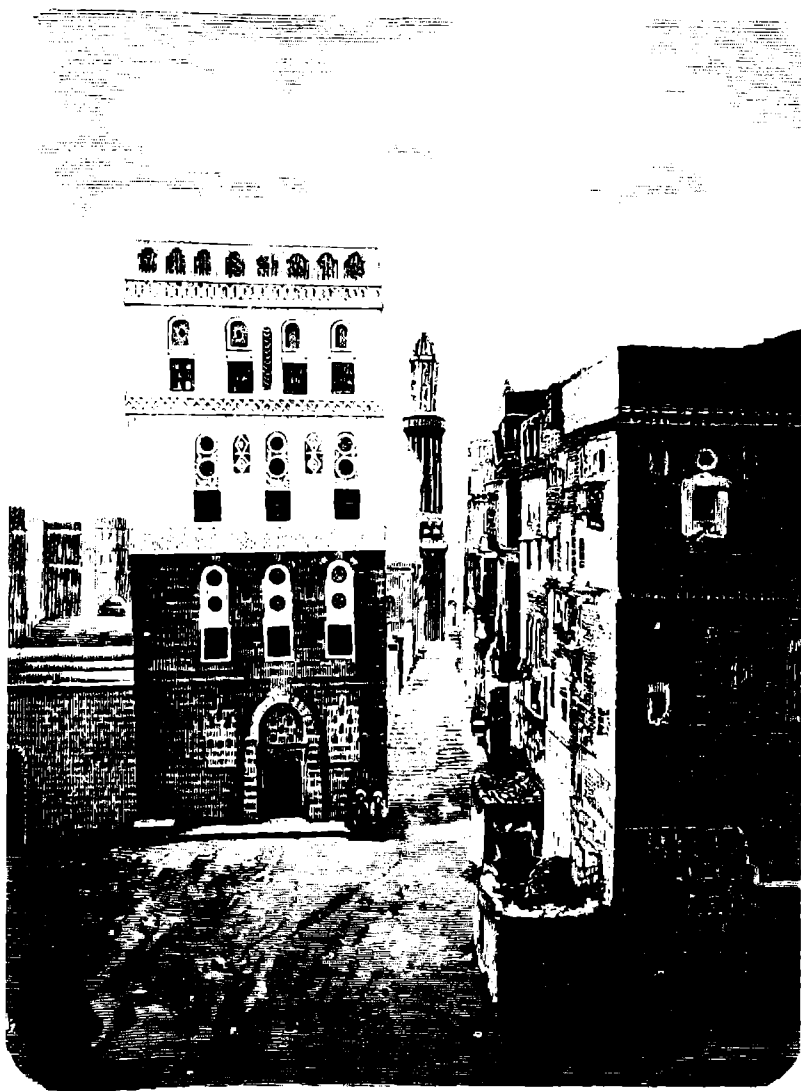


Moschea et-Tauàsci.

Fig. 1



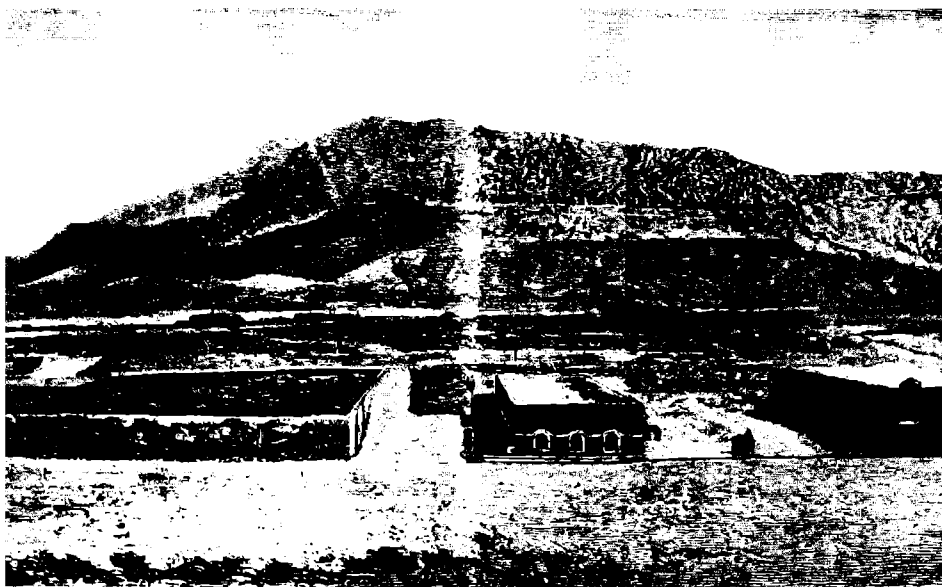
Hammam at-Tauâsci.



Casa di S. E. Ismâîl Hâqqî Pascià



Giardini e cose di Sanda



Sandā El-Gibēl Nuqūm

LO STATO MAGGIORE TURCO DELLO YEMEN



MUSTAFA ASSIM PASCIA Governatore generale delle Yema.									
ISMAIL HAQUI PASCIA Governatore di Souda					TEFTERDAR EFFENDI				
MUSTAFA PASCIA, Colonello					Ali RIZA Vescovo musulmano.				
Alto Bey	Mustafa Bey	Mussa Paschia,	Batouli Bey (Aglio del Mustaf.)	Ahmed, Molapci Aga.	Tahsin Bey.	Ali Bey.	Mustafa Bey.	Saïd Bey.	
Mahmud Bey.	Hamid Bey.	Saïd Bey.	Emm Bey.	Idris Bey (Aglio del Mustaf.)	Aman effendi Mithemet effendi.	Yikim Bey (Aglio del Mustaf.)			
Il capo della polizia									



*Qādhi Mohāmməd es-Sādiq ēben Hāsṣen, Sidi Āli ēben Muḥusīn, Qādhi Abamēd es-Sādiq ēben Hāsṣen (fratello del primo),
Abamēd ēben Gāzom, Sidi Hāsṣen ēben Gāzom nipoti di Sidi Ismāīl ēben Muḥusīn (fratello del secondo)
Qādhi, Imāmi, e altri dignitari di Nanāa.*



I miei domestici.

*Abaméd ben Yékkhie el-Hamdâni, Abd'Allâh ez-Zogagh eben Sâat, Hâssen eben Abdî el-Gheffâa
Sâleh ez-Zogagh eben Sâat, Mohâmméd eben Mehûmméd el-Yemâni.*



Qàmar Ben Amràn.



Fr. Radha

الفهرس

7	هذا الكتاب
15	نقاط حول الترجمة
21	مقدمة
37	الفصل الأول
43	الفصل الثاني
53	الفصل الثالث
67	الفصل الرابع
77	الفصل الخامس
95	الفصل السادس
113	الفصل السابع
127	الفصل الثامن
139	الفصل التاسع مدينة صنعاء
169	الفصل العاشر
179	الفصل الحادي عشر
185	الفصل الثاني عشر
203	الفصل الثالث عشر
219	الفصل الرابع عشر
231	الفصل الخامس عشر
239	الفصل السادس عشر
261	صور الكتاب

اليمن، رحلة إلى صنعاء

نقدّم للقارئ العربي كتاباً جديداً لرحالة شهير ارتبط اسمه بمدينة صنعاء في القرن التاسع عشر، ألا وهو الإيطالي رنزو مانزوني، الذي تميّزت سيرة حياته بنزوعه الجريء إلى الترحال في مجاهل البلاد واقتحام المخاطر، وأشهر رحلاته بالطبع كانت في اليَمَن، إذ قام بثلاث رحلات على امتداد ثلاث سنين بين 1877-1880 توجّه في الأولى بينها من عدن إلى صنعاء، ومن خلال إقامته الطويلة هناك وحرية الحركة التي حظي بها، تمكّن من دراسة طبوغرافيتها ومُجتمعها بشكل وافٍ وتام.

يعدّ كتاب مانزوني عملاً أصيلاً في فنّ «أدب الرحلة»، قدّم فيه رواية حيّة تفاعليّة لأحداث ممتعة يغلب عليها أسلوب الرواية الشخصية ولغة سلسلة أنيقة، فتعامل الرّجل بعاطفته الإيطاليّة الحارّة المعهودة مع النّاس الذين قابلهم أو رافقهم، سواء كانوا من العامّة أو الأعيان المحليّين أو الضباط والقضاة الأتراك، ووصف كلّ ما رآه بعين الشّاهد الدّقيق النّصف. فأفادنا بتقديم صورة جميلة تنبض بالحياة لليَمَن العزيز على قلب كلّ عربي، في محافظات لحج والضّالع وإب وذمار وصنعاء، ورسم لعاصمة اليَمَن العريقة لوحة بارعة بهيّة تجعل القارئ يحسّ وكأنّه يعيش فعلاً في صنعاء قبل قرن وثلاث قرن من الزّمان.

السعر 65 درهم



إصدارات
esdarat

دار الكتب الوطنية



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY